

جوانب من
ناتج حضارة العرب
في العصور القديمة

دار المعرفية الجامعية

٤٠ ش. مونتيفي - الأندلس - ت. ٤١٣٠١٦٣
٣٨٧ ش. قنات السويس - السكينة - ت. ٥٩٧٣١٤٦



Bibliotheca Alexandrina



0109029

١٩٩

جوانب من

ناج وخصاكة العرب

في العصور القديمة

أحمد أمين سليم

١٩٩٧

دار المعرفتة الجامعية

٤٠ شارع مورتية - القاهرة - ١٦٣-٢٨٣
٣٨٧ شارع قنالا العربية - الكويت - ٥٩٧٣١٢٦

إهداء

إلى روح أمي عند بارئها

بسم الله الرحمن الرحيم

«ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير»

صدق الله العظيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد .

فلقد خرجت الطبعة الاولى لهذا المؤلف عام ١٩٨٧ ، وقامت بطباعتها دار النهضة العربية ببيروت ، ولقد حاولت في هذه الطبعة الجديدة أن أزود الكتاب بالحواشى الضرورية التى تعين الدارس على الرجوع الى المعلومات فى مصادرها الاصلية ، كما قمت بتنقيح العديد من فصوله وزدت عليها فصلا عن دور المرأة فى المجتمع العربى القديم .

. ويتكون الكتاب من خمسة عشر فصلا ، بداتها بفصل عن جغرافية شبه الجزيرة العربية ومواردها الطبيعية ، وناقشت فى هذا الفصل الاقسام الجغرافية لشبه الجزيرة العربية ومناخها وموقعها واثار ذلك على تاريخها السياسى الداخلى وأيضا على علاقاتها الخارجية مع العالم الخارجى سواء المحيط بها أم البعيد عنها وتأثرت مصالحه بموقعها ، كما اشرت الى مواردها الطبيعية التى تزخر بها واثار هذه الموارد فى تاريخها السياسى

وأشرت فى الفصل الثانى الى المصادر التى يعتمد عليها الباحثون فى دراسة تاريخ العرب القديم ، وفيه اشرت الى المصادر الاثرية مبينا أهميتها التاريخية والحضارية وأنواعها وكيفية الافادة منها ، ثم ذكرت المصادر اليونانية الرومانية التى اهتمت بشبه الجزيرة وتاريخها ، وبعد ذلك المصادر العربية ، ثم اشرت الى المصادر الدينية وهى التوراة والقرآن الكريم .

وتناولت فى الفصل الثالث دراسة مبسطة عن طبقات العرب وقمت فى الفصل الرابع بدراسة دولة معين ، وتتبع فى هذا الفصل موقعها وأهميته الاقتصادية والسياسية ، ثم تتبعت تاريخها السياسى ونظام الحكم فيها ، ثم

أشرت الى الدور الفعال الذى قام به أهل معين في انشاء التجارة مع الشمال والعالم الخارجى مع مصر وبلاد اليونان ، وعلاقاتها السياسية والحربية مع جيرانها وبخاصة دولة سبا ، واخيرا فلقد أشرت الى أهم مدنها .

أما الفصل الخامس ، فقامت فيه بدراسة دولة حضرموت ، وفيه أشرت الى موقعها وطبيعته ، كما تناولت بالدراسة أسمها والتفسيرات المتعددة التى أبديت بشأنه ، ثم أشرت الى تاريخها السياسى وعلاقاتها بجيرانها ، وأهم مدنها وتحديدها الزمنى .

وتناولت في الفصل السادس دولة قنبدان ، وأشرت فيه الى موقعها ونظامها السياسى ، وما تميزت به النقوش القنبدانية من كثرة النصوص الرسمية المتعلقة بالضرائب والقوانين والمعاملات التجارية ، هذا ويقسم بعض الباحثين تاريخ قنبدان الى ثلاث مراحل وذلك حسب التطور السياسى للدولة ، ثم أشرت الى أهم مدنها وبقيائها المعمارية .

ويتصل الفصل السابع بدولة سبا ، وهى من أشهر الدول التى حظيت بأهمية خاصة فى التاريخ العربى القديم ، وتناولت فى هذا الفصل ما ورد فى القرآن الكريم ويتصل بسبا وكذلك المصادر الاوربية والاثرية ، ثم تتبعت المراحل المتعددة التى مرت بها سبا وعلاقاتها الخارجية مع العالم المحيط بها آنذاك ، وفى مجال السياسة الداخلية ، فلقد أشرت الى بنائهم للمعابد والسدود والمدن .

وتناولت فى الفصل الثامن تاريخ مكة المكرمة ، وهى تعتبر من أهم مواضع الحضر فى الحجاز على الاطلاق ، وتناولت فى هذا الفصل موقعها الجغرافى ومناخها والاسماء المتعددة التى أطلقت عليها ، ثم تتبعت تاريخها وأهم الوظائف فيها وعمارتها .

وخصصت الفصل التاسع لدراسة المدينة المنورة وأشرت فيه الى أسمائها ، وموقعها ومناخها ، وعناصر السكان الذين سكنوا فيها وتتابعهم ، وهم حسبما ورد فى روايات الاخباريين العرب العماليق فاليهود ثم العرب .

ويتصل الفصل العاشر بدولة الانباط ، وهى احدى الدول العربية فى

شمال شبه الجزيرة العربية ، وقد بلغت أوج ازدهارها في أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي ، وتناولت في هذا الفصل المصادر التي يعتمد عليها الباحث في دراسة دولة الأنباط ، ثم تتبع تاريخ ملوكها السياسى وعلاقاتهم الخارجية وأهم أعمالهم الداخلية وبخاصة نشاطهم الاقتصادى ونظام الحكم لديهم وحياتهم الاجتماعية ، وعقائدهم الدينية ، ونماذج من فنونهم .

وتناولت في الفصل الحادى عشر ، تاريخ دولة تدمر ، وأشارت فيه الى موقعها الجغرافى الى الشمال الشرقى من دمشق ، ثم اشرت الى اشتقاق اسمها وتاريخ ظهوره ، ثم اشرت الى أهمية موقعها فى نشاطها الاقتصادى والسياسى مع العالم الخارجى المحيط بها فى ذلك الوقت اذ كانت تقع بين امبراطورتي الفرس والروم ، وهما القوتان العظيمان فى ذلك الوقت . ثم تتبع تاريخ الساسانيين لاسرة اذينة وطموحاتها السياسية وتوسعها ثم نهايتها .

اما الفصل الثانى عشر ، فيتصل بدولة الغساسنة ، وهى من الدول التى لم يصلنا عنها سوى وثائق قليلة ، مما جعل تاريخها يتسم بالغموض نوعا ما ، ولقد حاولت اعتمادا على المصادر المتاحة تتبع ملامح تاريخها السياسى فى عهد ملوكها الذين وصلتنا معلومات عنهم .

ثم اشرت فى الفصل الثالث عشر الى مملكة كنده ، وتتبع باختصار مراحل تاريخهم منذ الهجرة من اليمن واستقرارهم فى مواطنهم الجديدة وتتابع ملوكها . وعلاقاتهم السياسية وأهم أعمالهم الداخلية الى نهاية هذه الدولة فى عهد ملكها امرؤ القيس الشاعر المشهور .

وتناولت فى الفصل الرابع عشر الفكر الدينى العربى القديم وفيه اشرت الى المعبودات التى عبدها العرب قبل الاسلام سواء فى الجنوب أم الشمال ، كما تناولت بشيء من التفصيل عبادة الاصنام فى بلاد العرب ، ثم اشرت الى انتشار اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب ، وأخيرا اشرت الى طائفة الحنفاء التى ظهرت فى بلاد العرب .

وفى الفصل الخامس عشر ، تناولت دور المرأة فى المجتمع العربى

القديم وأشرت فيه الى الزواج ، والشروط التى كانت مرعية فى ذلك، ومدى حرية الفتاة فى اختيار زوجها ، ثم تناولت المحرمات عند العربى القديم ، وتعدد الزوجات ، وأنواع الطلاق ، وحقوق المرأة فى الملكية ، ثم تناولت مكانتها فى المجتمع العربى القديم .

ويسعدنى فى نهاية هذا التقديم أن أتقدم بخالص الشكر للسادة القائمين على دار المعرفة الجامعية بقيادة الحاج صابر عبد الكريم، كما أتقدم بخالص شكرى للاخ الفاضل الاستاذ سعيد عبد الغنى للجهد الكبير الذى بذله فى سبيل اخراج الكتاب بهذا الشكل وعلى مراجعته لاصوله عدة مرات .

وادعو الله مخلصا أن أكون قد وفقت فيما هدفت اليه فى اخراج هذا الكتاب بالشكل المقبول «ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطانا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرأ كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعفوا عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» .
صدق لله العظيم (سورة البقرة آية ٨٦)

الاسكندرية فى أكتوبر ١٩٩٥ .

الفصل الأول

جغرافية شبه الجزيرة العربية
ومواردها الطبيعيّة

جغرافية شبه الجزيرة العربية

ومواردها الطبيعية

تقع شبه الجزيرة العربية فى القسم الجنوبى من القارة الاسيوية بين دائرتى عرض ١٢ر٥ - ٣٠ درجة شمالا تقريبا ، وتبلغ مساحتها (٣١٥٠ر٠٠٠ كيلو مترا مربعا)(١) وعلى ذلك فهى تعد أكبر شبه جزيرة فى العالم من حيث المساحة ، اما ابعاد شبه الجزيرة ، فيبلغ طول ساحلها الغربى من رأس خليج العقبة حتى خليج عدن ١٤٠٠ ميلا ، ويبلغ طول ساحلها الشرقى من رأس الخليج العربى شمالا حتى رأس الحد جنوبا ١٥٠٠ ميلا ، ويبلغ امتدادها من بحر العرب جنوبا الى الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية ١٦٠٠ ميلا ، اما عرضها فى اضيق نطاق بين البحر الاحمر والخليج العربى فهو ٧٥٠ ميلا ، واما بين خليج عمان والبحر الاحمر ، فيصل الاتساع الى ١٢٠٠ ميلا(٢) .

ويحد جزيرة العرب من الشرق الخليج العربى المعروف عند اليونان باسم الخليج الفارسى ، ويحدها من الجنوب المحيط الهندى ، أما حدها الغربى فهو البحر الاحمر ، أما حدها الشمالى فهى بادية الشام والتي تمتد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب فى الخليج العربى . ومن ثم فان المياه تحيط بها من اطرافها الثلاثة فقط .

ولقد عرفت البلاد باسم «جزيرة العرب» ، وقد تختصر التسمية الى «الجزيرة» فقط من باب التسهيل ، وهناك من الجغرافيين العرب من رأى

(١) جودة حسنين جودة : شبه الجزيرة العربية ، دراسة فى الجغرافية الاقليمية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٥ .
(٢) محمود طه أبو العلا : جغرافية شبه الجزيرة العربية ، جزء اول ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٥ - ٧ .

انها جزيرة فعلا على اساس ان الخليج العربى وبحر عمان يحيطان بها شرقا ، والمحيط الهندى جنوبا ، والبحر الاحمر غربا ، أما من ناحية الشمال فهناك نهر الفرات ونهر العاصى اللذين قد يكونان عند اقترابهما فى اعالى الشام حدا من الماء . ومن هذه الاسباب كذلك ، أن المنطقة تشبه جزيرة بشرية يتحدث سكانها باللغة العربية، وتحدها (غير الحدود البحرية) مجموعات بشرية تتحدث بلغات أخرى (١) .

هذا ويقسم المؤرخون والرحالة اليونان والرومن شبه الجزيرة العربية الى اقسام ثلاثة :

١ - العربية السعيدة Arabia Eudæmon

٢ - العربية الصخرية Arabia Petraea

٣ - العربية الصحراوية Arabia Erema

ويعد قسم العربية السعيدة أكثر الاقسام اتساعا ، ويشمل كل المناطق التى يقال لها جزيرة العرب فى الكتب العربية ، وليست لها حدود شمالية ثابتة ، لانها كانت تتبدل وتتغير على حسب الاوضاع السياسية ، فضلا عن قوة أو ضعف تلك الكيانات السياسية التى تقع الى الشمال منها وهى على اية حال تقع الى الجنوب من خط وهمى يمتد من الطرف الشمالى للخليج العربى فى الشرق الى رأس خليج العقبة (خليج ايلة فى الكتابات القديمة) ، او الى نقطة على الشاطئ الشرقى لهذا الخليج ، وقد سماها الكتاب الكلاسيكيون بهذا الاسم لوفرة مواردها سوء كانت زراعية وبخاصة فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة (اليمن) ، أو كانت موارد تجارية من نقل السلع من الاطراف المختلفة لشبه الجزيرة ، ويرى بعض المؤرخين أنه من الخطأ ادخال هذا الجزء من بلاد العرب السعيدة داخل بلاد العرب ، فهو يعتبر فى الواقع من بلاد العرب الصحراوية ، أما الجزء الذى يمكن أن يطلق

(١) انظر : لطفى عبد الوهاب يحيى ، العرب فى العصور القديمة ، مدخل حضارى فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ٨٩ ، محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ، ص ٩٣ - ٩٤ .

عليه بلاد العرب السعيدة فهو الجزء الجنوبي الغربي ، حيث تقع بلاد اليمن لغنى محاصيلها وتنوعها ، ولاعتدال مناخها(١) .

أما العربية الصخرية : فتشمل الاراضى التى كان يسكن فيها الانباط ، ويطلق ذلك الاسم ، اى العربية الحجرية على شبه جزيرة سيناء وبلاد الانباط وعاصمتها البتراء ، رقد سميت كذلك اما نسبة الى عاصمتها ، أو الى طبيعة المنطقة الصخرية . وكانت حدود هذه المنطقة تتوسع وتنقلص بحسب الظروف السياسية وبحسب مقدرة العرب ، ويظهر من وصف ديودور لهذه المنطقة ، انها فى شرق مصر وفى جنوب البحر الميت ، وجنوبه الغربى فى شمال العربية السعيدة وغربها . وان الانباط يقيمون فى الاراضى الجبلية وفى المرتفعات المتصلة بها فى شرق البحر الميت ووادى العربى ، وفى جنوب اليهودية حتى الخليج العربى ، أما الاقسام الباقية فكانت تسكنها قبائل عربية قيل لها سبئية ، وهى تسمية كانت تطلق عند الكتبة اليونان والرومان على أكثر القبائل المجهولة اسماؤها والتى تقطن وراء مناطق نفوذ الانباط والرومان ، ويعنون بذلك قبائل جنوبية فى الغالب(٢) .

أما العربية الصحراوية فيعنون بها بادية الشام فى اغلب الامر ، وبادية السادة فى بعض الاحايين ، بل ان (ديودور الصقلى) انما يذهب الى أنها المناطق الصحراوية التى تسكنها القبائل المتبدية ، وأن سكانها من الاراميين والنبط ، وانها تقع بين سورية ومصر ، كما أنها مقسمة بين شعوب ذات مزايا وصفات متباينة ، وان كان يبدو ان الرجل لم يكن لديه خط واضح يفصل بين العربية الصحراوية والصخرية . ونقرأ فى النصوص الاشورية من عهد (شلمنصر الثالث ٨٥٩ - ٨٢٤ ق م) أن من بين أعدائه فى موقعة (قرقر) عام ٨٥٣ ق م مجموعة عربية على رأسها «جندب» وجدت هناك منذ الالف

(١) محمد مبروك نافع : تاريخ العرب ، عصر ما قبل الاسلام ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٥١ ، لطفى عبد الوهاب يحيى . المرجع السابق ص ٩٩ - ١٠٠ .

(2) Smith, W., A. Dictionary of the Bible, 1, p. 91.

لثانية قبل الميلاد ، وكانت مصدر قلق للحكومات المسيطرة على الهلال الخصيب ، وانها كانت تنتقل في هذه البادية بحرية ، لا تعترف بحدود أو فواصل ، وانما كانت تقيم حيث الماء والكلا والمكان الذي يتلائم وطباعها(١).

وعلى اى حال ، فان الجغرافيين اليونان لم يفرقوا بين بلاد العرب الصحراوية والصخرية ، حيث يكون الفاصل بينهما صعبا جدا بالنسبة لهم، كما ان هؤلاء الجغرافيون قد اغفلوا الكتابة عن المدن الهامة مثل تيماء ودومة الجندل . اما الكتاب العرب فلقد اقتصر تصورههم في العصر الاسلامي لشبه الجزيرة العربية على القسم الاول وهو العربية السعيدة ومن ثم فقد قسموه الى خمسة اقسام هي اليمن وتعامه والحجاز ونجد واليمامة ، وكان اساس تقسيمهم «جبل السراة» - اعظم جبال بلاد العرب - وهو سلسلة جبال تبدأ من اليمن ، وتمتد شمالا حتى اطراف بادية الشام ، على مدى ١١٠٠ ميل تقريبا ، ويطلق عليها عدة اسماء فهي جبال السراة (السراة هي الارض المرتفعة) ، وهي جبال السروات (جمع سراة) وهي جبال الحجاز، كما كانت تسمى باسم الاقليم الذى هي فيه ، فيقال جبال الحجاز في الحجاز ، وجبال عسير في اقليم عسير(٢) .

ومستناول فيما يلى هذه الاقسام الخمس بشيء من التفصيل :

١ - اليمن :

تقع في الركن الجنوبي الغربي لشبه جزيرة العرب . تمتد اليمن على طول المحيط الهندي ، ويحدها البحر الاحمر من الغرب والحجاز من الشمال ، وتخترق السراة اليمن من الشمال الى الجنوب حتى البحر ، وتتخللها الاودية التى تنساب فيها مياه الامطار .

(١) سامى الاحمد : نظرة في جغرافية شبه الجزيرة العربية ، مجلة العرب ، العدد السابع ، ابريل ١٩٦٩ ، ص ٥٩٩ .
Luckenbill. D. D., Ancient Records of Assyria and Babylonia, I, Chicaga, 1927, p. 611.

(٢) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٩٧ - ٩٨ .

أما عن سبب تسميتها باليمن ، فذلك أمر ما يزال موضع خلاف ، فهناك من يذهب الى أن ذلك انما كان نسبة الى أول من قطنها من العرب ، الذي قال له والده قحطان أنت أيمن ولدى ، أو لأنها تقع على يمين الكعبة . بينما يتجه فريق ثالث الى أن السبب انما كان في طبيعة البلاد نفسها ، فهي بلاد اليمن والخير والبركة ، على أن رأيا رابعا يذهب الى أنها سميت بذلك لتيامن العرب اليها ، أو لان الناس قد كثروا بمكة فلم تحملهم ، فالتامت بنو يمن الى اليمن ، وهى أيمن الارض فسميت بذلك ، وهناك من يرجح أنها سميت اليمن من كلمة «يمنات» الواردة فى نص يرجع الى أيام الملك «شمر يهرعش» غير أن كل تلك الآراء لم تقل لنا شيئا عن الاسم الذى كان يطلق عليها قبل أن تسمى باليمن .

وتشتهر بلاد اليمن بغنى محاصيلها وتنوعها ، واعتدال مناخها ، حتى أنها سميت باليمن الخضراء ، وإن كان هناك فريق من العلماء يرى شيئا من المبالغة فيما نسب الى اليمن من خصب وثراء ، ويتجه الى القول بأن معظم الحاصلات التى كان يظن أن اليمن مصدرها انما جلبها العرب والمصريون من جزائر الهند وسواحل افريقية الشرقية، إلا أن هناك حقيقة جغرافية واضحة وهى انها كانت بسبب الجبال التى تقع فى داخلها عرضة للرياح الموسمية ، فتسقط الامطار التى تجعل أرض اليمن تجود بالبن أهم حاصلاتها ، وبالفاكهة والقمح والاعناب والتوابل(١) .

٣ - تهامة :

تبدأ حدود تهامة فى رأى بعض الجغرافيين ، من البحر الاحمر ، فتكون المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الاحمر ، وقد ورد اسم تهامة فى النصوص العربية الجنوبية «تهمت» (تهتم) ، وقد حاول بعض الباحثين ايجاد علاقة بين هذه اللفظة وكلمة (Tiamtu) البابلية ومعناها

(١) نجواد على : الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٧٦ ، سعد زغلول الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

البحر ، وكلمة تيهوم Tehom العبرية . بينما يتجه «جواد على» الى ان الكلمة انما ترجع الى اصل سامى قديم ، له علاقة بالمنخفضات الواقعة على البحر ومن ثم فهي شديدة الرطوبة والحرارة في الصيف ، ومن هنا سميت «تهامة» من التهم وهو شدة الحر وركود الريح . الا ان هناك من يرى ان السبب انما هو تغير هوائها ، كما ان هناك من يرى ان التهمة هي الارض المتصوية نحو البحر . ولعل انخفاض ارض تهامة كان هو السبب في ان يسمى بالغور وبالسافلة .

وهي تتألف من تهائم، فهناك تهامة اليمن وتهامة عسير وتهامة الحجاز، وفي الواقع ان التهائم ليست هي المنطقة الساحلية السهلة فحسب ، ولكنها تشمل كذلك على اكثر المناطق الواقعة الى المنحدر الغربى لسفوح جبال الحجاز ، وتختلف في عرضها باختلاف قرب السلاسل الجبلية من البحر وبعدها عنه ، وقد يبلغ عرضها خمسين ميلا في بعض الاماكن ، وقد تضيق في اماكن اخرى الى ان تصبح الهضاب القريبة من الساحل متصلة بالشاطئ رأسا ، هذا الى ان اكثر هذه المنطقة الساحلية رملى شديد الحرارة قليل الانبات ، كما ان جميع المدن الساحلية انما تقع في هذه المنطقة (١) .

٣ - الحجاز :

تمتد رقعة الحجاز في رأى اكثر علماء الجغرافية من تخوم الشام عند العقبة الى (الليث) وهو واد باسفل السراة يدفع في البحر، فتبدأ عندئذ ارض تهامة . وقد اعتبر بعض العلماء تبوك وفلسطين من ارض الحجاز . ويقال للقسم الشمالى من الحجاز ارض مدين وحسمى ، نسبة الى السلسلة الجبلية المسماة بهذا الاسم ، والتي تتجه من الشمال نحو الجنوب ، وارض حسمى ارض خصبة كثيرة المياه ، وكانت من المناطق المأهولة بالسكان وبها بقايا أثرية كثيرة ، ومن جبالها جبل يعرف بـ «ارم» .

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٧٠ ، السيد عبد العزيز سالم . دراسات في تاريخ العرب ، جزء اول ، عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ص ١٠٩ .

وقد سمي هذا القسم بـ «الحجاز» ، لانه يحجز بين ساحل البحر الاحمر ، وهو هابط عن مستواه وبين النجاد الشرقية المرتفعة بالنسبة الى الساحل الغربى ، او لانه احتجز بالجبـال ، او لانه يحجز بين الغور والشام ، او لانه يحجز بين تهامة ونجد ، او لانه يحجز بين الشام واليمن والتهائم .

وتتخلل الحجاز اودية عديدة ، منها وادى اضم الذى ورد ذكره فى اشعار الجاهلية وفى اخبار سرايا الرسول ، ووادى نخال ووادى القرى وهو وادى هام يقع بين العلا والمدينة ، ويمر به طريق القوافل القديم الذى كان شريانا من شرايين الحركة التجارية فى العالم القديم (١) .

٤ - نجد :

هى فى الكتب العربية اسم للارض العريقة التى أعلاها تهامة واليمن ، واسفلها العراق والشام ، وحدها «ذات عرق» فى الحجاز ، وما ارتفع عن بطن الرمة فهو نجد الى اطراف العراق وبادية السماوة . وعلى اى حال فان (نجد) بصفة عامة انما هى الهضبة التى تكون قلب شبه الجزيرة العربية ، وهى ليست قاحلة تماما وانما توجد فيها بعض اراض صالحة للزراعة ، وهى تتألف من مناطق ثلاثة : منطقة وادى الرمة ، فالمنطقة الوسطى ، ثم المنطقة الجنوبية . أما علماء العرب فقد قسموا نجد الى عالية وسافلة ، أما نجد العالية : فما ولى الحجاز وتهامة ، وأما السافلة فما ولى العراق (٢) .

٥ - العسروض :

تشمل اليمامة والبحرين وما والاها ، واغلب الاراضى فيه صحارى وسهول ساحلية ترتفع فى الجهات الغربية عن ساحل البحر . ومن أقسام العسروض ، شبه جزيرة (قطر) التى تمتد من عمان الى حدود الاحساء .

-
- (١) فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب ، الرياض ، ١٩٦٨ ص ١٧ ، جواد على : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .
(٢) انظر : محمود شكرى الالوسى : تاريخ نجد ، ص ٧ وما بعدها ، جواد على : المرجع السابق ، ص ١٨١ - ١٨٥ .

ويلبى شبه جزيرة قطر ، الاحساء ، والقسم الاكبر منها صحراوى يرتفع
فى الجهة الغربية عن ساحل البحر ويتخلله كثير من التلال ، والمنطقة
الساحلية تكثر فيها الآبار . وأغنى مناطق الاحساء منطقة الاحساء والقطيف
فى الجنوب حيث تكثر المياه من آبار وعيون . وتقع القطيف على خليج
يشمل جزيرة (تاروت) وتعد المدينة البحرية الرئيسية فى الاحساء وتكثر
بها مياه العيون . وأما القسم الشمالى من هذه المنطقة فهو الكويت ومعظم
أرضه منبسطة وأكثر سواحله رملية ، إلا بعض الهضاب أو التلال البارزة ،
وأكثر ما يزرع هناك النخيل . وليس فى الكويت من الأنهار الجارية غير
مجرى واحد يقال له «المقطع» ، وأشهر مدنه الكويت وجهرة ، وهى من
أخصب بقاع الكويت حالياً ، كما أنها كانت مأهولة بالسكان منذ عصر
ما قبل الاسلام (١) .

مظهر السطح :

تتكون أغلب الأرض فى بلاد العرب من بؤاد وسهول تغلبت عليها
الطبيعة الصحراوية ، ويمكن ايجاز مظاهر السطح الرئيسية فى بلاد العرب
على النحو الآتى (٢) .

١ - الحرار : تعد الحرار من المجموعة الصحراوية ، وهى أرض ذات
حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار ، وهذه الحرار إنما هى مقذوفات
بركانية تبتدىء من شرق حوران وتمتد منتثرة الى المدينة المنورة ، والحرار
كثيرة فى بلاد العرب ، ولقد عد أحد علماء العرب تسع وعشرين من هذه
الحرار وأشهرها حرة واقم ، والتي تنسب إليها وقعة الحرة على أيام يزيد
بن معاوية . وتكثر الحرار فى الأقسام الغربية من شبه جزيرة العرب ،
وتمتد حتى تتصل بالحرار التى فى بلاد الشام بمنطقة حوران . وتوجد

(١) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ١١٢ ، جواد على :
المرجع السابق ص ١٧٤ - ١٧٧ .
(٢) انظر : جواد على : المرجع السابق ، ص ١٤٥ - ١٥٣ ، وكذا
محمد بيومى مهران : المرجع السابق ، ص ١٠٦ - ١١٠ .

كذلك في المناطق الوسطى والشرقية الجنوبية من نجد حيث تتجه نحو الشرق ، وفي المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية .

وفي أرض اليمن عدد كبير من الحرار ، منها حرة «أرحب» شمالي صنعاء ، كما أن هناك كثيرا من الحرار في القسم الشمالي من «وادي أبرد» - بين صنعاء ومأرب - ولعل كثرة الحرار بجوار المدن القديمة هو الذي دفع البعض الى تفسير هلاك بعض المدن على أنه من هياج البراكين . وتعد «حرة ضروان» من أشهر حرار اليمن ، وقد بلغ من شهرة قذفها للحمم أن الثوم كانوا يتعبدون لها ويتحاكمون اليها فيما يشجر بينهم من خلاف ، وذلك لاعتقادهم بأن النار تاكل الظالم وتنصف المظلوم .

٢ - الدهناء : وهي مساحات من الاراضي تعلوها رمال حمراء في الغالب ، وتمتد من النفود في الشمال الى حضرموت ومهرة في الجنوب ، واليمن في الغرب ، وعمان في الشرق ، وفيها سلاسل من التلال الرملية ذات ارتفاعات مختلفة تنتقل في الغالب مع الرياح ، وتغطي مساحات واسعة من الارض ، ويمكن العثور على المياه في قيعانها اذا حفرت فيها الآبار . ويعد الجفاف سمة هذه المنطقة الصحراوية ، وكذلك تتميز بخلوها من الماء والمراعى ، ولذا فقد هجر الناس السكنى في أكثر أقسام الدهناء ، كذلك فإن كثرة هبوب العواصف الرملية ولشدة حرارتها أقام الناس في الامكنة المرتفعة منها والتي تتساقط عليها الامطار . والاقسام الجنوبية من الدهناء تسمى بالربع الخالى وذلك لخلوها من السكان . أما القسم الغربى من الدهناء فيسمى (بالاحتفاف) وهو منطقة واسعة من الرمال اقترن اسمها باسم (عاد) . وتكون (وبار) قسما من الدهناء ، وكانت من الاراضي المشهورة بالخصب والنماء وهي اليوم من المناطق الصحراوية .

٣ - النفود : وهو الصحراء المسماة «بادية السماوة» ، أما النفود فاسم لم يكن يعرفه العرب ، وعلى أي حال ، فهي صحراء واسعة ذات رمال بيض أو حممر تذروها الرياح ، فتكون كثباناً مرتفعة وسلاسل رملية متموجة ، يحدها من الشمال وادي السرحان ، ومن غربها الجنوبي واحة تيماء ، ومن الجنوب جبلا أجا وسلمى ، ومن شرقها الجنوبي مدينة خائل . وهكذا

يبدو واضحا أن صحراء النفود تمتد على مسافة كبيرة من الارض ، تزيد عن مائة الف كيلو متر مربع . وكان يطلق على النفود الكبير قديما «رملة عالج» .

التضاريس (١) :

١ - الجبال :

تكون سلسلة جبال السرات العمود الفقري لجزيرة العرب ، وتتصل بسلسلة جبال بلاد الشام ، وبعض قمم هذه السلسلة مرتفعة ، وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذي يرتفع (٢٢٠٠) متر عن سطح البحر ، وجبل شيبان . وتنخفض هذه السلسلة عند دنورها من مكة ، فتكون القمم في اقل ارتفاع ، ثم تعود بعد ذلك الى العلو حيث تصل الى مستو عال في اليمن حيث تتساقط الثلوج على قمم بعض الجبال . وتشتهر منطقة مكة بمجموعة من الجبال ، اشهرها جبل «ابى قبيس» في جنوب مكة ، وجبل «حراء» في شرقها ، وجبل ثور ويشرف على مكة من الجنوب ، وجبل رضوى بين المدينة المنورة والبحر الاحمر .

وتمتد في محاذاة السواحل الجنوبية سلاسل جبلية تتفرع من جبال اليمن ، ثم تتجه نحو الشرق الى ارض عمان ، حيث ترتفع قمم الجبل الاخضر ارتفاعا يتراوح من تسعة آلاف قدم الى عشرة آلاف قدم ، وفي نجد منطقة جبلية تتكون من الجرانيت يقال لها جبال «شمر» وتتألف من سلسلتين ، يقال لاحدهما أجا ، وللأخرى سلمى . وأما جبل (طويق) فهو عبارة عن مرتفعات تقع في الوسط الشرقي من نجد وفي جنوب شرق الرياض ، وتتألف من الحجارة الرملية وتحيط بها الصخور والحجارة الكلسية ، ويطلق الجغرافيون العرب عليها اسم جبال العارض .

ب - الاودية والانهار :

تعد بلاد العرب من البلاد التي تقل فيها الانهار والبحيرات ، ومن ثم يغلب عليها الجفاف ، واصبحت أكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان ،

(١) انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ - ١٦٣ ، لطفي عبد الوهاب يحيى : المرجع السابق ، ص ٩٢ وما بعدها .

ولكن تتوفر فيها الاودية وتطغى عليها السيول عند سقوط الامطار ، وهى فى الغالب طويلة ، تسير فى اتجاه ميل الارض ، أما الاودية التى تصب فى البحر الاحمر أو فى البحر العربى ، فانها قصيرة بعض الشيء وذات مجرى اعمق وانحدار اشد ، والمياه تسير فيه بسرعة . وليس فى استطاعة احد التحدث عن ملاحه بالمعنى المفهوم عن الملاحه فى نهيرات جزيرة العرب ، وذلك لان هذه النهيرات إما قصيرة سريعة الجريان ، وأما ضحلة تجف مياهها فى بعض المواسم . والامر كذلك بالنسبة الى البحيرات ، فليس فى بلاد العرب بحيرات ، وإنما هناك عدد كبير من «السبخات» الملحة وهى مناطق واسعة تؤلف مساحة عظيمة من الارض السهلة غالبا ، وتحتوى على كثير من الاملاح المتجمدة ، ومن هذه السبخات سبخة المدينة المنورة وسبخة حضوضاء فى وادى السرحان وسبخة الاحساء . أما الاودية فكثيرة فى شبه الجزيرة العربية ، ولعل من أهمها وادى الرمة ، ويمتد من شرق المدينة المنورة فى اتجاه شمالى شرقى حتى يصل الى (واحة البعاث) ، ووادى الحمض الذى كان يسمى قديما «وادى اضم» ويبدأ من جنوب حرة خيبر ، ثم يتجه الى المدينة المنورة حيث تتصل به اودية فرعية كوادى العقيق ووادى القرى ، وهناك كذلك وادى السرحان وهو ليس واديا بالمعنى المفهوم وإنما هو منخفض واسع من الارض يمتد من الجنوب الى الشمال ، وتنحدر منه اودية كثيرة من جميع جهاته ، أما وادى الدواسر فهو واد كبير يتجه شرقا عبر وديان جبل طوق وتنتهى مياهه شرقا عند اطراف الربع الخالى ، وهناك وادى نجران وهو أحد الاودية الكبيرة فى شبه الجزيرة العربية ، بل هو فى الواقع مجموعة اودية منها وادى حرص ووادى مور .

المناخ :

تعتبر شبه الجزيرة العربية من اشد البلاد جفافا وحرا ، ويرجع ذلك أولا لوقوعها فى منطقة قريبة من خط الاستواء . وثانيا أن معظمها يقع فى الاقليم المدارى الحار . وثالثا أنها بعيدة عن المحيطات الواسعة التى تخفف من درجة الحرارة . ورابعا أن المسطحات المائية التى تقع الى الشرق وإلى الغرب منها – أى الخليج العربى والبحر الاحمر – أضيق من أن تكفى لكسر

حدة هذا الجفاف المستمر ، كذلك فإن المحيط الهندي الذي يقع الى الجنوب منها تمنع مرتفعات حضرموت والرياح الخالي الامطار الذي يساعد على سقوطها من الوصول الى داخلها ، بالإضافة الى أن رياح السموم التي تنقباب شبه الجزيرة العربية في مواسم معينة تسلب الرطوبة من الهواء قبل أن يدخل البلاد(١) .

ويتميز مناخ شبه الجزيرة العربية عموما بالتطرف ، وبالاختلاف الحرارى السنوى واليومي الكبير ، وتنفرد هوامشها الشمالية بشتاء رطب وبارد ، وقد يتكون الصقيع في مياه بعض واحاتها في الصباح الباكر ، ويتميز صيفها بشدة حرارته وجفافه ، أما فصل الربيع والخريف فهما يعتبران موسمي انتقال لا يستغرقان مدة طويلة(٢) .

ويسود الجفاف شبه الجزيرة العربية بوجه عام ، ونظرا لقلّة المطر فإن أكثر أراضيها صحراوية ، الا أنه توجد اودية كثيرة تسيل فيها المياه في موسم الامطار ، وهى اودية شديدة الانحدار تصب في البحر الاحمر ، او في بحر العرب ، والامطار تسقط في الخريف والشتاء في الشمال ، بينما تسقط في الصيف في بلاد اليمن ، وتنمو الاعشاب في البادية اذا سقطت الامطار ، وهى أعشاب قصيرة لا تلبث أن تموت ، ولذلك فلقد فرضت طبيعة الموارد الطبيعية في البادية على ساكن هذه المناطق الترحال والانتقال من مكان الى آخر حيث تتوافر موارد المياه والعشب .

وأطلق الكتاب المسلمون على الرياح التي تهب على الجزيرة العربية العديد من التسميات(٣) ، فأطلقوا على الرياح التي تهب من جهة المشرق «القبول» وكذلك «رياح الصبا» نظرا لأنها ريح مقبولة طيبة تصبو اليها النفوس وهى تهب بشكل خاص على اقليم نجد ، وكانت تات محملة

-
- (١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .
(٢) جودة حسنين جودة ، المرجع السابق ، ص ١٦ - ١٧ .
(٣) انظر : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٧٥ ، وما بعدها .

بالامطار ، واطلقوا على رياح الشمال «التيسر» عكس التيمن أو اليمين .
وهى رياح باردة تهب على الحجاز بعد أن تكون قد اجتازت هضاب
الاناضول ومرتفعات سورية ، ولذلك عرفت أيضا بالرياح الشاميه ، كما
عرفت بالحدواء لأنها تحددو السحاب أى تسوقه .

وأطلقوا على الرياح التى تهب من المغرب تسمية الدبور ، وهى تهب
مصحوبة بامطار ولذلك عرفت أيضا بالزاريات والمعصرات ، أما الرياح
الرابعة فهى الرياح الجنوبية ، وهى من التيمن ، وكانت تأتى من اليمن .

وبالنسبة للاحوال المناخية لشبه الجزيرة العربية خلال فصل الصيف
فيلاحظ تركيز مناطق ضغط منخفضة عميقة فى أوائل الصيف فى الحوض
الادنى لنهر السند ، وفى شرق شبه الجزيرة العربية بسبب الحرارة الشديدة
ويمتد تأثيرها فيشمل جميع أراضى المنطقة العربية الاسيوية ، وحينما يشتد
عمق الانخفاض الهندى العربى فى أواسط الصيف يشتد هبوب التيارات
الهوائية الشمالية الشرقية على شبه الجزيرة ، وهى عبارة عن تيارات
دائمة الهبوب ليلا ونهارا ، وهى تصل الى شبه الجزيرة شديدة الجفاف .

وقد يحدث فى بعض الاحايين بعض الاضطرابات فى توزيع الضغط
وعمقه فتندفع الكتل الهوائية من منطقة الخليج العربى ، وهى رياح حارة
متربة. وفى الجهات المرتفعة تصبح رطبة مرهقة .

وتؤذى الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الى سقوط الامطار على القسم
الجنوبى من شبه الجزيرة العربية وذلك فى الفترة الممتدة من شهر يوليو
وحتى شهر سبتمبر من كل عام .

ثم تقراجع التيارات الهوائية الشمالية الشرقية فى اواخر الصيف ، وفى
هذه الفترة تبدأ بعض مناطق الضغط المرتفع فى التكوين فوق أراضى آسيا
المرتفعة ، ويتركز الهواء البارد فى أراضى ايران والاناضول المرتفعة ،
ويندفع هذا الهواء البارد من آن لآخر خلال الاودية والسهول ، ويجلب
موجات من البرد تستمر لايام ، وبحلول فصل الشتاء تبدأ الرياح الغربية
واعاصيرها فى الهبوب على المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية . وهى

تؤدي الى سقوط الامطار ، وتتناقص كمية الامطار في اتجاه الشرق ونحو
الداخل .

ويلاحظ ان فصل الربيع والخريف لا يدومان طويلا ، ففي فصل الربيع
يتحطم نطاق الضغط المرتفع ويدفأ الجو ، ولكن أحيانا تهب بعض الاعاصير
تحمل معها كميات كبيرة من الاتربة ، وقد تؤدي الى سقوط الامطار ،
وتسمى هذه الرياح الجنوبية في السعودية باسم «السموم» أما في الكويت
فتسمى «الطوز» .

أما في فصل الخريف فهو يتميز بجفافه وحرارته ، ولا تسقط الامطار في
بدايته الا نادرا ، وقرب نهايته تبدأ قطرات الماء في النزول الى الارض (١) .

الموارد الطبيعية :

المعادن :

١ - الذهب : وهو من المعادن التي استخرجت منذ العصور القديمة
ومن ثم فقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء ومواقع عرفت بوجود خام الذهب
بها مثل موضع (بيشة) أو (بيش) ، وقد كان الناس يجمعون التبر منه ،
ويستخلصون منه الذهب . و (صنكان) وكان به معدن غزير من التبر ،
والمنطقة التي بين القنفذة ومرسى حليج ، وكذلك يشاهد في وادي تثليث على
مقربة من (حمضه) وعلى مسافة ١٨٣ ميلا من نجران آثار التبر ، ويظهر
أنه كان من المواضع التي استغلت قديما لاستخراج الذهب منها . وقد اشتهرت
ديار بنى سليم بوجود المعادن فيها وفي جملتها معدن الذهب . وقد ذكر
الكتاب اليوناني أن الذهب يستخرج في مواضع من جزيرة العرب خالصا نقيا ،
لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته . وقد
عثر احدى الشركات في اثناء بحثها عن الذهب في بعض أماكن وجوده في
شبه الجزيرة العربية على أدوات استعملها الاولون قبل الاسلام في استخراج

(١) جودة حسنين جودة ، المرجع السابق ، ص ١٧ - ٢١ .

الذهب واستخلاصه من شوائبه ، مثل رحي وادوات تنظيف ومدقات ومصاييح (١) .

ب - الفضة : وجدت مناجم قديمة للفضة شرقى القنفذة ، وعند منتصف المسافة بين وادى قينونة ووادى بنا ، وكذلك استخرجت الفضة من الرضاوض فى اليمن .

والى جانب الذهب والفضة ، عثر على خامات الرصاص والزنك شرقى القنفذة ، وعثر على مناجم الحديد فى وادى فاطمة (٢) .

٢ - النباتات :

يقل وجود النبات والاراضى الزراعية بصفة عامة فى بلاد العرب ، وذلك نتيجة لقلّة المياه أولا الى جانب جفاف الهواء وملوحة التربة التى تحول دون نمو النبات وازدهاره . وتعتبر نخلة البلح هى ملكة عالم النبات فى شبه الجزيرة ، وما زالت حتى اليوم تحتفظ بمركز ممتاز بين الحاصلات الزراعية فى بلاد العرب ، وان تدهورت قيمة التمر فى السنوات الاخيرة .

وقد اشتهرت مناطق عديدة من شبه جزيرة العرب بالكروم ، ومنها الطائف واليمن ، كما غرس فى الواحات العربية الرمان والتفاح والمشمش والبرتقال والليمون والبطيخ والموز ، ويرجح أن الانباط واليهود هم الذين ادخلوا هذه الفواكه الى بلاد العرب من الشمال . كذلك زرع القمح والشعير فى الواحات ، كما ينمو الارز فى عمان والاحساء ، ويزدهر شجر اللبان والتمر والمر على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبى ، وكانت له أهمية كبرى فى الحياة التجارية الاولى فى بلاد العرب الجنوبية .

وتوجد فى البادية عدة أنواع من شجر السنط منها الأثل والغضال الذى

(١) جواد على ، المرجع السابق ص ١٩٢ - ١٩٤ .

Moritz, B., Arabien, Hanover, 1923, p. 105 ff.,

(٢) العمرانى (أبو محمد الحسن بن أحمد بين يعقوب) ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الاكوع ، الرياض ، ١٩٧٤ ، ص ٢٠٢ .

ينتج الفحم ، والطلح الذى يستخدم منه الصمغ العربى ، والاراك وهو الحمض وتتخذ منه المساويك(١) .

٣ - الحيسوان :

يعد الجمل هو الحيوان الالىف الوحيد الذى استطاع بعناده وصلابته على السير بجبروت فوق رمال الصحارى ، وهو ايضا من اقدم الحيوانات التى سمعنا بها عند العرب وأعزها وقد صور فى النصوص الاشورية ، عند ذكر معركة (قرقر) ومعارك اخرى وقعت بين العرب والاشوريين . ويرى العلماء أن الانسان قد ذلل الجمل حين صيره اليفا مطيعا فى الالف الثانية قبل الميلاد . هذا وقد ذهب بعضهم الى أن العربية الشرقية إنما كانت الموطن الذى ذلل هذا الحيوان فى الشرق الادنى القديم .

أما الخيل ، فعلى الرغم من اشتهار جزيرة العرب بجمال خيلها وبتربيتها لاحسن الخيل وبتصديرها لها ، فإن الخيل فى جزيرة العرب إنما هى من الحيوانات الهجينة الدخيلة الواردة عليها من الخارج ، ولا ترتقى أيام وصولها الى الجزيرة الى ما قبل الميلاد بكثير ، وقيل أنها وردت اليها من العراق ومن بلاد الشام ، أو من مصر .

أما البغال ، فإنها من الحيوانات المعروفة بتحملها للمشقات وقدرتها على السير فى المناطق الوعرة ، وقد استعملت فى الحمل وفى الركوب ، وهى تؤدى خدمات فى هذه المناطق التى تعد صعبة على الجمل ، ويظهر أن البغال لم تكن كثيرة الاستعمال فى جزيرة العرب حتى ظهور الاسلام ، فقد ورد أن بغلة النبى عليه الصلاة والسلام ، كانت أول بغلة رؤيت فى الاسلام ، وقد أهداها له المقوقس ، وأهدى معها حمارا يقال له عفير . والحمير هى أول واسطة للركوب والحمل عند الحضرة وأهمها ، وهى للحضرى مثل الجمال للبدوى ، ويظهر من ملاحظات بعض الباحثين أن الحمار فى جزيرة

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧ وما بعدها .

العرب هو اقدم عهدا من الجمل ومن الخيل والبغال، اذ كان واسطة الركوب والنقل في اوائل الالف الثانية قبل الميلاد .

والبقر من الحيوانات القديمة في بلاد العرب ، وهى من الحيوانات الملازمة لاهل الحضر في الغالب ، ولا سيما اهل الريف ، أما الاعراب فان استفادتهم منها غير ممكنة ، وكان يستفاد من البانها ومن لحومها وجلودها كما يستفاد منها في حرث الارض، وفي سحب الماء من الابار وفي جر العربات . اما الاغنام فهى المادة الرئيسية لتموين الناس باللحوم والضوف ، وتربى في معظم انحاء جزيرة العرب .

وعرفت جزيرة العرب الاسد ، الذى قل وجوده فيها في الاسلام ، ويظهر من كثرة اسمائه في اللغة ومن ورود اسمه في الشعر الجاهلى ، انه كان كثيرا فيها ، وهناك اماكن خاصة اشتهرت بكثرة اسودها ومنها (عثر) ، و (عتود) (١) .

طرق التجارة :

تميزت الجزيرة العربية بمقومين رئيسيين كان لهما اثرا كبيرا وفعالا في الازدهار التجارى لهذه المنطقة ، ويتمثل الامر الاول في غنى هذه المنطقة بالتوابل والبخور ، والآخر هو الموقع المتوسط لهذه المنطقة والذى يربطها بمختلف المناطق سواء بواسطة البر أم البحر .

واستفاد سكان شبه الجزيرة من هذا الموقع والطرق التجارية ليس فقط في تصدير منتجاتهم، ولكنهم عملوا أيضا بالوساطة التجارية فكانوا يستوردون منتجات الهند والحبشة والصومال والسودان ، ويقومون بتصديرها ، وكان لذلك اثرة الكبير في تمتع هذه المناطق وبخاصة جنوب الجزيرة العربية بثراء كبير .

وسنتناول فيما يلى بشيء من التفصيل طرق التجارة التى ربطت

(١) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، جزء أول، ترجمة ادوارد جرجس، جبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٢٥ وما بعدها .

الجزيرة العربية سواء بين اجزائها أو بينها وبين العالم الخارجى ، ونبدأ بالطريق البرى .

طرق التجارة البرية :

تعددت طرق التجارة البرية التى تمر بشبه الجزيرة العربية وتربط بين اجزائها والعالم الخارجى ، وكان منها الطرق العرضية التى تربط بين اجزاء شبه الجزيرة ، ويمكن تتبع أربعة منها وكان يربط الاول منها فى الجنوب ما بين المناطق المنتجة للمر فى الغرب ويتخذ اتجاهها شرقيا بطول الساحل المتعرج لشبه الجزيرة حتى يصل الى المنطقة المنتجة للقرفة ، ويبلغ طول هذا الطريق حوالى ٦٠٠ ميل ، ولم يكن ينتهى هذا الطريق بميناء على شاطئء المحيط الهندى أو الخليج العربى ، وعلى ذلك يرجح أن هذا الطريق كان يستخدم لتجارة القرفة .

أما الطريق الثانى فكان يتجه من القسم الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة شمالا الى مدينة جرهاء التى يرجح أنها تقع على مقربة من ميناء العقير الحالية فى وسط ساحل شبه الجزيرة المطل على الخليج ، وكان يستخدم هذا الطريق فى نقل منتجات جنوب الجزيرة العربية الى مدينة جرهاء ومنها كانت تنقل الى وادى الرافدين اما بالطريق البرى أو فى قوارب .

ويبدأ الطريق البرى الثالث من مكة وينتهى الى وادى الرافدين ، ولم يكن لهذا الطريق من الشهرة ما للطرق الاخرى، ولذلك فلم يذكره الجغرافيون والكتاب الكلاسيكون الاوائل .

ويتفرع الطريق الرابع من الطريق الطولية الجنوبية الشمالية بعد مسافة شمالى يثرب فى اتجاه شمالى شرقى مارة بعدد من الاماكن أهمها تيماء ثم دومة الجندل وينتهى الى وادى الرافدين عند بابل على نهر الفرات ، ويعتبر هذا الطريق من الطرق الهامة القديمة .

ويقع الطريق الخامس فى اقصى شمال شبه الجزيرة العربية ، ويشكل هذا الطريق امتدادا صحراويا لطريق تجارى يبدأ من شمال غربى بغداد على نهر الفرات ، ويسير بمحاذاة النهر حتى مأرب ثم تمتد غربا الى تدمر،

وتمتد من تدمر غربا الى حمص حيث يتفرع الى عدة أفرع تصل ما بين حمص من جهة والموانىء الفينيقية ودمشق وفلسطين من الناحية الاخرى . وكانت تدمر هى حلقة الوصل فى هذا الطريق ، وترجع أهمية هذا الطريق بجانب أهميته التجارية ، الى أهميته السياسية ، حيث كانت تسكن هذه المنطقة قبائل بدوية متنقلة سببت الكثير من القلاقل للدول الموجودة فى سورية وبلاد الرافدين وعلى ذلك كانت السيطرة على هذا الطريق وتأمينه أمرا هاما بالنسبة للقوى السياسية المحيطة به ، وأرى ذلك الى زيادة ازدهاره التجارى .

وبجانب هذه الطرق العرضية كانت هناك طرق طولية موازية للبحر الاحمر تقريبا ، وكانت تبدأ من أقصى جنوب شبه الجزيرة وتنتجه شمالا الى المنطقة السورية وشواطئها فى الشمال ، فكان يبدأ من قتبان فى الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة وحضرموت الواقعة الى شرقها وسبأ المتاخمة لها من ناحية الشمال ، وكان يبدأ طريق القوافل من تمنع عاصمة قتبان ويتجه شمالا مخترقا الحدود الشمالية لمنطقة سبأ ، ثم يخترق أرض معين ويستمر شمالا حتى مكة ، ومنها يصل الى ديدان (العلا الحالية) ومنها الى مدين ثم البتراء عاصمة الانباط ، ومن البتراء يتفرع الطريق الى فرعين ، أحدهما الى تدمر فى الشمال ، والاخر يتجه الى الغرب والشمال الغربى حتى يصل الى غزة(١) .

طرق التجارة البحرية :

رغم وقوع شبه الجزيرة العربية على مساحات مائية شاسعة الا أنها لم تستفد منها فائدة كبيرة ، ويرجع ذلك الى عدة عوامل منها غلبة الشعب المرجانية على شواطئ البحر الاحمر وبخاصة الشمالية منه ، كما أن الخليج العربى تعوز سواحله المياه الصالحة للشرب مما عطل من امكانية استخدام هذه الشواطئ فى العصور القديمة ، يضاف الى ذلك عدم وجود الاخشاب الصلبة الطويلة التى تصلح لبناء السفن فى شبه الجزيرة العربية ، وأدى

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ٣١٤ - ٣٢٤ .

ذلك الى عدم وجود نشاط بحرى عربى من جانب شبه الجزيرة فى العصور
القديمة .

ولقد بدأ النشاط البحرى لدول شبه الجزيرة العربية بعد إنشاء مدينة
الاسكندرية وعلى ذلك فالنشاط البحرى لشبه الجزيرة العربية بدأ متأخرا
جدا . فظهر نشاط تجارى بحرى بين مدينة جرهاء على ساحل الخليج
العربى وبلاد الرافدين ، كما وجد نشاط تجارى بحرى بين شرق الجزيرة
والصين .

أما النشاط التجارى البحرى فى البحر الاحمر فلقد ازداد خلال عصر
البطالة واستمر خلال العصر الرومانى (١) .

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٣٢٤ - ٣٣٣ .

الفصل الثاني

مصادر التاريخ العربى القديم

مصادر التاريخ العربى القديم

يعتمد المؤرخ فى دراسته لتاريخ العرب القديم على العديد من المصادر التى يأتى فى مقدمتها المصادر الاثرية وما سجله المؤرخون والرحالة اليونان والرومان ، وما ورد عن بلاد العرب فى العصور القديمة فى الكتابات اليهودية كالتوراة ، وما سجله المؤرخ اليهودى يوسف بن متى ، وما جاء فى الكتابات المسيحية عن بلاد العرب والقبائل العربية ، ثم المصادر العربية التى يأتى فى مقدمتها القرآن الكريم ثم الحديث النبوى شريف ، والتفسير ، وكتب السير والمغازى ، ثم الادب الجاهلى ، فكتب اللغة ، واخيرا كتب التاريخ والجغرافية . وسنقوم فيما يلى بعرض لهذه المصادر :

أولا - المصادر الاثرية :

تعد المصادر الاثرية أهم مصادر التاريخ العربى القديم ، ومع ذلك فإن الاهتمام بها جد حديث ، اذ اننا منذ قرن واحد من الزمان كانت معلوماتنا عن تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام تعتمد فقط على مصادر قليلة لا تشفى غليل العلماء ، فكان الاعتماد بشكل رئيسى على ما جاء فى التوراة وعلى ما كتبه المؤرخون والرحالة اليونان والرومان ، وعلى كتابات المؤرخين العرب والشعر الجاهلى وظل الامر كذلك حتى أخريات القرن الثامن عشر الميلادى حينما بدأ الاوروبيون يهتمون ببلاد العرب وكان وراء ذلك العديد من الدوافع والاسباب ، التى منها الدوافع السياسية ، فكان للربحية فى السيطرة على بلاد العرب بعد امتداد النفوذ الغربى فى الشرق الاوسط والاقصى أثره فى دراسته هذه المنطقة ومنها الرغبة فى معرفة ما تحويه هذه البلاد من آثار ، فقد سمع الاوروبيون فى رحلاتهم الى الهند ما يتناقله سكان شواطئ اليمن وحضرموت عن الآثار والابنية والنقوش المدفونة فى القلل والودية ، كما كان للكتابات القصصية التى سجلها مؤرخو اليونان

والرومان والعرب ، وما حفلت به الكتب المقدسة عن ملكة سبأ وسليمان عليه السلام أثرها في محاولة الكشف عن التراث القديم لبلاد اليمن .

ومن أوائل من قاموا باكتشافات علمية منظمة في جنوب بلاد العرب «كارستن نيبور Carsten Niebuhr» الذي كان ضمن بعثة دانيماركية غادرت ميناء كوبنهاجن عام ١٧٦١م ، وظل في بلاد العرب الجنوبية حتى عام ١٧٩٧م . وتكونت هذه البعثة بالإضافة الى كارستن نيبور ، عالم متخصص في اللغات الشرقية وهو «كريستنس فون هافن» وعالم متخصص في علم الحيوان وهو «بيتر فور سكال» ورسام هو «جورج فلهلم بور نفيند» وطبيب هو «كريستنس كارل كرامر» . وكانت النتائج التي توصلت اليها هذه البعثة من أفضل النتائج التي توصلت اليها البعثات العلمية في ذلك الوقت ، وما زالت المعلومات التي دونها كارستن نيبور مرجعا أساسيا عن اليمن حتى الآن . وهو يعتبر أول رائد من رواد الغرب ظهر في القرون الحديثة ، وصف بلاد العرب ، ولفت انظار العلماء الى المسند والارقام العربية ، الى جانب ما قدمه من خرائط لاماكن مجهولة لم تكن قد وطأتها قدم أوروبي قبل ذلك^(١) . وقد اثارت رحلته هذه همم العلماء والسياح ، فقام من بعده عدد منهم لا يتسع المجال لذكرهم جميعا برحلات الى مختلف انحاء جزيرة العرب عادت على التاريخ العربى والكشوف الاثرية بالجزيرة العربية بفوائد جمة مكنت الباحثين من تتبع المراحل الرئيسية لتاريخ العرب في العصور القديمة .

ومن هؤلاء الباحثين الدكتور أولريخ جاسبار سيتزن الالماني الذي تمكن من الوصول الى ظفار حيث نجح في العثور على النقوش التي اشار اليها كارستن نيبور وفي نسخ خمسة نقوش بالقرب من ذمار تعتبر أولى النقوش العربية الجنوبية ، وقد أرسلها الى أوربا عام ١٨١٠م ، وهذه النصوص على قصرها أفادت في تدوين تاريخ العرب قبل الاسلام افادة غير مباشرة ، لانها

(١) أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٧٧ وما بعدها .

لفتت انظار المستشرقين اليها والى دراسة التاريخ العربى القديم حتى ال
الامر الى حل رموز تلك الكتابة ومعرفة حروفها (١) .

وخطا البحث الاثرى فى جنوب الجزيرة العربية خطوات كبيرة على
يد الصيدلى الفرنسى توما يوسف ارنو Tomas Joseph Arnaud الذى زار
اليمن عام ١٨٤٣م (٢) ، وتمكن بفضل علمه بالعقائير من اكتساب صداقة
الشايع والزعماء ، وبهذه الصداقة استطاع ان يتجول فى بعض انحاء اليمن
ومدنها ، ولم يكن ذلك امرا ميسورا للغرباء ، فزار مارب وصرواح وقام
بنقل ٥٦ نقشا سبئيا ، وكان لعملة اهميته فى اقبال المستشرقين على فك رموز
الخط العربى الجنوبى الذى اطلقوا عليه بشكل عام فى البداية اسم الحروف
الحميرية ، ولكن سرعان ما تبين لهم ان هذه النقوش ليست كلها حميرية ،
وان بعضها نصوصا معينية وبعضها كتابات سبئية ترجع الى عهد دولة سبا ،
وبعضها بلهجات اخرى ، تختلف عن الحميرية بعض الاختلاف ، وهذه
الكتابة ، هى الكتابة المسماة بـ «خط المسند» وبـ «القلم المسند» وبـ «المسند»
فى الموارد العربية .

وفى عام ١٨٧٠م قام اليهودى الفرنسى يوسف هاليفى Joseph Halevy
برئاسة بعثة فرنسية تابعة لأكاديمية الفنون والاداب الجميلة ، بزيارة اليمن ولقد
دخل اليمن فى هيئة يهودى متسول من اهل القدس ليتجنب بذلك ما يتعرض
له الغرباء واهل البلاد المسلمون على السواء من اخطار رجال القبائل وقطاع
الطرق الذين لا يمسون اهل الذمة بسوء . وقد استطاع بهذه الطريقة التجول
فى ارجاء اليمن حتى بلغ اعاليتها مثل نجران واعالى الجوف ، وهى المنطقة
التي كان فيها المعينيون ، ووصل فى تجواله الى مارب والى صرواح .

(١) ديتلف نلسن ، التاريخ العربى القديم ، ترجمه وزاد عليه الدكتور
فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦ ، جاكين بيرين ، اكتشاف جزيرة
العرب ، خمسة قرون من المغامرة والعلم ، ترجمة قدرى قلعجى وقدم له
الشيخ احمد الجامر ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٢٠٥ وما بعدها .
(٢) احمد فخري ، دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم ، القاهرة ،
١٩٦٣ ، ص ١٥٠ .

وأخيرا عاد الى فرنسا ومعه ٦٧٦ نقشا لم يكن من بينها الا أحد عشر نقشا سبق أن نقلها أرنو ، ومع ذلك فاهم نتائج هذه الرحلة كان في المعلومات الجديدة التي وردت في هذه النقوش ، فضلا عن الآثار القديمة التي زارها وقام بوصفها وخاصة خرائب «قرناو» عاصمة دولة معين(١) .

ومن أهم من جاء بعد هاليقي ، العالم النمساوي ادوارد جلازر Edward Glaser الذي قام بأربع رحلات الى اليمن بين ١٨٨٢ و ١٨٩٤ عاد منها بعدد كبير من النصوص والنقوش بلغت زهاء ألف نقش ونص ، وبمادة غزيرة من المعلومات . ولقد أعد جلازر نفسه لهذه الرحلات اعدادا جيدا فزار قبل ذهابه الى اليمن كل من تونس ومصر ليتمكن من اللغة العربية ويتعرف على العادات العربية ، ورغم أنه يهودي ، فقد ادعى الاسلام ، وارتدى زي علمائه وسمى نفسه «الحاج حسين» . ولقد تمكن في رحلته الاولى التي استمرت من أكتوبر ١٨٨٢ وحتى مارس ١٨٨٤م من الحصول على ٢٥٠ نقشا ، وفي رحلته الثانية التي استمرت من أبريل ١٨٨٥ وحتى فبراير ١٨٨٦ تمكن من جمع معلومات مهمة عن طبوغرافية البلاد وأماكنها الاثرية وعاد بعدد من النقوش التي اضيفت الى ممتلكات المتحف البريطاني(٢) ، وفي رحلته الثالثة التي استمرت من عام ١٨٨٧ وحتى ١٨٨٨م حصل على اربعمائة نص من مدينة مأرب ، ونصوص أخرى من مدينة صرواح يرجع عهدها الى العصر السبئي . وفي رحلته الرابعة التي استمرت من عام ١٨٩٢ وحتى عام ١٨٩٤ استعان بالاعراب في نسخ النقوش القديمة في مناطق الجوف ، ومن ثم فقد تيسر له جمع مئات من النقوش الهامة دون أن يذهب بنفسه الى تلك المناطق البعيدة المحفوفة بالمخاطر ، كما تمكن خلال هذه الرحلة من جمع مجموعة من النقود العربية القديمة ، التي أصبحت ضمن مقتنيات المتحف الخاص بتاريخ الفنون في فيينا(٣) .

(1) Fakhry, A., An Archaeological Journey to Yemen, Cairo, 1952, Vol. 1, pp. 21-24.

(2) Drenbourg, H., Yemen Inscriptions, the Glaser Collection in the Bebyloniana and Oriental Record, 1, 1887

(٣) ديتلف نلسن ، المرجع السابق ، ص ٢١ - ٢٢ .

وبفضل هذا العدد الضخم من النقوش التى حصل عليها جلازر تمكن المهتمون بدراسة تاريخ القسم الجنوبي من بلاد العرب من التعرف على خصائص اللغات العربية الجنوبية القديمة ومقارنتها بغيرها من اللغات السامية بما يستتبعه هذا من التوصل الى معرفة بعض العلاقات الداخلية الخارجية فى صدد الاتصالات بين هذه المنطقة وغيرها من مناطق العالم القديم ، ولقد فتحت رحلات جلازر عهدا لعلموماتنا عن اليمن . ويرجع السر فى نجاحه وتوفيقه الى اعداده العلمى الذى امتاز به عن سائر رفاقه الذين سبقوه ، فقد درس التقاليد والعادات واللغة العربية والديانة الاسلامية ، ثم أنه كان يحدد هدفه قبل البدء فى الرحلة ، ولقد قضى حوالى عشرة أعوام بين القبائل العربية فاكسب صداقتهم وأمن جانبهم ، كما كان محببا الى كثيرين من أفراد قبائلهم والا ما استطاع أن يحصل على ما حصل عليه من وثائق ونقوش وعمليات . ومن حسن الطالع أن الله وهب جلازر منذ عودته من رحلاته فى بلاد العرب الجنوبية الى حين وفاته فسحة من الوقت مكنته من العناية بالنقوش ودراسة مشاكلها ، كما استغل بعض الاشارات الواردة فيها لوضع مؤلف عن تاريخ بلاد العرب الجنوبية .

وفى عام ١٩٣٦ ، أرسلت جامعة القاهرة بعثة علمية الى جنوب بلاد العرب تحت رئاسة الدكتور سليمان حزين ، كانت مهمتها دراسة المنطقة من نواحيها الجغرافية والزراعية والجيولوجية ، وكذلك دراسة النقوش السبئية ، الا أن نشاط البعثة الاثرى اقتصر على المنطقة المحيطة ببلدة «ناعط» ، وقد نشرت البعثة بحثين أحدهما عن الخطوط التجارية فى شبه الجزيرة فى العصر الرومانى ، والاخر عن التغيرات المناخية التى أدت الى الهجرات من جنوب شبه الجزيرة الى شمالها فى العصور القديمة (١) .

(١) نشر الدكتور سليمان حزين بعض ملاحظاته عن هذه الرحلة العلمية فى مجله .

Nature, Vol, CXI, 1937, p. 513 ff.

كما قام عضو البعثة الدكتور خليل يحيى تامر بعمل رسالة عن نتائج هذه الرحلة بعنوان : نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها وذلك عام ١٩٤٣ .

وفي عام ١٩٤٧ ، قام الاستاذ الدكتور أحمد فخري برحلة الى اليمن زار فيها مناطق صرواح ومارب وما حولهما وكذلك جميع مراكز الحضارة المعينية في الجوف ، وقد تمكن من العثور على حوالي ١٢٠ نقشا جديدا لم تكن معروفة من قبل ، كما أخذ مجموعة من الصور «الفوتوغرافية» لكل ما رآه من آثار وبخاصة سد مارب والمعابد الاخرى وبخاصة معبد المقه اله القمر السبئي الموجود في مارب . وقد نشر نتائج رحلته في بضع مقالات ، وفي كتاب أصدره عام ١٩٥٢ م ، في ثلاثة أجزاء . ثم قام بزيارة اليمن مرة اخرى عام ١٩٥٩ م حيث زار مارب للمرة الثانية ونقل نقوشا جديدة لم تكن معروفة من قبل ، كما نجح في الوصول الى موقع معبد في منطقة المنسجد ، وهو معبد كبير وحالته لا بأس بها (١) .

ولقد توالى بعد ذلك البعثات الاثرية لعمل ابحاثها ودراساتها في جنوب الجزيرة العربية ، حيث اضافت الكثير الى معلوماتنا عن الحياة السياسية والاجتماعية والدينية في جنوب الجزيرة العربية .

والى جانب هذه المجهودات العلمية الخاصة بجنوب الجزيرة العربية ، فقد كانت هناك مجهودات موازية في القسم الشمالى من شبه الجزيرة العربية ، ومنها ما قام به الرحالة «دى فرتيما» الذى وصل الى مكة قادما من دمشق عام ١٥٠٣ م ثم واصل رحلته الى عدن ، وقد قام برسم خريطة لشبه الجزيرة العربية كما رسمها بطليموس (٢) . وفي عام ١٨١٢ م تمكن الرحالة السويسرى «جوهان ليدونج بوركهارت» من الكشف عن مدينة البتراء ، كما قام بزيارة الحجاز حيث قدم وصفا دقيقا لموسم الحج وكتب عن مكة والمدينة كتابة علمية .

وفي بداية القرن العشرين قام العالم التشيكوسلوفاكى ألويس موسيل

(١) قام د.أحمد فخري بنشر نتائج أعماله في اليمن في كتابه
An Archaeological Journey to Yemn.

الذى نشره عام ١٩٥٢ في ثلاثة أجزاء .

(٢) جاكلين بيرين ، اكتشاف جزيرة العرب ، خمسة قرون من المغامرة والعلم ، ص ٣٧ - ٤٤ .

Alois Musil بزيارة نجد والحجاز وبخاصة المواقع التي كانت تمر بها خطوط القوافل التجارية ، ولقد كتب عدة مؤلفات في وصف شمال الحجاز وبادية الشام ومنطقة الفرات الاوسط وتدمر ونجد .

ومن هؤلاء الرحالة أيضا «هارى سان جون بريدجر قلبى» الذى قام بعدة رحلات في أرجاء المملكة العربية السعودية ، وكانت آخر هذه الرحلات عام ١٩٥١ - ١٩٥٢ م وكان بصحبته العالم البلجيكي «ج. ريكمانز» حيث زارا المثلث الواقع بين جدة ونجران والرياض ، وعاد ومعه ١٢٠٠٠ نقشا ، منها تسعة آلاف نقش ثمودى وبقيتها نقوش لحيانية وسبئية(١)

واستمرت عمليات البحث في منطقة الجزيرة العربية ، وقام بهذه الجهود بعثات كندية وأمريكية وألمانية وإنجليزية ، وأخيرا قامت البعثات الوطنية بدورها في هذا المجال ، ومنها بعثة قسم التاريخ بجامعة الرياض برئاسة الدكتور عبد الرحمن الانصارى في منطقة الفاو بوادى الدواسر .

وترجع أهمية المصادر الاثرية في كونها التعبير المادى الملموس الذى خلفه لنا الانسان في الجزيرة العربية ، وهو يتصل بكافة مجالات الحياة وميادينها ، وتنقسم المصادر الاثرية الى أنواع متعددة منها المصادر الاثرية المعمارية وتشمل بقايا المنازل والمقابر والمعابد والحصون والسدود ، أى جميع البقايا المعمارية سواء كانت دينية أو دنيوية في كافة مجالاتها ، وهناك كذلك المصادر الاثرية الفنية وتتضمن جميع ما خلفه الانسان في مجالات النحت والنقش والتصوير . وهناك كذلك الادوات والاولانى المصنوعة من الاحجار أو الفخار أو الاصداف أو العظام أو المعادن وغيرها. وتشمل المصادر الاثرية كذلك أدوات الزينة والعملات التي كانت متداولة . وأخيرا فمن أهم المصادر الاثرية التي خلفها لنا الانسان تتمثل في النقوش التي سجلها الانسان سواء على جدران المعابد أو اللوح التذكارية أو النصب أو على صخور الجبال .

(١) أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها، ص ١٤٨ ، محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ص ٨٥ .

وسنقوم فيما يلى باعطاء صورة تفصيلية بعض الشيء، لبعض أنواع هذه المصادر ، ونبدأها بالمصادر الاثرية المعمارية :

تعتبر المصادر الاثرية المعمارية من المصادر الهامة التى يستطيع المؤرخ بواسطتها تكوين فكرة عن الاحوال الاجتماعية والسياسية للمجتمع الذى يقوم بدراسته ، فيستدل من طبيعة المواد المستخدمة فى البناء وحجم المبان على المستوى الاقتصادى أو الطبقي لهذا المجتمع . وتوضح المبان الدينية، طبيعة المعبودات السائدة ومدى الشعور الدينى ، ومن ناحية أخرى فان مواقع الحصون والاسوار تشير الى المناطق التى كانت معرضة للهجوم ، ويستدل من ذلك على أحد أمرين ، أما أن هذه المنطقة كانت تجاور مجتمعا آخر وجدت لديه الرغبة فى بسط نفوذ ، أو مدحا على هذه المنطقة ، أو لاهمية هذه المنطقة الاقتصادية أو الاستراتيجية كأن تكون تقع مثلا على طريق القوافل التجارية أو قد تكون معبرا لدولة أخرى .

ولقد وهب الله بلاد العرب الجنوبية الاحجار الجيدة اللازمة للبناء ، وبخاصة احجار الجرانيت والجبس والاحجار الجيرية والبازلت ، كما تتوفر بكثرة الاخشاب اللازمة للبناء ، ولقد استخدم الانسان فى جنوب الجزيرة العربية الطوب مع الحجر فى العمارة ، واستكملت المبان العربية الجنوبية تطورها المعماري ، ووضح ذلك فى نحت الصخور الرخامية الكبيرة التى كانت تنحت تحت منتظما ، ويبنى بها بطريقة لا نكاد نتبين منها تعدد الاحجار ، وكانت يتم تماسكها ببعضها بواسطة بعض الاوتاد الرصاصية التى كانت تربط المداميك عن طريق ثقوب ، كما كان يصب الرصاص احيانا لزيادة تدعيم البناء وتثبيتته . وتتميز هذه المبان بزخارفها المتعددة ، فقد اهتم بزخرفة الاسقف والحيطان والابواب ، وكان يتم بواسطة الذهب والفضة والاحجار الكريمة، أما الاعمدة فكانت تزخرف بصفائح الذهب والفضة .

ومن نماذج المبان المعمارية التى كشف عنها فى جنوب بلاد العرب معبد الاله الملقب الذى يقع جنوب شرق مأرب والذى يطلق عليه العرب اسم «حرم بلقيس» ، ويبلغ طوله حوالى ٨٦ مترا وعرضه ٧٦ مترا ، وتنتهى الجدران باقريزين يتكونان من مربعات بينها فراغ وهذه تكون فتحات للهواء ،

ولا يوجد أى أثر للسقف ، ولو أن احتمال وجود سقف ليس بمستبعد لأن
إضاءة الفناء قد تتم عن طريق فتحة في السقف حيث لا توجد فتحات لنوافذ
ويوجد بابان كبيران إلا أن أحدهما أكبر من الآخر ، والكبير منهما يقع
في نهاية الجهة الشمالية الشرقية ، والاصغر يقع في الجهة الشمالية الشرقية .
وكانت تتقدم الابواب والفناء عدد من الاعمدة المربعة الشكل .

وفيما يختص بعمارة الاسوار التى تحيط بالمدن ، فلقد كشف عن
بعضها ومنها السور القديم الذى توجد بقاياه عند مدينة تاج الحالية في
المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة على مقربة من شاطئ الخليج ، وكذلك
السور القديم الذى لا تزال آثاره باقية الى ارتفاع اربعة أمتار في بعض
الاماكن حول مدينة تيماء في القسم الشمالى الغربى من شبه الجزيرة العربية
ويفسر لنا هذا السور أهمية الموقع الذى كانت تشغله هذه المدينة في العصور
القديمة ، فهي كانت تقع في الطريق بين وادى الرافدين وسورية (١) .

وتجلت عبقرية العرب الجنوبيين في إقامة السدود التى من أشهرها سد
مارب في اليمن الذى شيد بحيث يحجز مياه الامطار وراءه ، حيث يتم التحكم
فيها بواسطة عيون تفتح وتغلق حسب الحاجة . ومن هذه السدود كذلك
سد السملقى الموجود بأعلى وادى ليه في ضواحي مدينة الطائف جنوب
المدينة المنورة بحوالى ٣٥ كيلو مترا ، وقد استمر وجوده في العصر الاسلامى
ولا تزال معظم جوانبه قائمة (٢) .

وهناك نوع آخر من الابنية ظهر بوجه خاص في القسم الشمالى الغربى
من شبه الجزيرة العربية ، وهى المنطقة التى تكثر فيها التكوينات الصخرية ،
وكان يتم تشييد المساكن في هذه المناطق بواسطة النحت في هذه التكوينات
الصخرية ، بحيث تشكل فيها غرف وواجهات وأعمدة وزخارف ، ومن
الامثلة الموجودة لهذا النموذج ما نجده في مدينة البتراء جنوب الاردن ،

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

وفي واحة البدع (التي تعرف باسم مغاير شعيب) شرق خليج العقبة ، وفي مدائن صالح شمال العلا بحوالي ١٥ كيلو مترا .

ولم تبذل مثل هذه العناية في تشييد المقابر ، اذ كان يدفن المتوفى في تابوت حجري قائم الزوايا ، وكان يوضع عليه غطاء حجري ، وفي أغلب الاحوال كانت تتجمع بعض المقابر في مكان واحد يحيط بها سور . واحيانا كان يدفن المتوفى في غرف منحوتة في الصخر أو في مدافن مستقلة بحيث يتكون كل مدفن من حجرتين ، وكان يقام نصب على القبر ، والنصب عبارة عن اعمدة ملساء رباعية الاركان ، وفي الجهة الامامية يوجد في أعلى النصب اسم المتوفى ، ويوجد أسفل اسم المتوفى مربع صغير رسم فيه . واحيانا كان يرسم الرأس في الجزء العلوى من النصب وتحت الرسم يذكر اسم المتوفى ، وهناك نوع آخر بسيط من النصب يشتمل على الكتابة وتحتها عينان فقط .

ومن المصادر الاثرية كذلك المنحوتات^(١) سواء كانت تماثيل أو نقوش بارزة أو غائرة ، وتوضح نماذج التماثيل التي عثر عليها في جزيرة العرب وجود صلات بين المناطق التي كشف فيها عن هذه التماثيل وبين حضارات الشرق الادنى القديم في مصر والعراق ، كما يوضح بعضها وجود تأثيرات يونانية في صناعة بعضها ومن هذه التماثيل ، تمثال صغير عثر عليه في مدينة العلا شمال غرب الجزيرة العربية يبدو من هيئته أن الفنان الذي قام بنحته كان متأثرا بالفن المصري القديم في مجال نحت التماثيل . ولقد عثر في جزيرة تاروت المجاورة لشاطئ الخليج العربي عند القطيف على تماثيل يشبه من حيث نحتها التماثيل السومرية التي ظهرت في جنوب بلاد الرافدين . وفي جنوب بلاد العرب ، عثر في مدينة تمنع بقتبان على تماثيل لطفل يمتطي أسدا ، ويظهر في هذا التمثال الاثر اليوناني واضحا ، ويظهر ذلك في تمثيل الطفل عاريا ، حيث كان العرب ظاهرة شائعة في التماثيل اليونانية ، وكذلك في ليونة الحركة الخارجية . ويرى استاذنا الاستاذ الدكتور لطفى

(١) أنظر : نفس المرجع السابق ، ص ١٣٨ وما بعدها .

عبد الوهاب يحيى أن هذا التمثال الذى يرجح أنه قد صنع فى القرن الاول قبل الميلاد أو القرن الاول الميلادى ، كان تأثيرا يونانيا جاء نتيجة الاحتكاك بين اليونان وجنوبى شبه الجزيرة ، فقد أخذ اليونان يزاولون الملاحة فى البحر الاحمر منذ القرون الثلاث الاولى ق.م بتشجيع من البطالمة فى مصر ، واستمر ذلك إبان الامبراطورية الرومانية حيث عمل الابطاطرة الرومان على فرض نفوذهم على مدخل البحر الاحمر عند مضيق باب المندب . وفى خلال هذا النشاط التجارى البحرى بما فيه من مبادلات كان المجال مفتوحا لوصول بعض الدمى اليونانية التى قدرها الفنان العربى الجنوبى .

ومن المصادر الاثرية الهامة التى يعتمد عليها المؤرخ فى دراسته لتاريخ شبه الجزيرة العربية المخريشات والنقوش وهى عبارة عن نصوص وكتابات عربية كتبت بلهجات مختلفة ، منها ما عثر عليه فى بلاد العرب الجنوبية ، وتتضمن كتابات المعينيين والسبئيين ، ومنها ما عثر عليه فى أماكن أخرى من جزيرة العرب ، مثل أعالي الحجاز وبلاد الشام ووسط الجزيرة وشرقها . ولقد ساعدتنا المخريشات والنقوش والكتابات التى عثر عليها بالاضافة للمصادر الاثرية الاخرى فى تقديم صورة واضحة الى حد ما عما كان جاريا فى تلك البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد وحتى ظهور الاسلام ، ولا سيما أن للآثار ميزتها باعتبار أنها الشاهد الناطق الوحيد الباقى لنا من تلك الايام الماضية .

ومع ذلك فهناك نقاط ضعف تلاحظ على هذه المصادر منها (١) أولا : أن الكتابات المؤرخة منها قليلة ، ومن ثم فلم تهتدنا الى تقويم ثابت يمكن القول أن العرب القدامى كانوا يستعملونه ، وهذا يجعلنا نعتقد أن العرب كانوا يؤرخون الاحداث طبقا لسنى حكم الملوك ، بل أن البعض قد تجاوزوا ذلك الى التاريخ بايام الرؤساء والبعض الآخر أهمل التاريخ تماما . ومنها ثانيا : أن أهمية معظم النقوش تنحصر فى الناحية اللغوية أكثر من أهميتها التاريخية ، لأنها فى غالبيتها تتشابه فى مضمونها وفى أنشائها لتعلقها بأمور

(١) انظر : محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٢٥ - ٢٩ .

شخصية . ومنها ثالثا : أن النصوص اللحيانية عبارة عن مخربشات صغيرة وبعضها ليست نقوشا كاملة ، ومن ثم فإن الفائدة منها قليلة ، كما أن قلة من العلماء هي التي كانت بقادرة على ترجمتها ، ومنها رابعا : أن معظمها ذات صبغة دينية نظرا لأنها وجدت في المعابد والقبور . ومنها خامسا : أنه يجب أخذ جانب الحيطة والحذر إذا كان النقش يشير الى ملك أو حاكم يتحدث عن متجزاته وبخاصة إذا كان الامر يتعلق بانتصارات أحرزها على خصومه ، نظرا لاحتمال المبالغة في تمجيد الانتصارات ، أو التهورين من شأن الهزائم .

ومع كل نقاط الضعف هذه ، فقد أفادتنا فائدة كبيرة في تدوين تاريخ العرب القديم ، فقد أمدتنا بأسماء عدد من الملوك ، لولاها لما عرفنا عنهم شيئا ، كما استطعنا من خلال الاشارات التي وردت في بعض النقوش عن حروب وقعت بين بعض المناطق أن نكون فكرة عن طبيعة العلاقات الموجودة بين هذه البلاد ونفس الامر إذا كانت هناك اشارات الى وجود نوع من العلاقات السلمية كالتبادل التجاري أو زيارات الوفود وغيرها .

وتقدم بعض النقوش معلومات تساعدنا على معرفة مدى الارتباط أو الاتصال بين لغة وأخرى ، ومن أمثلة هذه النقوش التي عثر عليها ، النقوش المعينية السبئية ، التي وجدت بموقع اثرا في منطقة قريات الملح في القسم الشمالى الاوسط من شبه الجزيرة ، والتي يحاول الباحثون اللغويون أن يجدوا فيها همزة الوصل بين لغة الجنوب ولغة الشمال ، ومن هذه النقوش كذلك ، النقش الذى عثر عليه هاليقي بمنطقة نجران عام ١٧٧٢م والذى اتضح للباحثين بعد دراسته أن لغة العرب الجنوبيين في شبه الجزيرة العربية كانت قريبة في بعض مناخيتها من اللغة الاكدية واللغة الحبشية ، وذلك فيما يتصل بتكوين الاسماء وتصريف الافعال وبعض المفردات والضمائر . وكان لهذا النقش أهمية أخرى بالغة ، وهو أنه كان من النقوش التي ساعدت الباحثين في ترسم العلاقة بين الخط العربى الجنوبى وبين الخط الذى كتبت به العرب النقوش التي عثر عليها في سيناء .

ويستفاد من النقوش في معرفة بعض المعلومات عن الاحوال والنظم والقوانين والعادات التي كانت سائدة في منطقة أو أخرى من شبه الجزيرة

العربية . وفي هذا المجال فلقد كشف عن آلاف النقوش التى تتصل بعبادة بعض الالهة مثل الملقه وعشتار وشمس ، كما كشف عن بعض النقوش التى سجلت بعض القوانين او التى تشير الى بعض القوانين التى كانت سائدة فى وقت تسجيلها .

وتعتبر البقايا الفخارية من المصادر الهامة التى يعتمد عليها المؤرخ فى دراسته لتاريخ العرب قبل الاسلام ، اذ تشير البقايا الفخارية الى الاحوال الاجتماعية ، فقد كان الفخار هو السلعة الأكثر استخداما فى الحياة اليومية، وتشير كميات الفخار التى يعثر عليها على مدى وجود حياة مستقرة من عدمه . ويستدل كذلك من طراز صناعة الأواني الفخارية وزيناتها على التطور الحضارى ، كما أنها تستخدم كوسيلة من وسائل التقويم الزمنى للموقع الذى توجد فيه، وذلك عن طريق دراسة المادة المستخدمة فى صنعها وتقنياتها ونقوشها وزيناتها ومقارنتها بالبقايا الفخارية المشابهة فى المواقع الأخرى .

ومن المصادر الأثرية كذلك ، العملة ، وهى تساعد المؤرخ فى تحديد التواريخ والتعرف على أسماء الملوك الذين اصدروها، وتفيد كذلك فى معرفة الاحوال الاقتصادية من حيث المعدن الذى صنعت منه . وفى أحيان أخرى يستدل من وجود عملات أجنبية على معرفة العلاقات التجارية الخارجية (١) .

ثانيا - كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان :

تتضمن كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان على معلومات تاريخية وجغرافية عن بلاد العرب قبل الاسلام (٢) ، ويبدو أن مصدر معلومات هؤلاء الكتاب هم الجنود اليونان والرومان الذين اشتركوا فى الحملات التى وجهتها بلادهم الى بلاد العرب ، وكذلك من السياح الذين اختلطوا بقبائل عربية واقاموا بين ظهرانيتها ، وكذا من التجار والبحارة الذين كانوا يتوغلون فى تلك البلاد . وتعد الاسكندرية من أهم

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ - ١٤٧ .
(٢) أنظر عن كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان :
لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ - ٢٢٨ ، جواد على ،
المرجع السابق ، ص ٥٦ - ٦١ .

المراكز التي كانت تعنى بجمع المعلومات عن بلاد العرب وعادات سكانها ، ومنتجاتها ، وذلك لتقديمها الى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط ، وقد استقى كثير من كتاب الاغريق والرومان معارفهم من هذه المصادر التجارية العالمية .

ورغم أهمية هذا المصدر ، الا ان هناك نقاط ضعف فيه ، منها ، أن هؤلاء الكتاب كانوا يحكمون على ما يرونه ويسمعونه من وجهة نظرهم ، وحسب عقليتهم وادراكهم وتأثرهم بعادات بلادهم وديانتهما ، فضلا عن أنهم لم يكونوا يعرفون لغة البلاد التي كانوا يصفونها ، أو يتحدثون عن تاريخها ، فاعتمدوا على رواية محدثيهم ، وكلهم من مستوى لا يزيد عنهم كثيرا أضف الى ذلك أن كثيرا منهم قد أساءوا فهم ما رأوه ، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب في تفسير أو تعليل ما سمعوه ، بل أن بعضهم قد ذهب الى وجود أصل مشترك بين بعض القبائل العربية واليونانية ، ولعل في هذه الفكرة - رغم سذاجتها - ما فيها من اشارات الى علاقة قديمة جدا بين سكان شبه الجزيرة ، وبين سكان البحر المتوسط الشماليين .

ومن أولى اشارات المصادر اليونانية عن بلاد العرب ، ماورد في ملحمة هوميروس الاوديسية ، وكذلك الاشارة التي وردت في اشعار هزيودوس Hesiodes ، ثم الاشارات التي وردت في مسرحية ايسخيلوس Aeschylus (٤٥٦ - ٤٠٠ ق م) .

وابتداء من مطلع القرن الخامس قبل الميلاد بدأت الكتابات التاريخية المفصلة عن بلاد العرب في الظهور ، ومن هؤلاء المؤرخين :

١ - هيرودوت Herodotus (حوالي ٤٨٤ - ٤٣٠ ق م) : تعتبر كتاباته أول كتابات مفصلة عن بلاد العرب ، وقد تعرض هيرودوت لذكر العرب عند الحديث عن الحروب التي قامت بين فارس ومصر على أيام الملك الفارسي قمبيز (٥٣٠ - ٥٢٢ ق م) (١) .

(1) The History of Herodotus, Translated by G. Rawlinson, in 2, Vols, London, 1920.

ويلاحظ أن هيرودوت في كتاباته لا يقصر تسمية بلاد العرب على شبه الجزيرة العربية ولكنه يطلقها ، الى جانب شبه الجزيرة العربية على كل القسم الداخلى من سورية وعلى شبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية ، ولقد تطرق في كتاباته الى موقع شبه الجزيرة العربية وتربتها وعن عادات العرب وتقاليدهم وعقائدهم الدينية وملابسهم وسلاحهم وطرقهم في الحرب ، وأورد في كتاباته كذلك الشيء الكثير عن منتجات بلاد العرب كاللبان والمر والقرفة واللادن ، كما ذكر مقتطفات من تاريخهم وعلاقاتهم الخارجية . ولكن يؤخذ على كتابات هيرودوت أنها لم تنجو من الافكار الساذجة التى سادت عصره ، وجعلت كتاباته بها نواة الحقيقة ومغلفة بالمبالغة والتحريف .

٢ - ثيوفراستوس Theophrastos (حوالى ٣٧١ - ٢٨٧ ق م) كان اخصائيا في التاريخ الطبيعى واجد تلاميذ أرسطو ، وأصبح خليفته في رئاسة معهد اللوتيون ، وقد ألف كتاب Historia Plantarum وكذلك كتاب De Causis Plantarum ، ويلاحظ أنه في خلال حديثه عن النباتات تطرق الى ذكر البقاع العربية التى كانت تنمو بها الاشجار التى يتحدث عنها ، وخص بالذكر المناطق الجنوبية من بلاد العرب ، فكان أول من ذكر السبئين وتكلم بشكل تشريحي عن اللبان والمر الذى يستخرج من مناطقهم كما أعطى بعض المعلومات عن تجارتهم وسفنهم .

٣ - اراتوشنيس Eratosthenes (٢٧٥ - ١٩٤ ق م) : كان جغرافيا ، ولقد قدم في كتاباته تقسيما لبلاد العرب ، فقسمها الى بلاد العرب الصحراوية وبلاد العرب الميمونة ، وقسم المنطقة من الشمال الى الجنوب حسب الحياة الاقتصادية التى يمارسها السكان ، كما تكلم عن بعض الشعوب الموجودة في جنوب الجزيرة العربية مثل معين وسبأ وقتبان وحضرموت .

٤ - سترابون Strabo (٦٤ ق م - ١٩ م) ألف كتابا باللغة اليونانية في سبعة عشر جزءا أسماه «الجغرافية» Geographica ، ووصف فيه الاحوال الجغرافية الطبيعية لمقاطعات الامبراطورية الرومانية الرئيسية وتاريخها واحوال سكانها الاجتماعية والدينية ، وقد خصص في كتابه السادس عشر فصلا خاصا عن بلاد العرب ، ذكر فيه الخطوط التجارية البحرية

والبرية من مسوانىء وطرق الجانب الشرقى للبحر الاحمر الى مسوانىء وطرق الجانب الغربى لهذا البحر ، محددا بدايات الخطوط ونهاياتها والمواقع التى تمر بها ، وتعرض لنظام الحكم الذى كان يسود بعض المناطق العربية ، والعلاقات التى كانت تربط بين اقوام المنطقة وغيرهم ، ومن اهم ماقدمة سترابون وصفه للحملة الرومانية على الجزيرة العربية، وهى الحملة التى قادها ايليوس جالوس Aelius Gallus أول وال رومانى على مصر . وقيمة خديثه عن الحملة ترجع الى أنه قد شارك بنفسه فيها وكان صديقا شخصيا لقائدها ، ومن ثم فقد تيسر له الحصول على معلومات قد لا تيسر لغيره ، فوصفه لها وصف شاهد عيان،، وقد استهل وصف الحملة بهذه العبارة : «لقد علمتنا الحملة التى قام بها الرومان على بلاد العرب بقيادة ايليوس جالوس فى ايامنا هذه اشياء كثيرة عن تلك البلاد» . ولقد ذكر الاسباب التى أدت الى التفكير فى القيام بهذه الحملة ، والاستعدادات التى سبقتها ، والطرق التى سلكتها ونتائجها والخطاء التى وقعت فيها(١) .

٥ - بلينيوس الاكبر Pliny The Elder (٢٣/٢٤ - ٧٩م) : وهو جايوس بلينيوس سيكوندوس Gaius Plinius Secundus ومن كتبه المهمة كتابه «التاريخ الطبيعى Naturalis Historia» الذى قسمه الى سبعة وثلاثين قسما ، ولقد تناول شبه الجزيرة العربية فى قسميه من هذا المؤلف ولقد تحدث فيها عن بلاد العرب وثرواتها وجغرافيتها ومدنها وسكانها وبعض الاحداث التاريخية التى مرت بها ، وطرق التجارة فى شبه الجزيرة والمسافات بين بعض المراكز التجارية . ويتحدث كذلك عن المنتجات الطبيعية لشبه الجزيرة العربية . ومناطق تواجدها ومواسم حاصيلها وطريقة استخراجها . وجمعها . كما يتحدث عن ايمانها .

٦ - ومن الكتب الهامة التى وصلتنا عن شبه الجزيرة العربية كتاب لمؤلف يونانى مجهول ، واسم الكتاب «الطواف حول البحر الاريترى»(٢) .

(1) The Geography of Strabo, Translated by H. L. Jones London, 1949.

(٢) فضلو حورانى ، العرب والملاحه فى المحيط الهندى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٤ .

وقد اختلف المؤرخون حول الوقت الذى تم فيه تأليف هذا الكتاب ، ف يرى البعض انه فى نهاية القرن الاول الميلادى ، أو فى عام ٨٠ م ، أو فى النصف الاول من القرن الثالث الميلادى . وقد وصف مؤلف هذا الكتاب فى مؤلفه تطوافه فى البحر الاحمر وسواحل بلاد الغرب الجنوبية ، فوصف الطرق التجارية بين مصر والهند مروراً بشواطئ شبه الجزيرة ، كما اشار فى كتابه الى الانبساط وكذلك علاقة الامبراطورية الرومانية بشبه الجزيرة العربية . الا أنه لم يهتم الا بأحوال السواحل ، أما الاقسام الداخلية من جزيرة العرب ، فيظهر أنه لم يكن ملماً بها المما كافياً .

٧ - كلاوديوس بطلميوس *Claudius Ptolemaeus* (القرن الثانى الميلادى) : ألف كتاباً فى الجغرافيا أسماه «الدليل الجغرافى *Geographike Hyphegesis*» وقد جمع فيه بطلميوس ما عرفه العلماء اليونان وما سمعه هو بنفسه وما شاهده بعينه ، ولقد قسم فيه الاقاليم بحسب درجات الطول والعرض ، وتكلم فى كتابه على مدن البلاد العربية وقبائلها واحوالها ، وتعتبر الخريطة التى أرفقها بكتابه أدق خريطة وضعت فى العصر القديم ، وظلت هى الخريطة المعمول بها حتى بدايات العصر الحديث . ولقد قسم بطلميوس شبه الجزيرة العربية الى ثلاثة اقسام : العربية الصحراوية ، والعربية الصخرية والحجرية والعربية الميمونة (١) .

ثالثاً - الكتابات اليهودية :

١ - التوراة (٢) :

التوراة أو (التورة) كلمة عبرية معناها الهداية والارشاد ، ويقصد بها الاسفار الخمسة الاولى (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية) والتى تنسب الى موسى - عليه السلام - هى جزء من العهد القديم ، والذى

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٦٠ .
(٢) محمد بيومى مهران ، دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم ، اسرائيل ، جزء اول ص ١٩ - ١٥٩ .

يطلق عليه تجاوزاً اسم «التوراة» من باب اطلاق الجزء على الكل ، او لاهمية التوراة ونسبتها الى موسى عليه السلام .

هذا وقد تحدثت التوراة في كثير من اسفارها عن العرب وعلاقتهم بالاسرائيليين ، غير أنها عندما تتحدث عن العرب ، تهتم بالاماكن والقبائل العربية ذات العلاقة الاقتصادية باليهود في بعض الاحيان ، وذات العلاقة السياسية في احوال أخرى، ولهذا نجدها عندما تتحدث عن القبائل العربية، تتحدث عنها على اساس أنها قبائل كانت لها علاقة بالعبانيين ، ثم هي قبائل بدوية في المكان الاول ، الا عندما يتصل الامر بقصة سليمان - عليه السلام - ومملكة سبأ ، فان هذه القبائل تصبح ذات شأن آخر . وعلى أى حال ، فعلينا حين نتعامل مع التوراة كمصدر تاريخي ، أن نتخلص تماما من الهالة التي اسبغها عليها المؤمنون بها ، وأن ننظر اليها كما ننظر الى غيرها من المصادر التاريخية وذلك لان من كتبوا التوراة المتداولة اليوم كانوا بشرًا مثلنا ، وهم كمؤرخين لا يختلفون كثيرا عن نظائريهم من معاصريهم في الشرق ، وهى مادامت كتاب تاريخي ، فليس هناك ما يمنع من مناقشتها ونقدها فيما يتفق مع المنطق والمعقول .

٢ - التلمود :

هناك نوعان من التلمود ، التلمود الفلسطيني أو التلمود الاورشليمي كما يسميه العبرانيون اختصارا ، والتلمود البابلي نسبة الى بابل بالعراق ويعرف عندهم باسم بابل اختصارا . ولكل تلمود من التلمودين طابع خاص به ، هو طابع البلد الذي وضع فيه ، ولذلك يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث ، أما التلمود البابلي ، فيظهر عليه الطابع العراقي الحر وفيه عمق في التفكير وتوسع في الاحكام والمحاكمات وغنى في المادة . وقد بدىء في وضع التلمود منذ القرن الثالث الميلادي ، وهو يكمل احكام التوراة .

ولقد تحدث التلمود عن عدد من جوانب الحياة عند العرب ، وإن كان على الباحث أن يستنتج ذلك بشكل غير مباشر في أغلب الاحوال من حديث كتاب التلمود عن المسائل الفقهية والتشريعية وهو الموضوع الاساسي له ، والتي تتطرق الى ما يجوز وما لا يجوز العمل به في المعاملات بين العرب

والعبرانيين ، كذلك يجب أن ندخل في اعتبارنا أن عددا من الامثلة التي ترد في التلمود في سبيل الحديث عن هذه المعاملات أنها تشير الى عرب سيناء وليس الى سكان شبه الجزيرة العربية .

٣ - كتابات المؤرخ اليهودي يوسف بن متى (يوسف فلافيوس) :

ولد يوسف بن متى في اورشليم عام ٣٧م ، وتوفي حوالى عام ١٠٠م في روما ، ولقد ألف وهو في روما كتبه المعروفة التي من أهمها «تاريخ عباديات اليهود Joudaïke Archaiologia » تنتهى حوادثه بعام ٦٦م ، وقد ألفه من عشرين جزءا ، وكتاب «تاريخ حروب اليهود Peri tou Joudiakou Polemou» وتبدأ حوادثه من استيلاء انطيوخس افيفانوس Antiochus Epiphanos على القدس عام ١٧٠ ق.م ، وحتى الاستيلاء عليها مرة ثانية في عهد تيتس Titus سنة ٧٠م ، ولقد كان المؤلف شاهد عيان لهذه الحادثة .

وتحتوى مؤلفاته معلومات قيمة عن العرب ، وبخاصة الانباط الذين كانوا يقيمون على ايامه في منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات فتنأخم بلاد الشام ، ثم تنزل حتى تتصل بالبحر الاحمر ، غير أنه لم يهتم الا من ناحية علاقة الانباط بالعبرانيين . فضلا عن أن بلاد العرب عنده لا تعنى سوى مملكة الانباط .

وعلى الرغم من تحيزه لقومه اليهود ورغبته في ارضاء حماته من الاباطرة الرومان ، واعتماده الى حد كبير على كتاب العهد القديم في مؤلفاته ، فان لمؤلفاته قيمة تاريخية لا شك فيها ، وبخاصة الفترة التي عاصرها والحروب التي شارك فيها (١) .

رابعاً - الكتابات المسيحية :

ترجع أهمية الكتابات المسيحية الى أنها في ثنايا عرضها لانتشار المسيحية في بلاد العرب تعرضت الى ذكر القبائل العربية وبعض ما كان يوجد فيها

(١) فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، بيروت ، ١٩٥٨ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، جواد على ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جزء ثالث ، ص ٥٥ .

والعلاقات فيها بينها وكذلك علاقة القبائل العربية بكل من الفرس واليونان كما ترجع أهميتها أيضا الى أنها كانت حينما تتعرض لذكر حوادث معينة كانت تربطها بتواريخ ثابتة مثل المجمع الكنسية أو تواريخ بعض القديسين أو الحروب الهامة . ولقد ساعدنا ذلك في معرفة تواريخ الاحداث التي أشارت اليها الكتابات المسيحية ، ومن هؤلاء الكتاب المسيحيين :

يوسيبوس Eusebins (٢٦٣ - ٣٤٠م) (١) : كان واحدا من آباء الكنيسة البارزين في عصره ، وقد ولد في فلسطين ، أو ربما في قيصرية التي كان أسقفا لها ، وهو أول مؤرخ كنسي يعتد به ، ولقد أطلق عليه العديد من الالقباب التي من بينها : يوسيبوس القيصري ، وأبى التاريخ الكنائسي ، وهيرودوت النصراني . وساعده اتصاله بكبار رجال الدولة ورؤساء الكنيسة على أن يعرف الكثير من اسرار الدولة وأن يراجع المخطوطات والوثائق التي كانت تحويها خزائن الحكومة وخزائن كتب الرؤساء والموسرين . ومن أهم مؤلفاته نذكر مؤلفه الذي أطلق عليه «The Chronicon» وقد ألفه باللغة اليونانية ، ولقد ضم بجانب التاريخ العام تقاويم وجداول بالحوادث التي حدثت في أيامه ، ولقد استعرض في هذا المؤلف تاريخ اليونان والرومان حتى سنة ٣٢٥ م ، وامكنا من خلاله معرفة علاقتهم ببلاد العرب وتتبع بعض الاخبار والحوادث التي حدثت في بلاد العرب .

وبالإضافة الى هذا المؤلف ، فقد ألف العديد من الكتب التي منها : «التاريخ الكنائسي» الذي أخرجه في عشرة أجزاء وهو يبدأ بالمسيح عليه السلام وينتهي بوفاة الامبراطور ليكينوس Licinius عام ٣٢٤ م ، وكتاب «شهداء فلسطين» الذي تحدث فيه عن معاناتهم حتى الاستشهاد في الفترة من ٣٠٣ - ٣١٠ م وكتاب سيرة قسطنطين ، ويمكننا من خلال هذه المؤلفات معرفة بعض الاخبار عن بلاد العرب وبخاصة بلاد العرب الشمالية .

(1) Smith, W., A Dictionary of The Bible; III, p. 107.

جواد على ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جزء أول ، ص

٦١ - ٦٢ .

بروكبيوس Procopius (المتوفى عام ٥٦٣م) : يعد بروكبيوس المؤرخ الكنسى لعصر جستنيان ، وكان أمين سر القائد بليزاريوس ، وقد رافقه عدة سنين فى بلاد فارس وشمال افريقية وجزيرة صقلية ، وقد تحدث فى كتابه «تاريخ الحروب» عن المعارك التى دارت بين الفساسنة واللخمين ، فضلا عن غزور الاحباش لليمن فى الجاهلية (١) .

ومن هؤلاء المؤرخين المسيحيين كذلك نذكر كل من اتاناسيوس (حوالى ٢٩٦ – ٣٧١م) وجيلاسيوس (حوالى ٣٢٠ – ٣٩٤م) وروفينوس تيرانيوس المتوفى عام ٤١٠ م وايرينوس أسقف صور والمتوفى عام ٤٤٤م ، وزكريا المتوفى حوالى عام ٥٦٨م ، ويوحنا ملاا المتوفى عام ٥٧٨م .

وذلك بالاضافة الى ماكتبه المؤرخين النصارى من روم وسريان فى أيام الدولة الاموية والدولة العباسية ، ولقد الفوا فى التاريخ العام وتاريخ النصرانية فتحدثوا عن العرب فى الجاهلية والاسلام . وترجع أهمية هذه المؤلفات فى تتبع انتشار المسيحية بين القبائل العربية وعلى معرفة صلات الفرس والروم بالعرب .

وتوجد فى قائمة المخطوطات السريانية فى المتحف البريطانى اسماء مخطوطات تاريخية ودينية ذات فائدة كبيرة فى معرفة اخبار بلاد العرب وعلاقاتهم وذلك اثناء تتبعها لانتشار المسيحية فى بلاد العرب .

خامسا - المصادر العربية :

١ - القرآن الكريم (١) :

ياتى فى مقدمة المصادر العربية القرآن الكريم ، كتاب الله الذى «لا ياتيه

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، جزء اول ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٨ .

(٢) محمد بيومى مهران ، دراسات فى تاريخ العرب القديم ، ص ٣٧ وما بعدها .

الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (سورة فصلت ، آية ٤٢) تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه وصيانتة «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» (سورة الحجر : آية ٩) وحماه وصانه من ان يتطرق اليه شيء من الضياع فقال سبحانه وتعالى : «وانه لكتاب عزيز ، لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (سورة فصلت آية ٤١ - ٤٢) وقوله جل من علا : «ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرآنه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه» (سورة القيامة آية ١٧ - ١٩) .

ويعتبر القرآن الكريم من اصدق المصادر وأصحها على الإطلاق ، فلا سبيل الى الشك في صحة نصه بحال من الاحوال ، والقرآن الكريم كتاب هداية وارشاد انزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستوراً للمسلمين ومنهاجا يسرون عليه في حياتهم فاذا ما عرض لحادثة تاريخية ، فانما للعبارة والعظة كذلك فان القرآن الكريم في محاولته تصحيح عدد من الاوضاع والممارسات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي عند نزوله ، يعطينا فكرة واضحة عن هذه الاوضاع والممارسات ، وعن الدوافع التي أدت بهذا المجتمع الى اتخاذها طريقاً له والتعنت في سبيل المحافظة عليها ، وهي دوافع يسهب القرآن الكريم في عرضها وتفصيلها ، ومن ثم نستطيع تكوين صورة عن الصراع الذي شهده مجتمع الجزيرة العربية في نهاية العصر الجاهلي بين ماكان قائماً وبين ما كانت الدعوة الاسلامية بسبيل تقديمه .

ويقدم لنا القرآن الكريم معلومات هامة عن عصور ما قبل الاسلام في الجزيرة العربية واخبار دولها وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، فقد اشار القرآن الكريم في كثير من آياته الى ديانات العرب ومعتقداتهم في العصر الجاهلي فأشار الى اصنام العرب وآلهتهم وطقوسهم الدينية ومن هذه العبادات ، عبادات ود (القمر) والشمس والشعر ونسر واللات والعزى ومناة ، ويشير القرآن الكريم الى العديد من الدعوات الدينية التي قام بها عدد من الانبياء في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية مثل دعوة هود في قوم عاد الاولى في الجزيرة العربية الجنوبية ، ودعوة صالح في قوم ثمود ، ودعوة شعيب في أهل مدين . كما اشار الى العديد من عاداتهم كواد البنات

وشرب الخمر ولعب الميسر ، ومن الناحية الاقتصادية اشار القرآن الكريم الى بعض مجالات نشاطهم الاقتصادى والرحلات التجارية التى كانوا يقومون بها فى الصيف والشتاء ، وفى ذلك قوله جل وعلا «لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وأمنهم من خوف» (سورة قريش) .

وبالاضافة الى ذلك فان القرآن الكريم قد انفرد - دون غيره من الكتب السماوية - بذكر اقوام عربية بادت كقوم عاد وثمود ، فضلا عن قصة أصحاب الكهف وسيل العرم وقصة أصحاب الاخدود وأصحاب الفيل وغيرها . كما اشار القرآن الكريم فى العديد من آياته الى احدى ممالك العرب الجنوبية ، وهى مملكة سبأ ، فاشار الى الكثير من أحوالها السياسية والاقتصادية ونظام الحكم بها ، وذلك فى سياق قصة ملكتها مع نبي الله سليمان عليه السلام .

٢ - الحديث الشريف :

إذا كان القرآن الكريم هو المصدر الدينى الاول ، فان المصدر الدينى الذى يليه هو الحديث . والحديث هو ماورد عن رسول الله - ﷺ - من قول أو فعل أو تقرير (١) . وجاء الحديث مفسرا للقرآن الكريم ، ذلك ان كثيرا من آيات القرآن الكريم مجملة أو مطلقة ، أو عامة ، فجاء رسول الله - ﷺ - فبينها أو قيدها أو خصصها ، وذلك تصديقا لقوله تعالى «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم» (سورة النحل آية ٤٤) ، ومن هنا كان الحديث الشريف هو المصدر الثانى للشريعة الاسلامية ، ثم هو اصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم لمعرفة التاريخ العربى القديم .

وأهمية الحديث كمصدر تاريخى للمجتمع العربى قبل الاسلام تنحصر فى عصوره القريبة من الاسلام بالذات ، ومن ثم يصبح الحديث مطابقا لها من الناحية الزمنية ، ولقد تضمنت الاحاديث النبوية الشريفة بجانب الاحكام

(١) مصطفى السباعى ، السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٩ - ٦٠ .

الدينية وقوانين المجتمع الاسلامى بعضا من اخبار العرب وعاداتهم الاجتماعية والفكرية قبيل الاسلام .

٣ - التفسير :

رغم أن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب ، فانه لم يكن كله في متناول الصحابة جميعا يستطيعون أن يفهموه اجمالا وتفصيلا بمجرد أن يسمعوه ، ومن ثم فقد اختلفوا في فهمه حسب اختلافهم في ادوات الفهم وذلك لاسباب منها : أنهم كانوا يعرفون اللغة العربية على تفاوت فيما بينهم ، وان منهم من كان يلازم النبي صلوات الله وسلامه عليه ويشاهد الاسباب التي دعت الى نزول الايات ، ومنهم من ليس كذلك ، ويرجع ذلك أيضا الى اختلافهم في معرفة عادات العرب في اقوالهم وافعالهم .

وكان ذلك من دواعي نشأة علم التفسير ، وذلك لفهم القرآن وتدبره ، ولبيان ما أوجز فيه ، أو ما أشير اليه اشارات غامضة ، وقد نشأ علم التفسير في عصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - فكان النبي أول المفسرين له ، ثم تابعه أصحابه من بعده ، ولعل أشهرهم الامام على - كرم الله وجهه - وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود .

ونظرا لتضخم التفسير بالاسرائيليات في عصر التابعين ، مما دفع الامام أحمد بن حنبل الى أن يقول «ثلاثة ليس لها أصل ، التفسير والملاحم والمغازي» أي ليس لها اسناد ، لان الغالب عليها المراسيل ، والى أن يقول الامام ابن تيمية «والموضوعات في كتب التفسير كثيرة» .

ورغم ذلك ، ورغم هذه الشوائب التي شابت التفسير ، فالذى لا شك فيه أن كتب التفسير تحتوى على ثروة تاريخية قيمة ، تفيد المؤرخ في تدوين التاريخ العربى القديم ، وتشرح ما جاء في مجملات القرآن الكريم . ويتصل بالفترة التي سبقت البعثة المحمدية من عادات وتقاليده واقوال جاء ذكرها مجملا في القرآن الكريم (١) .

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ٢ ص ٤٢ - ٤٤ .

٤ - الشعر الجاهلى :

يعتبر الشعر الجاهلى من المصادر التى يعتمد عليها الباحث فى دراسته لتاريخ العرب قبل الاسلام ، وذلك لما اشتمل عليه من أمور تقتصل بالفخر والحماسة والرثاء والهجاء ، او وصف لطبيعة بلاد العرب ، حتى انه قيل فيه «أنه ديوان العرب» ، ويعنون بذلك أنه سجل سجلت فيه اخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم وافكارهم(١) .

وليس ادل على اهمية الشعر الجاهلى ماروى عن «عكومة» تلميذ ابن عباس انه قال : ما سمعنا ابن عباس يفسر آية من كتاب الله عز وجل الا نزع فيها بيتا من الشعر ، وكان يقول : «إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه فى الشعر ، فانه ديوان العرب ، به حفظت الانساب ، وعرفت المائر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما اشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله - ﷺ - وحديث صحابته والتابعين»(٢) . وعن ابن سيرين قال : قال عمر بن الخطاب : «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه ، فجاء الاسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمانت العرب بالامصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يثلوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فالفوا ذلك وقد هلك من العرب بالموت والقتل ، فحفظوا اقل ذلك ، وذهب عنهم اكثره» .

ويعود الفضل للشعر الجاهلى فى بقاء الكثير من الاخبار المتعلقة بالجاهلية التى لولاه لما كنا نعرف من أمرها شيئا ، كما كان سببا فى تخليد بعض الاحداث لسهولة حفظه ولقيام راويه بقص المناسبة التى قيل فيها . ويضاف الى ذلك أن كثيرا من شعراء الجاهلية قد ساهموا فى الاحداث التى حدثت فى الجاهلية ، ومن ثم فان اشعارهم تعتبر سجلا حيا معاصرا لهذه الاحداث ، والعوامل التى أدت اليها وما آلت اليه . كما أن حياة بعضهم

(١) محمد أحمد جاد المولى ، وآخرون ، أيام العرب فى الجاهلية ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص ط - ي .
(٢) جواد على : المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٦٨ .

اتصلت بالاسلام ، فلم يكن شعرهم وماقالوه ورووه بعيد عهد عن اهل
الاخبار ورواة الشعر .

على انه يؤخذ على الشعر الجاهلى - كمصدر تاريخى - بعض المآخذ
والتي منها انه لا يرجع الى ابعد من عصر الجاهلية ، وهو جزء من عصر
ما قبل الاسلام ، فان ما وصلنا من الشعر الجاهلى لا يخطى بدايات القرن
السادس الميلادى ، اى انه يغطى قرنا واحدا قبل العصر الاسلامى ، بينما
يقدر العلماء لعصور ما قبل الاسلام مدة قد تتجاوز العشرين قرنا تمتد من
منتصف الالف الثانى قبل الميلاد(١) .

ومنها أيضا مالحق ببعض قصائد الشعر الجاهلى من زيادة أو نقصان
فاحتمال التغيير أو الزيادة في الابيات أو في القصائد يظل أمرا محتملا ،
ومن ثم يجب مقارنة هذا الشعر ببعضه حتى يكتسب الباحث تصورا عاما
للمجتمع الجاهلى يصبح ما يتواءم معها اصيلا وما لا يتواءم معها دخيلا أو
منحولا .

كما يجب أن نضع في اعتبارنا عنصر المبالغة المتوقع في الشعر ، وفي
بعض الاحيان تكون المبالغة من النوع العادى الذى يمكن ادراكه ، ولكنه في
احيان أخرى قد تتخذ هذه المبالغات ابعادا أكبر من حقيقتها ومن مضمونها .

ويؤخذ على الشعر الجاهلى أيضا - كمصدر تاريخى - انه لا يسهب في
الحديث عن التاريخ السياسى للقبائل في شبه الجزيرة العربية بقدر ماورد
فيه عن الاحوال الدينية والاجتماعية . كما أن معظم ما وصلنا منه انما كان
من عمل البدو وليس من عمل الحضرة ، ومن ثم فهو يمثل البادية أكثر مما
يمثل الحضرة ، ويضاف الى ذلك ما اتجه اليه بعض الباحثين من الاعتقاد
بان العلماء قد خففوا مدفوعين بالعامل الدينى من الطابع الوثنى في بعض
القصائد ، كما أن الافراط في الحرص على صحة اللغة وصفائها في اوساط
البصرة قد أدى الى اجراء بعض التصحيحات في الاشعار المروية .

(١) محمد مبروك نافع ، تاريخ العرب ، عصر ما قبل الاسلام ،
القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٩ .

ورغم أن كل هذه المآخذ ، فإن ما وصلنا من الشعر الجاهلى ، منحولا أو أصيلا ، يعتبر مصدرا أساسيا لتصوير حياة العرب فى الجاهلية ، ذلك أن القائمين بتزييفه ونحله كانوا يرمون على أن يقلدوا خصائص الشعر الجاهلى المعنوية واللفظية فى مهارة وحذق لدرجة أن الناقد كان يصعب عليه أن يفرق بين قول المزيف وقول الجاهل ، وعلى هذا النحو ، فالشعر المنحول يدل من حيث تصويره للحياة فى العصر الجاهلى على ما يدل عليه الشعر الثابت من تصوير للحياة فى بلاد العرب قبل الاسلام (١) .

فإننا يمكننا التعرف على جوانب الحياة فى المجتمع العربى قبل الاسلام من دراسة الشعر الجاهلى ، فمن دراسة أسماء الرهوط والقبائل يمكن تصور التكوين القبلى والعشائرى الذى كان يشكل الدعامة الأساسية من دعابات الحياة فى شبه الجزيرة فى الفترة السابقة لظهور الدعوة الاسلامية .

ويمكننا معرفة الأماكن والبلدان والآبار والمناطق الصالحة للسكن أو لمضارب الخيام ومسار القوافل وأماكن الرعى ، ومن ثم فهو يساعد الباحث فى التعرف على مناطق العمران وتوزيعها ، وعلى اتجاه الطرق التجارية أو المسالك بين قسم وآخر أو قبيلة وأخرى . ويضاف الى ذلك الأيام والمعارك التى سجلها الشعر الجاهلى مثل حرب داحس والغبراء ويوم حليمة بين الغساسنة والمناذرة ، ويوم خزازى بين نزار واليمن ، ويوم عراعر بين عبس وكلب ، ويوم ذى قاربين شيبان والفرس وغيرها .

ولقد حفظ لنا الشعر الجاهلى صورة من حياة العرب فى الجاهلية ، فى الجد واللهو والحب والبغض ، وفى أيام الخصب والرخاء وأيام القحط والبؤس ، وفى أوقات السلم والحرب ، وفى الزهد والتدين والترف والفجور .

ومن أشهر شعراء الجاهلية الذين يستفاد من شعرهم فى هذا الموضوع أصحاب المعلقة ، مثل امرؤ القيس بن حجر الكندى ، وطرفة بن العبد البكرى ، وزهير بن أبى سلمى المزنى ، ولبيد بن ربيعة العامرى ، وعمرو بن كلثوم التغلبى ، وعنترة بن شداد العبسى ، وأخيرا الحارث

(١) عمر فرج : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٥ .

ابن حلزہ البکری • ویستفاد کذلک من اشعار حسان بن ثابت شاعر النبی
علیه افضل الصلاة والسلام •

٥ - کتب السيرة والمغازی :

تعتبر کتب السيرة النبوية الشريفة والمغازی من المصادر المساعدة التي
يستطيع الباحث الاعتماد عليها في دراسته لتاريخ العرب قبل الاسلام ؛ ذلك
لان كتابها قد تعرضوا لذكر اخبار الجاهلية القريبة من الاسلام واحيانا
للانبياء السابقين ، ثم يفصلون القول في نسب النبی - عليه الصلاة والسلام -
وفي اخبار مكة وقريش ومن يتصل بهما من افراد وقبائل ، واشتملت هذه
الكتب على الكثير من الشعر الجاهلي الذي كان يستخدمه كتاب السير
والمغازی في الاستشهاد على ما يكتبون أو يتحدثون عنه (١) •

ومعظم كتاب السير والمغازی من أهل الحجاز ومن المدينة بالذات
باعتبارها دار هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ودار السنة التي عاش
فيها الصحابة وسمعوا احاديث الرسول ورووها بدورهم الى التابعين ، بينما
تألفت حركة أخرى للتأليف في السيرة والمغازی في البصرة كنتيجة طبيعية
للمصراع الحزبي والاقليمي والقبلي •

ولعل من أشهر كتب السيرة ، كتاب سيرة ابن هشام ، وهو أول كتاب
عربي وصل الينا يؤرخ لسيرة النبی عليه الصلاة والسلام وللعرب قبل
الاسلام ، وقد اعتمد صاحبه (ابو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى عام
٢١٨ هـ) على الرواية الشفوية ، كما يعتمد على كتب ضاعت ، أهمها كتاب
ابن اسحاق المتوفى عام ١٥١ هـ الذي كان أول من ألف في سيرة النبی - عليه السلام -
بناء على طلب الخليفة العباسي المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م) واستحق بذلك
تسمية ابن خلدون له «بالاستاذ» ، الا أن هناك من سبقه في التأليف في
المغازی من أمثال «عمرو بن الزبير» (المتوفى عام ٩٤ هـ) الذي يدخل في
عداد الطبقة الاولى من كتاب السيرة ، وكان له فضل كبير على كتاب السيرة

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ،
١٩٧٥ ، ص ٢٨ - ٢٩ •

كابن هشام وابن سعد ، اذ يدين كلاهما بجزء كبير من كتاباتهما لما رواه .
ورجع اليه الطبرى فى صفحات عديدة من تاريخه . وايمان بن عثمان
(المتوفى عام ١٠٥هـ) واشتهر بالحديث والفقه ، وكتابته فى السيرة لا تعدو
ان تكون صحفا تضمنت احاديث عن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ،
ولم ينقل له او يرو عنه أحد من كتاب السيرة الاول . وشرحبيل بن سعد
(المتوفى عام ١٢٣هـ) وابن شهاب الزهرى (المتوفى عام ١٢٤هـ) الذى يرجع
اليه الفضل فى تأسيس مدرسة التاريخ فى المدينة ، ولقد عرف بقوة اسانيده
وقلة استخدام الشعر فى كتابته ، صنف كتابا فى نسب قريش كما تناول فترة
الخلفاء الراشدين حتى انتقال الخلافة الى الامويين .

ومن كتاب السيرة محمد بن اسحق (المتوفى عام ١٥٢هـ) وهو أبو عبد
الله محمد بن اسحق بن يسار ، وهو من أصل فارسي ، وتنقسم سيرته الى
ثلاثة أقسام :

- ١ - المبتدأ ، ويبحث فى تاريخ الجاهلية مبتدئا به منذ الخليفة .
 - ٢ - المبعث ، وتناول فيه حياة النبى عليه الصلاة والسلام حتى السنة
الاولى للهجرة .
 - ٣ - المغازى ، وتناول فيه حياة الرسول فى المدينة وغزواته حتى وفاته
عليه الصلاة والسلام .
- ويؤخذ على كتابات ابن اسحق اعتماده على أهل الكتاب فى الرواية كما
اعتمد على ما جاء فى التوراة وأورد كثيرا من الشعر المنحول دون تحقيق
أو تمحيص ، ومع ذلك فإنه يحسب له أنه جمع فى كتاباته بين أساليب
المحدثين والقصاص .

٦ - كتب التاريخ والجغرافيا :

اتجه المؤرخون المسلمون فى كتاباتهم عن العصر الاسلامى الى كتابة
مقدمات لكتبهم عن العصر الجاهلى ، ودونوا فى هذه المقدمات أنساب
القبائل وصلاتها بعدنان وقحطان أو اسماعيل أو أبناء نوح ، وتقسيم العرب
الى طبقات ، واتجه بعضهم فى كتاباته الى ذكر اخبار العرب فى التاريخ

التدويم ، وى لا تعدو أن تكون مجموعة من القصص الشعبى والاساطير
لناشرة بالتوراة ، بينما اقتصر البعض الآخر فى كتاباته على ذكر اخبار
الجاهلية القريبة من الاسلام كايام العرب .

الا انه يؤخذ على هذا المصدر عدة مأخذ منها ، أولا : انه لا يمكن
الاطمئنان الى الكتابات التى تذكر اخبارا أبعد من القرن السادس للميلاد
وذلك نظرا لعدم معاصرة اصحاب هذه الكتابات لما كانوا يكتبون عنه ،
ويمتد ذلك عبر سبعة عشر قرنا ، اذ لم يبدأ أول تدوين لخبار العرب
السابقين للاسلام الا فى عهد معاوية بن ابى سفيان فى أواسط القرن الاول
الهجرة اى فى أواخر القرن السابع الميلادى . ومثل هذه المسافة الزمنية الطويلة
بين وقوع الاحداث وتدوينها أمر يضعف بالضرورة من قيمة هذه الكتابات
لانه لم يرد بها سند مدون ، ولم تؤخذ من نصوص مكتوبة ، وانما كان
الاعتماد فى روايتها على تواتر الروايات ، وهو أمر لا يمكن الاطمئنان اليه ،
ذلك أن رواة الاخبار ، حتى وأن كانوا بعيدين عن الميول والاهواء ، وكانوا
اصحاب ملكة حسنة ذات قدرة فى النقد والتمييز ، فان للذاكرة حدودا
لا نستطيع أن نتجاوزها . لذا وجب علينا الحذر فى الاعتماد على هذه
الموارد وتمحيص ما جاء فيها .

ثانيا : أن كثيرا من الكتابات المتصلة بالمنافسات بين القبائل ومآثرها ،
توجد فيها الكثير من المبالغات والافتعال والتعصب .

ثالثا : أن معظم هذه الكتابات قد كتبت بأسلوب القصص الشعبى ،
وهو أسلوب يصل الى نعمة الحديث الاسطورى كلما أوغل هؤلاء الكتاب فى
الحديث عن الماضى حتى وصلوا الى آدم عليه السلام .

ومع هذه المأخذ ، فاننا نعتد على هذا المصدر فيما يتصل بالفترة
القريبة من ظهور الاسلام من النواحي السياسية والاقتصادية والفكرية . ومن
الكتابات العربية التى أرخت للعرب قبل الاسلام نشير الى كل من (١) :

(١) إنظر : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٠
وما بعدها .

١ - عبید بن شریه الجرهمی الیمنی : اختلف فی اصله ، فذكر البعض انه كان من اهل صنعاء ، بينما رأى آخرون انه من الرقة بالعراق ، والارجح انه كان یمنیا ومن جرهم . وكان قصاصا اخباریا وعرف بین الناس بذلك فطلبه معاویة بن ابی سفیان . وينسب الیه العديد من الكتب ، مثل كتاب الامثال ، وكتاب الملوك واخبار الماضین الذی طبع فی ذیل كتاب «التيجان فی ملوك حمیر» المطبوع فی حیدر آباد بالهند بعنوان «اخبار عبید بن شریه الجرهمی فی اخبار الیمن واشعارها وانسابها» لابى محمد بن هشام بن ایوب الحمیری المتوفى عام ٢١٣هـ . وقد وضع الكتاب على الطريقة التى تروى بها الاسماء وایام العرب ، وفيه اشعار كثيرة وضعت على لسان عاد وثمود ولقمان وغيرهم .

ويمكن أن یقسم موضوع الكتاب بشكل عام الى ثلاثة أقسام :

الاول : خاص بتوزيع القبائل العربية القديمة من بابل الى الجزيرة العربية مع اشارات الى توزيع الترك والصقالبة والسودان والبربر من حفدة نوح الآخرين . والثانى : خاص بنهایة العرب البائدة من آل عاد الاولى والاخرة وقوم ثمود وجرهم ، والظروف التى هلکوا فیها ، واخبار انبيائهم وصلحائهم ، من هود وصالح ولقمان . الثالث : خاص باخبار ملوك الیمن القدماى ، ابتداء من أول ملوکهم الذی أطلق علیه «سبا» وانتهاء بحسان ابن تبع أسعد الكامل .

ويلاحظ فی هذا المؤلف انه بجانب القصص الاسطورية توجد فيه بعض المعلومات الهامة ذات طابع جغرافى وطبوغرافى عن بعض نواحي بلاد العرب ، مثل الاحقاف والحجر ووادی القرى والیمامة ، وعن مسمیات الرياح عند العرب ، واسماء سنوات القحط والجفاف واسماء الايام فی الجاهلیة ، الى جانب ذكر عدد من الاصنام ، وشيء من الطقوس الدينية العربية القديمة (١) .

٢ - وهب بن منبه : (المتوفى عام ١١٠هـ / ٧٢٨م) ، كان یمنیا من

(١) سعد زغلول عبد الحمید ، المرجع السابق ، ص ٣١ - ٣٤ .

أهل ذمار ، وأصله فارسي . وقيل أنه كان يهوديا وأسلم ، ولهذا ينسب إليه الكثير من القصص الاسرائيلي الذي دخل في مؤلفات المسلمين . وكان يدعى العلم بالكتب المنزلة القديمة جميعا ، وهو يبدأ الكتاب بقوله : «قرأت ثلاثة وتسعين كتابا مما أنزل الله على الانبياء فوجدت فيها أن الكتب التي أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابا» . ورغم ذلك أنه كان يتقن اليونانية والسريانية والحميرية ، ويحسن قراءة الكتابات القديمة التي لا يقدر أحد على قرائتها .

والمنهج الذي اتبعه وهب بن منبه في كتابه «كتاب التيجان في ملوك حمير» لا يكاد يختلف عن مؤلف عبيد بن شريه ، وهو يعالج ثلاث موضوعات :
١ - بداية عمران العالم بآدم وأولاده ، ثم العمران الثاني بنوح وبنيه .
٢ - الشعوب العربية البائدة ، مثل عاد الاولى والاخرة ، والعمالقة ، وثمود وجرهم .

٣ - ملوك اليمن ، وأولهم يذكر يعرب بن قحطان وآخرهم سيف بن ذي يزن .
وأشار في ثنايا مؤلفه كذلك الى ديانة العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، واحوال مكة والبيت الحرام (١) .

وهكذا يصبح كتاب التيجان ، موسوعة هامة في تاريخ الجزيرة العربية واحوالها . وينسب الى وهب بن منبه كذلك «كتاب المبتدأ» الذي يشير عنوانه الى ابتداء الخليقة ، وهو الكتاب الذي اعتمد عليه أحمد بن محمد الثعلبي في كتابه «عرائس المجالس في قصص الانبياء» وينسب اليه كذلك «كتاب المغازي» الذي لم يبق منه سوى مجموعة أوراق مخطوطة في مكتبة هيدلبرج بألمانيا .

٣ - الهمداني : (المتوفى بعد عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) ، هو أبى محمد

(١) انظر : جواد على ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جزء أول ، ص ٥٥٥ ، أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، جزء ثانى ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٢٣ .

الحسن بن أحمد بن يعقوب يمنى الأصل من قبيلة همدان ، يعتبر كتابه «الأكلیل» الذى وضعه فى عشرة أجزاء ، ذروة التخصص فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، ولم يصلنا منه سوى أربعة أجزاء ، والجزاء العشرة كما سجلها المؤلف هى :

- ١ - مختصر من المبتدأ وأصول الانساب .
- ٢ - نسب ولد الهميسع بن حمير .
- ٣ - فى فضائل قحطان .
- ٤ - فى السيرة القديمة عن تبع ابى كرب .
- ٥ - فى السيرة الوسطى من أول أيام اسعد تبع الى أيام ذى نواس .
- ٦ - فى السيرة الآخرة الى الاسلام .
- ٧ - فى التنمية على الاخبار الباطلة والحكايات المستحلية .
- ٨ - فى محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثى حمير والقيسوريات .
- ٩ - فى أمثال حمير وحكمها واللسان الحميرى وحروف المسند .
- ١٠ - فى معارف همدان وانسابها وعيون اخبارها .

وللهمدانى كتاب آخر هو «صفة جزيرة العرب» الذى استفاد منه من أتى بعده من الكتاب مثل : البكرى فى كتابه «معجم ما استعجم» ، وياقوت فى «معجم البلدان» (١) .

٤ - هشام بن محمد بن السائب الكلبي (المتوفى عام ٢٠٤هـ / ٨١٩م) (٢) : كان والده من علمان الكوفة فى التفسير والاخبار والانساب ، ويعتبر هشام ابن محمد من أعظم الاخباريين فى تاريخ العرب فى الجاهلية ، اذ كان يعتمد على الاصول والمصادر التاريخية ، الامر الذى يجعل منهجه فى الرواية أقرب الى منهج المؤرخين ، ولكن يؤخذ عليه سرعة التصديق ، ورواية الخبر على

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٦ - ٣٨ .
(٢) انظر : سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٤٣ - ٤٦ .

علاته دون نقد أو تمحيص وقد اتهم بالوضع والكذب ، حتى تجنبت جماعة من العلماء الرواية عنه .

وقد أهتم هشام بصفة خاصة بجمع الاخبار التاريخية عن الحيرة وأمرائها من المصادر المدونة، واعتمد في ذلك على محفوظات كنائس الحيرة ، وعلى المواد الفارسية المترجمة ، وله كتب كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست ويبلغ عددها ١٤٠ مؤلفا . ومن كتبه التي تهمننا كتاب الاصنام ، وهو يبين سعة اطلاعه على اخبار ما قبل الاسلام ، ومعرفته التي لا تحد بأحوال العرب في الجاهلية . ولقد ردد في هذا الكتاب ما كان يعبده العرب قبل الاسلام الى جانب بيوت العبادة المعظمة عند العرب كالكعبة ، وكعبة نجران ، ورثام . كما أنه يشير الى طقوس العبادة والشعائر التي كان يمارسها العرب قبل الاسلام .

وفي كتابه أنساب الخيل في الجاهلية والاسلام ، يبين كيف أولع العرب بالخيول في الجاهلية والاسلام ، الى حد أنهم كانوا يصبرون على الشدة وضيق العيش ويكرمونها حتى يؤثروها على اهل والولد . وعندما يذكر ابن الكلبي أسماء مشاهير خيل العرب في الجاهلية ، يعرض لبعض أخبار العرب وأيامها في الجاهلية .

٥ - أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي : هو فارسي الاصل ، يهودي الالباء ، ولكنه عربي تيمى أو تميمي بالولاء ، وكان لذلك أثره في ان جمع بين الثقافات الفارسية واليهودية والعربية . ولقد أهتم أبو عبيدة بصفة خاصة ببلاد العرب الشمالية ، فروى عن أخبار قبائلها وأيامها ، الا أن البعض يرميه بنزعته الشعرية ، وأنه كان يطعن في الانساب ، ويؤلف في مثالب العرب (١) .

٦ - حمزة الاصفهاني : يتميز مؤلفه «سنى ملوك الارض» بطابعه العلمى الجاف ، والكتاب يتناول التاريخ منذ «المبتدأ» الى منذ بدء الخليقة

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

وحتى أيام المؤلف ، ويهمنا من هذا المؤلف قسمة الاول الذى يتعلق بعصور ما قبل الاسلام ، وفيه يعالج حمزة الاصفهاني تاريخ عمران الارض وتاريخ الدول القديمة من البابليين والفرس واليونان والرومان والبيزنطيين ، كما يعالج دول الغرب ، فى اليمن والحيرة ونجد والحجاز وذلك فى عشرة أبواب مقسمة الى ٢٧ فصلا .

ويتميز حمزة الاصفهاني بميزتين : اولاهما انه ايراني (موطنيا على الاقل) فهو على دراية تامة باحوال الفرس ، ثم انه عالم مدقق كان يهتم باختيار مصادره سواء كانت كتباً أم رجالاً ، وهذا ما لفت الانظار اليه من غير شك .

٧ - الطبرى : هو محمد بن جرير الطبرى ، المتوفى عام ٢٢٩ هـ ، وهو صاحب اشمل مؤلف تاريخى كتبه مؤرخو العرب حتى القرن الرابع الهجرى ، وهو المعروف باسم «تاريخ الامم والملوك» ، وقد نجح المؤرخ فى أن يجعله موسوعة تاريخية ، ليس عن تاريخ العالم الاسلامى فحسب ، بل عن تاريخ البشرية الى حد ما ، فهو محاولة لدراسة تاريخ العالم (١) .

ونظرا لانه فارسى الاصل فقد اهتم بتتبع اخبار الدولة الساسانية الفارسية ، ونظرا للعلاقات بينها وبين الجزيرة العربية قبل الاسلام ، فقد كتب الطبرى فصول مستفيضة فى اخبار العرب قبل الاسلام .

وللطبرى أهمية خاصة نظرا لسعة اطلاعه وشموله وحرصه فى كثير من الاحيان على الاطلاع واثبات بعض الوثائق الرسمية التى حصل عليها وخاصة وثائق الفتوح العربية .

٨ - ابن الاثير : (المتوفى عام ٦٢٠ هـ / ١٢٣٢ م) ، لخص ابن الاثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ) كتاب الطبرى فى اخبار الرسل والملوك ، الا انه لم يكتف بتخليص الطبرى ، بل انه قام بسد الثغرات التى وجدها فى كتاب الطبرى ، بمعلومات احسن انتقادها حتى صار كتابه هو الاخر من المصادر

(١) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك ، جزء أول وجزء رابع ، القاهرة ، ١٩٦٧ - ١٩٦٩ .

البهامة . وذكر في مؤلفه ابتداء الخلق وآدم وبنيه والرسول من نوح الى اسماعيل ، وتاريخ الفرس ، واخبار ملوك الروم قبل المسيح وبعده ، والعرب وعلاقاتهم بهؤلاء الملوك ، ويرتب أيام العرب بطريقة تجعل من السهل تناولها (١) .

٩ - المسعودي : (المتوفى عام ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) ، يعتبر كتاب مروج الذهب للمسعودي من المصادر الاساسية بالنسبة لتاريخ العرب قبل الاسلام . وذلك بفضل ما كتبه في تاريخ العالم القديم وفي العرب قبل الاسلام واستغرق ذلك الجزء الاول ومعظم الجزء الثاني من مؤلفه . ويتميز مؤلفه بالمقدمة الجغرافية التي عرف فيها بالبلاد وبأثر البيئة على الانسان والحيوان والنبات . كما أنه قد أهتم بأحوال الناس والجماعات بشكل عام ، فهو لا يركز على التاريخ السياسي ، بل يسجل أنواعا من النشاط الاقتصادي والاجتماعي والعادات والتقاليد والمعتقدات وغيرها .

ويبدأ المسعودي تاريخه ، كما فعل الطبري ، بذكر المبتدأ وشان الخليفة من آدم وبنيه ، ومن أتى بعده من الانبياء من نوح الى ابراهيم ، واخبار الشعوب البائدة ، مثل طسم وجديس وعملق ، قبل أن يركز على بنى اسرائيل الذين يرتبط تاريخهم بتاريخ اليمن عن طريق سليمان عليه السلام ، كما يرتبط بتاريخ العراق (٢) .

١٠ - ابن خلدون : (المتوفى عام ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) ، يكاد ابن خلدون يلخص كل ما كتبه قدامى الكتاب من المشاركة في الجزء الثاني من كتاب العبر ، وهو الجزء الاول من تاريخه الذي يعقب المقدمة ، وجعل ابن خلدون عنوان هذا الجزء : « في اخبار العرب واجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى هذا القرن » (٣) .

-
- (١) ابن الاثير (عز الدين أبو الحسن علي الشيباني) : الكامل في التاريخ ، جزء أول وجزء ثاني ، بيروت ، ١٩٦٥ .
(٢) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزء الاول والثاني ، تحقيق يوسف داغر ، بيروت ، ١٩٧٣ .
(٣) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ بن خلدون ، بيروت ، ١٩٧١ .

ودول العرب السابقة على الاسلام - حسب خطة ابن خلدون - مقسمة الى ثلاث طبقات على النحو الاتي :

١ - الطبقة الاولى : وهم العرب العاربة أو العمالقة ، من عاد و ثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبدضخم وجرهم وحضرموت ، ويتلو ذلك الخبر عن ابراهيم ابى الانبياء وبنيه .

٢ - الطبقة الثانية : وهم العرب المستعربة ، ويدخل بضمنهم اليمنية أو السبئية ، وبذلك يدخل في هذه الطبقة ملوك التبايع من حمير ، وملك الحبشة لليمن ، وغزو الحبشة للكعبة .

٣ - الطبقة الثالثة : وهم العرب التبايع للعرب ، بين العرب البادية أهل الخيام من العدنانية والمعدية وملوك الحيرة ويثرب ثم قريش .

والسمة السائدة في كتابات هؤلاء المؤرخين تحرى الدقة في كتاباتهم عن تاريخ الاسلام في معظم الاحوال ، والاهمال والخلط الذي صجب كتاباتهم عن عصور ما قبل الاسلام . ولعل عذرهم في ذلك أن عصر الاكتشافات الحديثة الذي نعيشه الآن لم يكن قد بدأ بعد ، وأن الاعتماد في التاريخ لبلاد العرب قبل الاسلام إنما كان على ما جاء في التوراة والادب العربي القديم ، كذلك فإن الخط العربي كان في أول الامر غير منقوط ، وكذا كانت الكتابات النبطية التي يرجح أن الخط العربي مشتق منها ومتطور عنها ، ولعل أهم ما في كتب الاخباريين من عيوب إنما هو أولا : وذلك فيما يذكر استاذنا الاستاذ الدكتور محمد بيومي مهران (١) - تلك المبالغات التي ادخلها أهل الاغراض أو الطامعون ممن دخلوا الاسلام ، لان العرب كانوا يستفتونهم فيما غمض عليهم . وثانيا : هناك ماتابع العرب فيه اليهود وأعنى به رد كل أمة الى أب من آباء التوراة ، حتى المغول والفرس ، فمثلا ردوا نسب الفرس الى «فارس بن ياسور بن سام» ، وقس هذا على تعليل اسماء البلاد، وردھا الى اسماء من يظنون أنهم مؤسسوها ، بما يشبه قول اليهود ، فمثلا

(١) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٦ - ٥٩ .

مصر ، إنما بناها «مصريايم» وأشور بناها آشور ومن هذا القبيل قولهم «يعرب» لمن تكلم العربية . ثالثا : هناك اختلاف الاخباريين في الانساب ، حتى أنهم لم يتفقوا الا في القليل من أسماء الملوك والامراء ، وان كان الامر جد مختلف بالنسبة الى قريش ، وهناك رابعا : ان العرب كانت تتصرف في الاسماء غير العربية ، بتبديل حروفها وتغييرها ، ومن ذلك اختلافهم في ذى القرنين بين أن يكون «الصعب بن مدثر» من ملوك اليمن ، أو ان يكون الاسكندر المقدوني ، وقريب من هذا ما فعلوه بملوك مصر على ايام الفراعين ، فملك مصر على ايام يوسف (عليه السلام) إنما هو «الريان بن الوليد بن الهروان بن أراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح» ، وان فرعون موسى (عليه السلام) إنما هو «قابوس بن مصعب بن معاوية» صاحب يوسف الثاني ، وكانت امراته «آسية بنت فراحم بن عبيد بن الريان ابن الوليد» فرعون يوسف الاول ، وانها من بني اسرائيل على ما يرى بعض الرواة . والجدير بالذكر في هذا المجال - هو من اين جاء المؤرخون الاسلاميون بهذه الاخبار ، والتوراة - على فرض أنهم نقلوها عن اليهود - لم تذكر هذه الاسماء ، والامر كذلك بالنسبة للقرآن الكريم ، فضلا عن أن الفراعين المصريين ليس من بينهم من يحمل هذه الاسماء ، ولكنه الخلط وادعاء العلم . وهكذا يبدو لنا أن الخلط من ناحية ، والاسرائيليات من ناحية اخرى ، قد لعبوا دورا كبيرا في مسح بعض هذا التاريخ الذي كتبه المؤرخون الاسلاميون عن العصور التي سبقت الاسلام بآماد طويلة . ورغم ذلك فهم قدموا لنا الكثير من المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها في التاريخ لعصور ما قبل الاسلام .

الفصل الثالث

طبقات العرب

طبقات العرب

يقسم الرواة واصحاب الاخبار العرب من حيث القدم الى طبقات :
عرب بائدة وعرب عاربة ، وعرب مستعربة ، او عرب عاربة ، وعرب
متعربة ، وعرب مستعربة ، او عرب عاربة ومستعربة وتابعة ومستعجمة^(١) ،
كما يقسم العرب من حيث النسب الى قسمين : قحطانية ، منازلهم الاولى
في اليمن ، وعدنانية ، منازلهم الاولى في الحجاز^(٢) . ويقسم الاخباريون
والمؤرخون العرب احيانا الى طبقتين : عرب عاربة ، وعرب مستعربة .
ومن الجدير بالذكر ان هذا التقسيم لم يرد اليينا من النصوص الجاهلية ،
وانما ورد اليينا في الكتب المدونة في الاسلام ، وتقسيم العرب - الى طبقات -
وذلك من ناحية القدم والتقدم في العربية - هو تقسيم لانجد له ذكرا في التوراة
او الموارد اليهودية الاخرى ، ولا في الموارد اليونانية او اللاتينية او
السريانية . ويظهر انه تقسيم عربى خالص ، نشأ من الجمع بين العرب
الذين ذكر انهم بادوا قبل الاسلام فلم يبق منهم غير ذكريات وبين العرب
الباقيين ، وهم اما من عدنان ، واما من قحطان .

والعرب البائدة هم الذين كانوا عربا صرحاء خلصاء ذوى نسب عربى
خالص - نظريا على الاقل - ويتكونون من قبائل عاد وثمود وطسم وجديس
وأميم وعبيل وجرهم والعماليق وحضورا ومدين وغيرهم . واما العرب
الباقية - ويسمون ايضا المتعربة المستعربة - فهم الذين ليسوا عربا خلصاء ،
ويتكونون من بنى يعرب بن قحطان ، وبنى معد بن عدنان . ويقسم ابن
خلدون العرب - طبقا للتسلسل التاريخى - الى طبقات اربعة ، فهم عرب
عاربة قد بادت ، ثم مستعربة وهم القحطانيون ، ثم العرب التابعة لهم من

(١) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ، ص ١٦ - ١٨ .

(٢) طه حسين ، في الادب الجاهلى ، القاهرة ، ١٩٣٣ ، ص ٧٩ .

عدنان والاوز والخزرج ثم الغساسنة والمناذرة ، واخيرا العرب المستعجمة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الاسلاميه .

ورغم ما في هذه التقسيمات من مأخذ ، الا اننا سنشير اليها بايجاز ، ولنبدأ بالعرب البائدة ، فقد شك كثير من المستشرقين في حقيقة وجود اكثر الاقوام المؤلفة لهذه الطبقة ، فعددها بعضهم من الاقوام الخرافية التي ابتدعتها مخيلة الرواة ، وخاصة حين عجزوا عن العثور على اسماء مشابهة لها او قريبة منها في اللغات القديمة او في الكتب الكلاسيكية ، ولكن ظهر بعد ذلك أن في هذه الاحكام شيئا من التسرع ، اذ تمكن العلماء من العثور على اسماء بعض هذه الاقوام ، ومن الحصول على بعض المعلومات عنها . والمقصود بلفظة (بائد) عدم وجود احد من العرب ينتسب الى هذه القبيلة او تلك عند كتابة المؤرخين الاسلاميين لتاريخ ما بعد ظهور الاسلام ، أما العرب الباقية فنعني بها الجماعات - التي كانت - وما تزال - تعيش في هذه المنطقة .

وتعد (عاد) (١) اقدم الاقوام العربية البائدة من وجهة نظر الاخباريين ، ويضربون بهم المثل في القدم ، وربما تكونت هذه النظرية عند الجاهليين من قدم عاد ، او من ورود اسم عاد في القرآن الكريم ، ثم مجيء اسم (ثمود) بعد ذلك ، ومن ثم فقد قدما على بقية الاقوام البائدة .

هذا وقد ذهب بعض الاخباريين الى أن عادا هي (هدورام) في التوراة ، ودليلهم على ذلك اقتران عاد بارم في الكتب العربية ، وبعض القراءات التي قرأت (بعاد ارم) ، في الآية : «الم تركيب فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد» ، على الاضافة ، او باضافة ارم الى ذات العماد . وبين (عاد ارم) و (هدورام) تشابه كبير في النطق . وذهب الاخباريون الى وجود طبقتين لقوم عاد هما : عاد الاولى ، وعاد الثانية ، وكانت عاد الاولى من اعظم الامم بطشا وقوة ، وكانت مؤلفة من عدة بطون تزيد على الالف - وقد

(١) محمد بيومي مهران ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، الجزء الاول ، في بلاد العرب ، الاسكندرية ، ١٩٩٥ .

نشأت فكرة وجود طبقتين لعاد عند الاخباريين الى ما اشار اليه القرآن الكريم من ان هناك عادا الاولى ، وعادا الثانية ، وان عاد الاولى انما هم عاد ارم الذين يسكنون الاعمدة التي تحمل الخيام ، وان عادا الثانية انما هم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع ، وربما كانوا هم قوم ثمود .

اما (ثمود) (١) فقد ورد اسمها في الكتب العربية مقرونا باسم عاد ، وبعد هذا الاسم في الغالب ، والروايات العربية الواردة عنهم لا تعرف من تاريخهم شيئا ، انما روت عنهم قصصا أوردها لمناسبة ما ذكر عنهم في القرآن الكريم على سبيل العظة والاعتبار والتذكير . وقد وردت اشارات عنهم في الشعر الجاهلي . وتكاد تجمع الكتب العربية على ان ثمودا كان مقامها بالحجر الى وادي القرى بين الحجاز والشام ، على ان ارتباطها بعاد يقتضى تقاربهما في المكان ، ولذا ذهب الاخباريون الى ان ثمودا انما كانت باليمن قديما ، فلما ملكت حميرا اخرجوها الى الحجاز ، ولقد أثبتت الدراسات الحديثة ان الثموديين قد عاشوا في شمال الجزيرة العربية منذ أعماق التاريخ .

وقد ورد اسم ثمود في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، فجاء منفردا ، وجاء مقرونا باسم شعوب اخرى مثل قوم (نوح) وقوم (عاد) . وتاريخ قوم ثمود يعود الى ما قبل الميلاد بزمان ، فقد كانوا ضمن الشعوب التي حاربت الاشوريين في عهد (سرجون الثاني) ، وقد ذكر هذا الملك في النصوص التاريخية التي سجلها ، انه تغلب عليهم ، وانه أجلاهم عن مواطنهم الى السامرة ، ويرى بعض الباحثين ان آخر ذكر ورد في الوثائق لقوم ثمود كان في القرن الخامس الميلادي ، حيث ورد ان قوما منهم كانوا فرسانا في جيش الروم .

أما (طسم وجديس) (٢) فينسبهما الاخباريون الى «لاوذ بن ارم بن سام ابن نوح» مع القليل أو الكثير من التعديل في هذا النسب ، وانهما كانا

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ٢٤ ، الطبري ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٣٣٧ .

قريباً بعهد عاد الاولى ، اما موطنهما فكان في منطقة اليمامة ، والتي كانت تسمى «حو» من قبل ، ولكن يبدو ان هذا لم يكن هو الوطن الاول ، ويرجح ان يكون بداية استقرار «طسم» في منطقة العلا ، ثم انتقلت بعد ذلك الى منطقة اليمامة . وربما يرجع سبب انتقالها الى عوامل اقتصادية ، ويبدو ان (جديس) قد نزحت كذلك مع (طسم) . وبهذا يمكن أن نجد صلة نسب قائمة بين القبيلتين .

هذا ولم يرد ذكر اسم هذه الاقوام في القرآن الكريم ، وقد ورد اسم (طسم) في نص يوناني عثر عليه في (صلخد) ويعود تاريخه الى عام ٣٢٢م ، كما ان التوراة اشارت الى (طسم) على انه من نسل (دادان بن يقطان) ، اصف الى ذلك ان بعضاً من المستشرقين يرى ان اسم Jodisitae أو Jolisitae الوارد في جغرافية بطليموس^(١) هو اسم قبيلة من قبائل شرق بلاد العرب ، وانها جديس بعينها . وقد نسب الاخباريون اماكن عديدة الى طسم وجديس وهي قرى ومدن ذكر انها كانت عامرة آهلة بالسكان ذات مزارع ، ومن بين هذه الاماكن المذكورة (المشقر) وهو حصن بين نجران والبحرين ، و (معنق) وهو من قصور اليمامة على أكمة مرتفعة .

اما (اميم)^(٢) فقد جعلهم الاخباريون في طبقة (طسم وجديس) وقالوا انهم من نسل (لاوذ بن عمليق) ، وكان من شعوبهم (وبار بن اميم) ، نزلوا برمل (عالج) بين اليمامة والشحر ، وانهارت عليهم الرمال فاهلكتهم . ويزعم الاخباريون ان ديار (اميم) كانت بأرض فارس ، ولم يذكروا كيف عدوهم من طبقة العرب الاولى اذا كانت ديارهم بأرض فارس . وقد جاء في جغرافية بطليموس اسم شعب عري ذكر على انه من شعوب العرب الجنوبية وهذا الاسم قريب جداً من اسم (وبار) ، وتقع ارض (وبار) بين رمال يبرين واليمن . ومع ذلك ، فان شعب وبار ، في رأى كثير من المستشرقين - انما هو من الشعوب الخرافية ، وان كانت ذكرى (وبار)

(1) Encyclopaedia of Islam, I, p. 992.

(٢) الطبرى : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

ما تزال في ذاكرة العرب حتى اليوم ، ففي الربيع الخالى اماكن كثيرة زعم
الاعراب انها كانت مواضع (وبار) .

اما (عبيل) فقد ذكر الاخباريون انهم اخوان عاد بن عوص ، او اخوان
عوص بن ارم^(١) ، او انهم لحقوا بموضع (يثرب) حيث اختطوا يثرب ،
وكان الذى اختطها منهم رجل يقال له (يثرب بن باثلة بن مهلهل بن
عبيل) ، ثم ان قسما من العماليق انحدروا الى يثرب ، فاخرجوا منها
عبيلا ، فنزلوا موضع (الجحفة) فاقبل سيل فاجتحفهم فذهب بهم فسميت
(الجحفة) .

ونقرأ في التوراة عن «عبيال» او «عوبال» على أنه من ولد «يقطان»
(قحطان في المصادر العربية) ، ومن هنا رأى فريق من علماء التوراة ان
(عبيل) من الممكن ان يكون «عبيال» او «عوبال» ، ويشير بطليموس الى
موضع يقال له Avalitae على خليج يدعى بهذا الاسم Avalites Sinus
وعليه مدينة تسمى Avalitae Emporium ، وسكانها يدعون Avalitas
وقد ورد الاسم عند «بلينى» محرفا الى Abalitae وربما كان هؤلاء هم
عوبال . وقد ذكر ان في اليمن مكانا يقال له عبيل ، وقرية تقع على طريق
صنعاء تعرف بـ(عبال) وهذان الاسمان قريبان من اسم عبيل .

اما (جرهم)^(٢) فقد نظر اليهم الاخباريون على انهم طبقتان ، جرهم
الاولى : وهم من العرب البائدة ، وكانوا على عهد عاد وثمود والعمالة ،
وقد اقاموا بمكة . ويرجعون انسابهم الى (عابر) . وقد أبيدوا على ايدى
القحطانيين ، اما جرهم الثانية : فقد اطلقوا عليهم جرهم القحطانية
وينسبهم اهل الاخبار الى (جرهم بن قحطان بن هود) وقد كانوا اصهارا
للنبي - ﷺ - هذا وقد ورد اسم جرهم عند بعض الكتبة اليونان .

وفيما يتصل (بالعمالة)^(٣) فقد نسبهم الاخباريون الى (عمليق بن

-
- (١) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ، ص ٢١ .
(٢) الطبرى ، تاريخ الطبرى ، الجزء الاول ، ص ٢٥٦ .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

لاوذ بن سام بن نوح) ، ولم تذكر التوراة اصلهم ونسبهم ، ويبالغ الاخباريون في احمية العماليق وسعة انتشارهم بدرجة لا يمكن أن يقبلها منطق او يقرها عقل ، فيجعلونهم امما كثيرة تفرقت في البلاد ، فكان منهم أهل عمان والحجاز والشام ومصر ، فضلا عن أهل المدينة وبنو هف وبنو مطر وبنو الازرق وسعد بن زهران ، هذا الى جانب شعبة منهم ذهبت الى ضنعاء ، كما كان منهم الجبابرة بالشام - وهم الكنعانيون - والفراعين بمصر ، والارقم ملك الحجاز بتيماء . وأما اصل الكلمة (عماليق) او عمالقة ، فمجهول ، وان كانت هناك آراء تذهب الى انه منحوت من اسم قبيلة عربية ، اطلق عليها البابليون اسم (ماليق) او (مالوق) ، وازداد اليها اليهود لفظ «عم» اي الشعب او الامة ، فقالوا (عم ماليق) ثم جاءت العربية فقالت (عمالقة) .

ويكاد يتفق الاخباريون على ان العماليق عرب صرحاء ، ومن أقدم العرب زمانا ، ولسانهم هو اللسان المصري الذي نطقت به كل العرب البائدة . والعماليق في نظر التوراة - من اقدم الشعوب التي سكنت جنوب فلسطين ، ربما لانهم كانوا أول من اصطدم بالاسرائيليين اثناء التيه في صحراوات سيناء . وقد ورد في التوراة ان العمالقة هاجموا بني اسرائيل عند خروجهم من مصر وأمرؤا جميع مقاتليهم ، كذلك فقد اتحد العمالقة مع «عجلون» ملك مؤاب الذي انتزع من الاسرائيليين مدينة النخل ، وكان (شاول) هو أول ملك اسرائيلي يحارب العماليق ، وقد نجح في الانتصار عليهم طبقا لما ورد في التوراة .

أما (حضورا) (١) فقد ذكر الاخباريون انهم كانوا يقيمون بالرس ، وهو أما موضع بحضرموت أو اليمامة أو بناحية صهيد ، وكانوا يعبدون الاوثان ، وبعث اليهم نبي منهم اسمه (شعيب بن ذي مهرع) فكذبوه ، وهلكوا . وقد

(١) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ٢٠ ، الطبري ، المرجع السابق ، ص ٥٥٨ - ٥٦٠ .

ورد في القرآن الكريم (اصحاب الرس) مع عاد وثمود مرة ، ومع قوم نوح مرة اخرى . وذهب فريق من المفسرين الى ان شعيب بن ذي مهري كان نبيهم ، بينما يتجه فريق آخر الى القول بان نبيهم هو (خالد بن سنان) وان رسول الله - ﷺ - قد تحدث عنه فقال «ذاك نبي ضيعه قومه» ، وذهب فريق ثالث الى انه (حنظلة بن صفوان) .

ويروى الاخباريون ان بختنصر - وهو الامبراطور البابلي نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق م) قد غزا (حضورا) واعمل السيف فيهم ، فقتل الغالبية العظمى منهم ، بينما هجر بقيتهم الى اماكن اخرى من امبراطوريته .
واما سبب ذلك فلان القوم قد كفروا بنبي لهم يدعى (شعيب بن مهدي ذي مهدي ابن المقدم بن الحضور) ، ومن ثم فقد اوحى الله الى النبي اليهودي «برخيا بن اخيبا» ان يترك نجران ويذهب الى نبوخذ نصر ويأمره بغزو العرب ، الذي تمكن من اخضاعهم . واهل حضور الذين قتلهم نبيهم ، وقتلهم (نبوخذ نصر) هم شعب من اليمن على رأي الاخباريين ، وفي اليمن موضع يسمى (حضور) ينسبه الاخباريون الى (حضور بن عدي بن مالك ابن زيد بن سدد بن حمير بن سبا) ، وذكروا انه المكان الذي قصده (نبوخذ نصر) فقتل اهله . وعلى هذا المكان مسجد يزار حتى اليوم ، يقال له مسجد شعيب نبي اصحاب الرس .

اما (المديانيون) (١) فقد تحدث القرآن الكريم عنهم ، وعن نبيهم الكريم شعيب عليه السلام ، في مواطن متفرقة من سورة ، ووفقا لما جاء في القرآن الكريم ، فكان شعيبا اتي مدين واصحاب الايكة ، فنهاهم عن عبادة الاوثان وامرهم ان يقيموا الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان . وكان اهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم (مدين) التي هي قرية من ارض معان في اطراف الشام مما يلي الحجاز ، قريبا من بحيرة قوم لوط . وهذا وقد كانت مدين هذه انما تمتد من خليج العقبة الى مؤاب وطور سيناء . ويفهم من التوراة ان مواطن المديانيين انما كانت تقع الى الشرق من العبرانيين ،

(١) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، الفصل الثامن .

ويبدو انهم توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين ، متخذين منها مواطن جديدة ، عاشوا فيها أمدا طويلا .

ويرجح بعض الباحثين ان عصر شعيب ، انما كان قبل عصر موسى ، معتمدين في ذلك على ان الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيبا في القرآن الكريم - كما في سورة الاعراف ويونس وهود والحج والعنكبوت بعد نوح وهود وصالح ولوط ، وقبل موسى ، واذا ماعدنا الى عصر الخليل عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق م) وتذكرنا ان لوطا وقومه انما كانوا معاصرين لابى الانبياء ، لامكننا القول ان شعيبا وقومه انما كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وبخاصة ان التدراسة تذكر ان مدين انما كان من ولد الخليل من زوجه قطره الكنعانية .

الفصل الرابع

دولة معين

دولة معين

يرجح العلماء ان دولة معين ، انما هى دولة نستطيع ان نلمح بعض معالمها وسط جنبات التاريخ القديم لبلاد العرب الجنوبية ، وانها - طبقا للنقوش التى تركتها فى شمال اليمن حول بلدة معين - قد قامت فى منطقة الجوف بين نجران وحضرموت ، وهى منطقة سهلة غرينية ، اشتهرت بنخيلها واخشابها ومراعيها التى تعتمد على مياه «الخاردين» وعلى الامطار التى تسقط هناك ، فتكون سيولا تسيل فى اودية ، فاذا اُضفنا الى ذلك كله ، ان الجبال تحيط بها من جهات ثلاث ، مما يكون حماية طبيعية لها، تبين لنا الى اى مدى ساعدت تلك العوامل الطبيعية على ان تكون منطقة «جوف» هذه مركزا هاما للحضارة فى اليمن القديم .

وكانت معين موقعها من الجوف مالوف لى الشعراء العرب ، ويستشهد الهمذاني بقول مالك بن حريم :

سخمى الجوف مادامت معين

باسفله مقابلة سرادا

ويذكرها الهمذاني (١) بقوله «معين من محافد اليمن المشهورة» . وهو دلالة على عظم عمرانها ، وانها قام بها قصر للملك من اشهر قصور اليمن . وقد اكدت الجهود الاثرية الحديثة ضحة الموقع وظروف العمران . ومصادرنا الاصلية عن دولة معين، انما هى الكتابات التى تركها اصحاب هذه الحضارة، فضلا عن كتابات الرحالة القدامى من الاغريق والرومان ، من امثال ديودور الصقلي، وسترابو ، وثيوفراستوس . أما المصادر العربية ، فلا علم لها بهذه الدولة وان عرفت اسم «معين» و «براقش» على انهما موضعان فى الجوف ،

(١) الهمذاني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) الاكليل ،

الجزء الثامن ، بغداد ، ١٩٣١ ، ص ١٠٥

أو محفدان من جملة محافد اليمن وقصورها القديمة ، كما أنها جعلتهما من ابنية «التبابعة» .

أما عن الحدود الزمنية لتاريخ دولة معين ، فقد ظل موضع جدل واختلاف كثير من الدارسين ، وقد كان الغالب من قبل على العلماء هو الغلو في قدم «معين» فأرخها «جلاس» (١) إلى الألف الثاني أو الألف الثالث قبل الميلاد . ثم اتجه الرأي بين العلماء إلى شيء من الاختزال في تاريخ الكتابات المعينية ، فهبطوا بتاريخ بداية الدولة إلى ما بين ١٥٠٠ - ١٢٠٠ ق م . وأنها استمرت حتى عام ٧٠٠ ق م (٢) ، وهناك من كان أكثر تحديد فجعلها تبدأ في ١١٢٠ ق م . وينتهي حكم آخر ملوكها عام ٦٣٠ ق م (٣) ، ثم ازداد العلماء نقدا لمصادرهم ، وتقدمت أساليب الدراسة المقارنة لتواريخ الشعوب القديمة ، فاقترح أحدهم أن بداية دولة معين لا يمكن أن يكون سابقا على عام ٥٠٠ ق م ، في حين هبط آخر بهذا التاريخ إلى عام ٤٠٠ ق م وأن نهايتها تقع في منتصف القرن الأول الميلادي أو قبل ذلك كحد أقصى . ويمكن القول أن أسباب هذا الاختلاف بين آراء المؤرخين إنما يرجع أولا إلى أنه بالنسبة لأصحاب التاريخ المبكر ، فقد تأثروا بعبارة «بلينيوس» التي وجهت أذهانهم إلى قدم دولة معين ونقوشها . ففى تلك العبارة يربط بلينيوس بين المعينيين والمينويين من سكان جزيرة كريت ، وجعل الشعبين من أصل واحد . وواضح أن السبب هو تشابه الاسمين عند كتابته بالحروف اليونانية أو اللاتينية . ولكن كنتيجة لتقدم دراسة تاريخ الكتابات القديمة وتطورها ، من الكتابة الهجائية الفينيقية ، لأن الكتابة المعينية هجائية متطورة عن الكتابة الفينيقية ، فلا بد أن تكون لاحقة لها . كل هذا غير من رأى العلماء وخاصة بعد أن ثبت أن حروف الهجاء الفينيقية بلغت مرحلة النضج في القرن العاشر الميلادي وعلى ذلك لا يمكن أن تكون الكتابات بالخط

(١) انظر : جواد على ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الثاني ، ص ٧٧ .

(٢) فرينز هومل ، تاريخ العرب القديم ، ص ٦٤ - ٦٥

(٣) Philpy, J. B., The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 141.

المسند في اليمن عامة ، سابقة على القرن العاشر بل لاحقة عليه . أما
الاسلوب الآخر الأكثر تحديدا للتاريخ فهو الاختيار المعلى للأثار العضوية
المعينية بطريقة (كريسون ١٤) والتي قد اثبتت أن معين وسبأ كانتا
متعاصرتين ، الى أن تمكنت سبأ من احتوائها هي وغيرها من مدن اليمن
الآخرى والتفوق عليهم .

ولقد تعاقبت على حكم معين خمس أسرآت حاكمة ، لم تحتفظ النصوص
بالقاب حكامها الاوائل ، الا أنهم يبدو أنهم مثل جيرانهم قد بدأت سلطتهم
بطابع ديني ، فتلقب الحكام بلقب «مزود» الذي قد يعنى من يزود
المعبودات أو المعابد بالقرايين أو من يزود دولته بخيراتها . ونظرا لثراء دولة
معين فلقد كانت هدفا لحكام سبأ الذين ما فتئوا في الدخول في معارك معها
لنهب ثرواتها .

وفي أوائل القرن الرابع ق.م بدأت العصور الملكية في معين ، وذلك بعد
استردادها كيائها من سبأ ، وتلقب ملوكها بعدة القاب مثل «صدق» بمعنى
الصادق أو العادل ، «يشور» بمعنى المستقيم ، و «ريام» بمعنى المتعالى .
وفي ظل وجود النظام الملكي ، فلقد وجد مجلس يتكون من مشايخ القبائل
وأعيان العاصمة ، وسمى هذا المجلس «مسد مفعن» بمعنى المجلس المنيع ،
وكان الذى يدعوا هذا المجلس للانعقاد للبحث في تقدير الضرائب والتصديق
على العقود التى تعقدها الدولة مع كبار الافراد ، وكذلك المداولة في أمور
الصرى .

ويرجح أنه قد قامت الى جانب هذا المجلس ، مجالس أخرى فرعية في
المدن الكبيرة والاقاليم ، وتولى رئاسة حكم الاقاليم والمدن الكبيرة في معين
موظفون تلقب كل منهم بلقب «كبر» أى كبير ، أو وآل ، وكان من اختصاصه
تولى القضاء وجباية الضرائب واقامة المشروعات العامة في اقليمه (١) .

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها
القديمة ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٩١ - ٩٣ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٩٤ .

وهذا وقد اشتهر المعينيون بأنهم قاموا بدور فعال في انماء التجارة مع الشمال . ولعل اشتهر نص في هذا المجال هو النقش المعينى المعروف بنقش «جلاسر» وموضوعه الرئيسى هو عودة قافلة كبرى سالمة الى (قرناوى) أهم مدن معين . هذا وقد ذكر اسم شعبى «معين ويقل» في نهاية النقش مما يدل على أن المدينتين قد اشتركتا في هذه القافلة ، وهذا يدل على قخامتها وشمولها . ومثل هذه القوافل كان يشبه احيانا الحملة العسكرية في حجمها وتسليحها ، حتى تستطيع ان تواجه الاخطار التى تتعرض لها . وهناك ما يشير في النص الى أن تلك القافلة كانت تجاريتها مع مصر .

ولقد تعامل تجار معين ووسطاؤها من «معين» مع العواصم المصرية ، واستقر بعضهم فيها . ومنهم رجل يدعى «زيدايل بن زيد» دفن في مصر ، وعثر على تابوته في منف ، ويستدل من الكتابات المنقوشة عليه بخط المسند أنه عمل في خدمة أحد المعابد المصرية ، كما تولى توريد بعض المنتجات العربية اليه مثل المر وذلك في مقابل ما كان يصدره الى بلده من المنسوجات المصرية . ويؤرخ هذا النص بحوالى عام ٢٦٣ ق م خلال عهد بطليموس الثانى أو بعده (١) .

كذلك فهناك نقش من جزيرة ديلوس اليونانية ببحر ايجه ، ويرجع الى النصف الثانى من القرن الثانى ق م ورد فيه اسم الاله (ود) والهة معين ، وهو بهذا يؤكد ان خطوط التجارة المعينية قد تعدت حدود الجزيرة العربية الى مصر ، وعبر البحر المتوسط الى ديلوس ، وان هذا الامتداد لم يكن عن طريق وسطاء آخرين ، ولكن مباشرة بواسطة تجار معينين . ونظرا لامكانية تعرض هذه القوافل للخطر على طول الطويق ، اقام المعينيون محطات أو مراكز تجارية على طريق القوافل من معين ونجران جنوبا الى فلسطين ودمشق . وقد كشف لنا عن هذه الحقيقة نقش عثر عليه في موقع العلا في شمال غرب الجزيرة حيث اقامت معين لها في هذه البلدة مستوطنة تجارية . ويتضح من انها كانت وثيقة الصلة بالوطن الاصلى

(1) . BASOR, 73, p. 7.

وخاضعة لملك معين ، الذى كان يدير شئون المستوطنة عن طريق (كبير) يذكر اسمه فى الوثائق الى جانب اسم ملك معين (١) ، ومع ذلك يتضح لنا ان معين كانت تمارس تجارتها عن طريق شبكة متقنة من المحطات التجارية المنتشرة على مراحل مناسبة ، على طريق القوافل داخل الجزيرة العربية ، أو خارجها فى مراكز التجارة العالمية فى شرق البحر المتوسط . ويبدو مرجحا انه قد اشتركت مع معين فى هذه التجارة الدولية بعض جاراتها من الدول الجنوبية التى تتكامل معها ، وانسب الاقاليم التجارية لمثل هذا التكامل اقليم حضرموت نظرا لسيطرته على مناطق اللبان أو تحكمه فيها بحكم موقعه واشرافه على المحيط الهندى من ناحية الجنوب . وكانت حضرموت على اتصال بحرى مباشر بكل من الهند وشرق افريقيا ، بينما تحكمت معين فى زمام طريق التجارة الى الشمال وكان هناك اتصال تجارى مباشر بين الاقليمين ، وفى النقوش المعينية من قرنوا أو قرنوا (اى معين) ويثل (اى براقش) - كلاهما من مدن الجوف - اشارات تدل على وجود علاقة خاصة كانت تقوم فى وقت من الاوقات بين معين وحضرموت ، بل لعل هذه العلاقة ارتبطت بنشاط التجارة العالمية لمعين منذ عام ٤٠٠ ق م تقريبا ، اذ وجدت أسرة حكمت المنطقتين معا منها «صدق ايل» ملك حضرموت والذى حكم معين ايضا - وارتباط معين وحضرموت ارتباطا تجاريا وسياسيا ، كان بهدف السيطرة على تجارة البخور وخاصة فيما بين القرنين الرابع والثانى ق م .

أما عن علاقة معين بسبا ، التى كان نفوذها وسلطانها فى تزايد مستمر خلال القرنين الثانى والاول ق م ، فهناك نقش معروف من مدينة يثل (براقش) ذكر فيه اسم معين واسماء آلهتها واسماء ملوكها وذكر فيه اسم سبا وملوكها . ولعل هذا يدل على أن معين كانت لا تزال قائمة ، ولم تكن قد أدمجت بعد فى الدولة السبئية ، ويستدل من هذا النقش أيضا أن أسرة سبئية قد اتخذت مركزا تجاريا لها فى بلدة يثل المعينية مما يشير الى تشابك النشاط التجارى بين تجار معين وسبا فى المرحلة الاخيرة من تاريخ معين المستقلة ، اى خلال القرن الاول ق م ، ثم ازداد شأن سبا فى الوقت الذى

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

ضعفت فيه معين وازداد انقسامها الى عدد من حكومات المدن المستقلة ،
حتى استقطعت سببا في النهاية ان تبتلعها واحدة بعد الاخرى .

ومن اهم المدن المعينية مدينة «قرناو» العاصمة ، وهي تقع في شرق
الجوف ، وقد بنيت في هيئة مستطيلة ، وكانت مساحتها صغيرة نسبيا تبلغ
نحو مائة ألف متر مربع ، وسورت بسور ضخيم ذي مدخلين ، وبنى فوق
المداخل ابراج حجرية لحمايتها ، ولقد بقى جزء من البرجين اللذين
يحفان بمدخلها الشرقي . ويوجد بجانب العاصمة معبد كبير ورد اسمه في
النصوص المعينية وهو معبد «رصف» ولا زالت توجد بعض أعمدته ونقوشه
وزخارفه (١) .

ومن المدن الاخرى في معين مدينة «ياثل» (براقش) وتدور حول
تسمية براقش العديد من القصص ، فرأى البعض أنها سميت بذلك نسبة الى
كلبة عرفت ببراقش ، وزعم بعض اخر أنها امرأة ، وهي ابنة ملك قديم ،
ذهب والدها للحرب ، وترك لها مقاليد الحكم ، فشيدت مدينة براقش
ومعين ليخلد اسمها ، فلما عاد والدها غضب وأمر بهدمها ، ورأى آخرون
أنها سميت باسم امرأة لقمان بن عاد . «كمنهو» (خربة كمنه) ، «نشان»
(خربة السوداء) ، «نشق» (خربة البيضاء) .

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

الفصل الخامس

دولسة حضر مسوت

دولة حضرموت

تقع حضرموت الى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب وهى تشغل منطقة واسعة جمعت بين الجبال العالية والوديان العميقة ، وكان واديهما مجرى مائيا ضخما خلال العصور المطيرة القديمة ، وتجرى فيه بضعة انهار صغيرة منها نهر ميفع الذى يبدو أن له صلة قديمة باسم مدينة «ميفعة» أقدم عواصم حضرموت (١) .

وفيما يتصل باسمها ، فقد تردد اسمها فى كتابات اليونان والرومان مع شئ قليل أو كثير من التغيير والتحريف ، فورد Chatromotitae و Hadrarnyta ، أما عند الاخباريين ، فقد اءت ١٠٠ «حضرموت» ابنا من ابناء يقظان ، واعتمدوا فى ذلك على رواية «التوراة» . وقد وصف صاحب كتاب «الطواف حول البحر الارتيرى» سواحل حضرموت الجنوبية بأنها مناطق موبوءة يتجنبها الناس ، ومن ثم فلا يجمع التوابل واللبان منها الا العبيد أو المجرمين الذين صدرت ضدهم أحكاما صارمة . ومن الواضح أن هذا التفسير يعتمد على المعنى الظاهر من المقطع الثانى للكلمة وهو «موت» وربما كان لذلك صلة بالمعنى العبرى للكلمة «دار الموت» ، ومن ثم فقد قيل اسم حضرموت فى التوراة «حاضرميت» .

ويقدم «ياقوت الحموى» تفسيراً آخر لهذا الاسم ، يعتمد على رواية التوراة يذكر فيه أن حضرموت اسما لرجل هو «عامر بن قحطان» وأنه كان اذا حضر حربا أكثر فيها من القتل ، ومن ثم فقد سمي بحضر موت ، وهناك تفسير آخر لها ، انها سميت على اسم «حضرموت بن قحطان» الذى نزل هذا المكان فسميت به ، فهو اسم موضع ، واسم قبيلة (٢) .

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٢) انظر : محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٢٣٥ وما بعدها .

ويقدم استاذنا الاستاذ الدكتور مصطفى العبادي تفسيراً آخر لهذه التسمية ، فهو يذكر ان اسم حضرموت نسبة لاحد الآلهة السامية القديمة وهو «موت» صنو الاله «ايل» وخصم الاله «بعل» في اساطير اوجاريت ، باعتبار ان موت اله العقم والعالم السفلى الذي حاربه بعل اله الخصب والنماء(١) .

وفيما يتصل بالتحديد الزمني لعصر دولة حضرموت ، فليس هناك اتفاق على بدايته او نهايته ، فهناك من يرجع بدايته الى نهاية الالف الثانى قبل الميلاد ، بينما يرجعه البعض الآخر الى القرن الخامس قبل الميلاد .

ويستدل من النقوش التى كشف عنها بعض الامور الداخلية ، وهى توضح كذلك صلات حضرموت بالدول المحيطة بها فى ذلك الوقت . ومن هذه الاصلاحات الداخلية التى ورد ذكرها ، نقش يخص احد كبار الموظفين وهو «شكم سلحان بن رضوان» ، وفيه يذكر انه كلف ببناء سور وباب وتحصينات لحصن «قلت» الذى يشرف على وادى تقطعه الطريق القادمة من مدينة «حجر» والمؤدية الى ميناء «قنا» ، فضلا عن انشاء اسوار وحواجز فى ممرات الوادى الرئيسية لحماية منطقة حجر من اى غزو اجنبى ، ولاسيما غزو الحميريين الذين كانوا يهددون حضرموت ، ويتدخلون فى شئونها . ويذكر ان هذه الاعمال قد تمت فى ثلاثة اشهر ، وقام شكم سلحان كذلك ببناء سد فى وادى البنة ، وكان ارتفاع هذا السور يبلغ حوالى سبعة امتار ، وبالإضافة الى ذلك فقد انشأ استحكامات ساحلية لحماية البر من اى هجوم بحرى . ويرى بعض الباحثين ان هذه الاستحكامات قد تم تشييدها فى اواخر القرن الخامس او اوائل القرن الرابع قبل الميلاد(٢) .

ويرجح من بناء هذه الاستحكامات ان دولة حضرموت كانت تعاني فى

(١) مصطفى العبادي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (محاضرات) ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٧٤

(٢) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

ذلك الوقت من هجمات الحميريين عليها ، ومن ثم فقد لجأت الى سد الاودية
بجدر حصينة قوية حتى يمكنها التحكم في المرور في الوادى .

ومن النقوش الهامة التى وصلتنا من دولة حضرموت ، وتوضح صلاتها
الخارجية بجيرانها نقش يرجع الى عهد الملك «العزىلط» ملك حضرموت ،
وقد دون هذه النقوش رجلان من اشراف حمير بعث بهما ملك سبا وذى ريدان
للمشاركة فى الاحتفال بتتويج ملك حضرموت فى حصن انود ، كما وردت
كتابات اخرى سجلها الملك الحضرمى نفسه ذكر فيها «العزىلط» ملك
حضرموت ، ابن عم ذخر ، سار الى حصن انود ، ليتلقب بلقبه (١) .

ولا نعرف تاريخ نشأة هذا التقليد فى حضرموت ، ولا السبب الذى من
أجله اختير حصن انود لهذا الغرض . فربما كان وجود المبعوثين الحميريين
دليلا على ان العلاقات بين حضرموت وسبا كانت ودية ، ومن ثم فقد ارسل
ملك سبا وذى ريدان مبعوثين لتهنئة حليفة وصديقه ملك حضرموت بمناسبة
تتويجه . الا انها من ناحية اخرى ، قد يستدل من وجود هذين المبعوثين
ان ملك حضرموت انما كان يتولى سلطانه برضى من ملك سبا .

وفيما يتصل بالتتويج عن حصن انود ، فربما كان هناك دافعا دينيا
وراء ذلك ، ولقد استمر هذا التقليد الى حوالى عام ٢٠٠ م .

ومن النقوش التى تلقى ضوءا على سياسة حضرموت الخارجية كذلك ،
نقشا يسجل استقبال «العزىلط» لوفود من الهند ، وتدمير ، ومن اليراميين ،
وسجل نقش آخر مرافقة عشر نساء قريبات للملك الى حصن انود . وتشير
هذه النقوش عن وجود علاقات ودية بين حضرموت وهذه المناطق ، ومن
ناحية اخرى ، فاذا كان المقصود من قريش هنا المعروفة بمكة ، فان هذا
يعد اقدم ذكر لها فى وثيقة مدونة .

ومن الناحية الدينية ، فلقد كان القمر هو الاله الرئيسى وأطلقوا عليه
التسمية «سين» وهو نفس الاسم الذى أطلق عليه فى اكبر وبابل بالعراق

(1) Philpy, J. B., Sheba's Dughters, London, 1939, pp. 449-450.

القديم ، وانتشرت معابد «سبن» في العاصمة شبره وكذلك في المدن الحضرية الكبيرة (١) .

واذا تحدثنا عن اهم مدن حضرموت ، فمما لا شك فيه ان مدينة «شبره» العاصمة كانت من اهم مدن حضرموت ، ون اهم آثارها التي كشف عنها بقايا المعابد والقصور ، فضلا عن بقايا السدود التي كانت مقامة على وادي شبره لحصر مياه الامطار والافادة منها في رى المناطق الخصبة .

ومن النقوش التي وصلتنا وتتصل بمدينة شبره ، نقش تحدث فيه صاحبه وهو «يدع آل بين بن رب شمس» وذلك حوالى عام ٢٠٠م ووصف نفسه انه من احرار يهبار ، وانه عمر مدينة شبره واقام فيها ، وبنى معبدها من الحجارة بعد الخراب الذى حل بها ، وانه احتفالا بهذه المناسبة ، قد أمر بتقديم القرابين في حصن أنود فذبح ٣٥ ثورا و٨٢ خروفا و٢٥ غزالا وثمانية فهود .

ولم يورد النقش سبب هذا الخراب الذى حل بمدينة شبره ، فهل كان ذلك نتيجة تدخل خارجى من سبا ، وان المدينة قد عانت من التدمير في هذا الخراب ، أو انه كان نتيجة ثورة داخلية ، وان «يدع آل بين» كان ثائرا على الملك الشرعى في حضرموت ، وان الحرب قد انتهت بزوال الاسرة الملكية السابقة ، وتوقيع «يدع آل بين» ملكا على حضرموت ، وانه كتب على هذه المدينة ان تلاقى الامرين في هذه الحرب الاهلية .

ومن مدن حضرموت كذلك مدينة «ميفعة» العاصمة القديمة لحضرموت ، وتشير النصوص الى تحصينها وتسويرها واقامة الابراج حولها لصد الغزاة عنها ، ومنها كذلك مدينة قنا وهى ميناء حضرموت الرئيسى ، وهو يقع الى الشرق من عدن . ومن هذه المدن ، مدينة «مذب» أو «مذاب» والتي اشتهرت بمعبدتها الذى خصص لعبادة اله القمر «سين» (٢) .

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٢) انظر في مدن حضرموت .

جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ - ١٦٦ ، محمد بيومى مهران ،

المرجع السابق ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ .

وأما متى انتهت دولة حضرموت ، واصبحت جزءا من مملكة سبا وذي
ريدان ، فهناك من الباحثين من يرى ان ذلك كان في عام ٢٩٠م ، ويرى
آخرون انه كان بعد عام ٣٠٠م في عهد الملك «شمر يهرعش» ، بينما يذهب
فريق ثالث الى انه كان في القرن الرابع الميلادي .

الفصل السادس

دولة قتيبان

دولة قتبـان

يقع اقليم قتبـان في جنوب اليمن بين حضرموت شرقا واوسان غربا ،
وهى مثلهما تشرف جنوبا على بحر العرب أو المحيط الهندي ، وتتصل
شمالا بالمرتفعات اليمنية ، وتقع في تلك المرتفعات عاصمتها «تمنع» وقد
أشار بعض الكتبة الكلاسيكيين من أمثال «ثيوفراستس» و «سترابو»
و «بلينى» وغيرهم الى القتبانيين ، أما المصادر العربية فليس فيها شيء
يستحق الذكر عن قتبـان ، سوى أنها موضع من نواحي عدن ، وانهم من
قبائل حمير - ويبدو أن هذا الخلط بينهم وبين حمير يرجع الى ضعف قتبـان
واندماجها بعد فقد استقلالها في حكومة سبا ، وهى التى يطلق عليها
المؤرخون اسم (حمير) .

وقد تميزت الكتابات القتبانية بكثرة ماورد فيها من نصوص رسمية
تتعلق بالضرائب أو القوانين أو التجارة ، ومع ذلك فإن غالبيتها قد كتب
في اغراض شخصية ، ومن ثم فهى لا تفيد في استخراج تاريخ منها .

وفيما يتعلق بتعيين مبدأ أو نهاية مملكة قتبـان فقد أرجع «هومل» (١)
تاريخها الى ما قبل سنة (١٠٠٠) قبل الميلاد ، وذهب (ملاكر) الى أن
ابتداء حكم قتبـان كان في حوالى عام ٦٤٥ ق م ، وأن نهاية استقلالها كان
في القرن الثالث قبل الميلاد (٢) . ويرى «جلاسر» أن نهاية هذه الدولة كانت
بين (٢٠٠) و (٢٤٠ ق م) (٣) ، وذهب «ريكنس» أن نهاية مملكة قتبـان
كانت في حوالى السنة (٢١٠) أو (٢٠٧) (٤) للميلاد .

-
- (١) فريتز هومل ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ - ١٠٤ .
(٢) BASOR, 119, 1950, p. 3.
(٣) Glaser, E., Die Abessinier in Arabien and Africa, p. 114.
(٤) انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

هذا وقد كان حكام قتيبان الاوائل يلقبون انفسهم باللقب الذى تلقب به
حكام سبا وهو لقب «مكرب» ، وتترجم هذه الكلمة «مقرب» اى التقرب الى
الالهة - فهو اذن كتابة عن الكاعن الحاكم الذى يحكم باسم الالهة التى
يتحدث باسمها - ثم تلى ذلك ان تلقب حكام قتيبان بلقب «ملك» عندما
ازدادت سلطاتهم وتجاوزت حدود المعبد .

ومن قدماء مكربى قتيبان - المكرب (سمة على وتر) وقد عثر على
كتابات من عهده كتبت بشكل حلزوني، وهناك كذلك ابنه (هوف عم يهنعم)
وجاء بعده (شهر يجل يهرجب) و (اب عم) .

• ويحاول بعض الباحثين ان يقسموا تاريخ قتيبان الى ثلاث فترات ،
تختلف الواحدة منها عن الاخرى ، وأهم حكام الفترة الاولى «يدع اب
ذبيان» (١) بن شهر، وقد حكم فى الفترة (٧٥٠ - ٧٣٥ ق م) فى رأى البعض،
وكان أول من حمل لقب ملك بجانب لقب مكرب - وربما كان فى بادىء الامر
كاهنا ، ثم حمل لقب ملك ، ثم اللقبين معا ، وأن اقتصر فى الفترة الاخيرة
من حكمه على لقب ملك ، على اساس انه اللقب الرئيسى لحكام قتيبان . وقد
عثر على عدد من الكتابات القتيبانية ، ورد فيها اسم هذا الملك . وقد ورد فى
احداها قيام هذا المكرب بعمل ثغرة فى الجبل ليمر منها الطريق المار فى
الجبل من مكان الى مكان . وقد اشترك فى هذا العمل الى جانب «يدع اب
ذبيان» ، شعب قتيبان وقبائل اخرى غير قتيبانية هى اوسان وكجد ودهس ،
وفى هذا دلالة على وجود فن هندسى راق عند العرب الجنوبيين فى هذا العهد .

ويرى بعض الباحثين أن ملك قتيبان كان قد توسع فى عهد (يدع اب
ذبيان) هذا فصار يشمل كل (اوسان) و قتيبان ومراد ، حتى بلغ حدود
سبا . ولحماية ارضه اقام حواجز وفتح طرقا فى الهضاب والجبال ليكون
فى امكان جيشه اجتيازها بسهولة فى تحركه لمقاتلة اعدائه . وتعبيرا عن

(١) انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ وما بعدها ،
فؤاد حسنين ، المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

فتوحاته هذه في شنتال وفي جنوب قتيان استعمل جملة (أيمنن وأشامن) أي (الجنوبيون والشماليون) وهو لقب يعبر عن هذا التوسع الذي تم على يديه .

كذلك قام الملك «يدع اب ذبيان» ببناء حصن «بوم» تقريبا وتوددا .
لآلهة قتيان . وينسب الى عهد هذا الملك وثيقة على جانب كبير من الاهمية ، وذلك لانها تظهر لنا اصول التشريع وكيفية اصدار القوانين عند العرب الجنوبيين قبل الميلاد ، وهي توضح لنا أن الملك هو المرجع الاعلى للدولة ، فهو وحده يملك حق اصدار القوانين ونشرها والامر بتنفيذها ، والى جانبه كان هناك مجالس مسماة بـ (المزود) وتتكون من ممثلى المدن ومن رؤساء القبائل والشعاب ، وهي التى تقترح القوانين وتضع مسودات اللوائح ، فاذا وافقت المجالس عليها عرضتها على الملك لامضائها ونشرها بصورة امر ملكى ، ليطلع الناس على احكام الامر الملكى ويعملوا به . وقد احتوت الوثيقة السالفة الذكر على قانون فى عقوبات القتل العمد أو القتل الخطأ غير المتعمد وفى العقوبات التى يجب أن يعاقب بها من يصيب انسانا بجرح أو جروح قد تحدث آفات وعطلا فى الشخص . وتعتبر هذه الوثيقة الهامة التى ترجع الى عهد الملك «يدع اب ذبيان» من الاوامر التى اصدرها الملك فى النصف الاول من القرن الرابع ق م (١) .

وورد اسم ملك آخر من ملوك قتيان يدعى (شهر هلل بن يدع اب) فى قانون اصدره للقتبانيين المقيمين بمدينة «تمنع» أى عاصمة قتيان ، ومن يقيم خارجها ، وذلك لتنظيم التجارة ، ولتعيين حقوق الحكومة فى ضرائب البيع والشراء ، والاماكن التى يكون فيها الاتجار . وفى هذا القانون مصطلحات تجارية مهمة ترينا مبلغ تقدم القتبانيين فى اصول التشريع التجارى فى ذلك الوقت .

أما الملك «يدع اب يحل» القتبانى ، فقد نشبت فى عهده حرب بين سبأ وقتبان ذكرت فى احدى النصوص التى ورد بها ان قبائل سبأ ثرب وتمردت على ملك قتيان ولكنه تغلب عليها وفرض عليها الجزية واخذ غنائم منها .

(١) محمد بيومى مهران - المرجع السابق ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

وجاء في الكتابات القديمة اسم ملك آخر من ملوك قتبان وهو الملك (شهر غيلن بن أبشم)^(١) وقد اصدر امر ملكى لجباية الضرائب من قبيلة (كحد) كذلك فقد احرز هذا الملك نصرا على حضرموت . ويتبين من ذلك ان قتبان كانت في عهد هذا الملك قوية . وقد عثر على عدد من الكتابات القتبانية ورد فيها اسم الملك (شهر يحل بن يدع أب) وجاء بها امر ملكى فى كيفية جمع الجباية من طائفة معبد الاله فى أرض لبخ - ويظهر من هذا المصطلح ومن مصطلحات مشابهة اخرى ان العرب الجنوبيين كانوا يؤلفون طوائف تنتمى الى اله من الآلهة تتسمى به وتقيم حول معبده ، وربما كانت تتعاون فى استغلال الارض وتقدم حقوق الحكومة منها الى الجباة الذين يجبون تلك الحقوق .

وقد ورد فى احدى الكتابات القتبانية ان حكومة معين كانت خاضعة لحكومة قتبان فى عهد الملك القتبانى (شهر يحل يهر جب) ، ويرى بعض المؤرخين ان ذلك كان حوالى سنة ٨٢٠ ق م ، وان كانت معين قد احتفظت باستقلالها الذاتى ، اذ بقى ملوكها يحكمونها فى ذلك العهد ، ولدينا نص مهم طويل ، هو قانون اصداره (شهر يحل يهر جب) باسمه وباسم شعب قتبان لقبائل قتبان فى كيفية الاستفادة من الارضين (المعينية والقتبانية) واستثمارها .

وورد اسم ملك آخر من ملوك قتبان ويدعى (نبط بن شهر هلال) وذكر فى عهده حرب اشتركت فيها عدة جهات ، وهى حرب وقعت فى عهد هذا الملك ، ورغم انه قد تلقب فى الكتابات بلقب ملك ، الا انه كان فى الواقع خاضعا لحكم حكومة حضرموت ، وقد جعل المؤرخين زمان حكمه فى حوالى السنة (١٢٠ م) ، وجعلوا نهاية حكم ابنة فى حوالى السنة (١٤٠) بعد الميلاد . ومعنى ذلك ان الحرب المذكورة قد وقعت فى خلال هذه السنين .

ويتفق جميع الباحثين فى دراسة تاريخ الحكومات العربية الجنوبية على ان السبئيين هم الذين قضوا على استقلال حكومة قتبان ، وقد اختلفوا فقط .

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٩٨ وما بعدها .

فى تحديء الوقت الذى تم فيه ، فبينما يرى البعض ان ذلك كان فى حوالى عام ٥٤٠ ق.م ، يرى البعض الاخر ان سقوط مءىنة تمنع كان فى حوالى ٥٠ ق.م . ولا يعنى سقوط تمنع وخرابها وفقدان القتبانيين لاستقلالهم ، ان الشعب القتبانى قد زال من الوجود ، وان اسمه قد اندثر واختفى ، فاننا نرى ان الجغرافى الشهير (بطليموس) يذكر اسمهم فى جملة من ذكرهم من شعوب تقطن فى جزيرة العرب .

أما عن أهم مءن قتبان، فهى العاصمة (تمنع) وتعرف حءىثا بـ(كحلان) وبـ(هجر كحلان) فى (واءى بىحان) فى منطقة عرفت قءىما بخصبها وبكثرة مياها وبساتينها ، وقد تعرضت لاءءاء عنيفة انتهت بخرابها بالحريق . أما عن الاسباب التى أءت الى حدوث هذا الحريق الذى ءمر المءىنة فهى غير معروفة لنا ، وقد أءت فى النهاء الى ءمار تمنع وانتقال الحكم منها الى موقع آخر يءعى (حرب) أو (حرب) التى قامت بها أسرة جءىءة اتخذوا لقب ملك وضربوا عملة ذهبية بأسمائهم(١) .

وفى مجال العمارة أبءى القتبانيون اهتماما بالغا ببيوت الآلهة ومعابءها ، وفى هذا تعبير عن عقىءتهم الراسخة وولائهم الءائم لها، ولا يخلو نقش مهما كانت مناسبته إلا وقد ذكرت فيه العءىء من الآلهة . ايماننا منهم بوقوف الآلهة معهم فى احوال السلم والحرب ، ومن ثم كان من الطبيعى ان يقوم اهل قتبان بأءاء واجباتهم نحو تلك الآلهة من صلاة وءعاء وشكر ورعاية لبيوتها ، وقد جاءت النقوش القتبانية مصءقة لكل ذلك . وهناك نقوش من عهد المكربين ، ورد فيها أسماء آلهة قتبانية هى (انبى) و (حوكم) و (عم) ، وورد فيها أيضا بناء معابد للآلهة على سبيل الشكر والءعاء لها لترعى السلم والامان للتجارة المسافرة على الطرق .

(١) ونءل فىلبس ، كنوز مءىنة بلقيس ، قصة اكشاف مءىنة سبا الاثرىة فى اليمن ، ترجمة عمر الءىراءى ، بىروت ، ١٩٦١ ، ص ١٠٥ وما بعءها .

الفصل السابع

دولة سبأ

دولة سبأ

حظيت دولة سبأ بأهمية خاصة بين الدول التي ظهرت في جند الجزيرة العربية ، ويرجع ذلك الى الصلة التي ربطت بين ملكة سبأ والنبى سليمان - عليه السلام - وورود اخبار هذه العلاقة في القرآن الكريم والتوراة . وتشير الادلة الاثرية التي كشف عنها في العراق القديم ورود اسم سبأ في النقوش الاشورية التي ترجع الى الملك الاشورى تيجلان بلامر الثالث في عام ٧٣٨ ق م الذى ذكر انه تلقى جزى السبائيين من الذهب والابل والتوابل ، واكد ذلك نص يرجع الى عهد الملك سرجون الثانى (٧٢١ - ٧٠٥ ق م) (١) وذلك في معرض الدول التي تؤدى اليه الجزية ، ويتجه بعض العلماء الى الاعتقاد بان هذا النص يشير الى قيام السبثيين بدفع الجزية عن تجارتهم في شمال جزيرة العرب ، حتى يسمح لهم بالمرور الى شواطىء البحر المتوسط ، وذلك نظرا لان سرجون الثانى لم يصل بفتوحاته الخارجية حتى اليمن . ويشير بعض العلماء الى ان كلمة Sabu = SA-Ba-A-A الواردة في أحد النصوص السومرية التي عثر عليها في لجش حوالى عام ٢٥٠٠ ق م تعنى سبأ ، واذا كان ذلك صحيحا ، اصبحت هذه النصوص السومرية أقدم نصوص تاريخية تصل اليها - حتى الآن - وفيها ذكر سبأ ، ويكون السبثيون بذلك أول شعب عربى جنوبى يصل ذكره اليها .

وقد اثار هذا النقش جدلا كبيرا بين العلماء ، فاتجه البعض الى الاعتقاد بان السبثيين المذكورين في النصوص السومرية كانوا يقيمون في بادية شمال بلاد العرب ومنها انتقلوا الى اليمن ، واختلفت الاراء كذلك بشأن زمن هذا الانتقال فاتجه البعض الى تحديده بالقرن الثانى عشر قبل الميلاد ، وأرجعه

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

البعض الآخر الى القرن الحادى عشر ، بينما أرجعه فريق ثالث الى القرن الثامن قبل الميلاد .

ولقد اشارت بعض كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان الى دولة سبا ، وكان المؤرخ اليونانى «ثيوفراستس» هو اول من اشار اليهم ، وقد اعتمد فى معلوماته التى ذكرها عن دولة سبا على ما سمعه من تجار الاسكندرية ومن البحارة الذين كانوا يجوبون البحر الاحمر ويصلون الى العربية الجنوبية وسواحل افريقية والهند ، ونظرا للاطماع السياسة للسيطرة على بلاد العرب ، فقد حاول الرومان الحصول بكافة الطرق على المعلومات المتصلة ببلاد العرب عن طبيعة أرضها ومواردها وحالة سكانها ومواطني الضعف لديهم ، واعتبروا هذه المعلومات من اسرار الدولة التى لا يجوز افشاؤها ، ولقد تم جمعها وخزنت فى الاسكندرية ، ولم يسمح الا لبعض الخاصة من العلماء بالاستفادة منها ، ولقد أدى ذلك بطبيعة الحال الى زيادة المعلومات عن بلاد العرب، ومحاولة تنقيتها من الشوائب وتوثيقها الى ابعد حد ممكن .

وفيما يتصل بالادلة الاثرية السبئية ، فاننا نعتد فى دراستنا لدولة سبا اعتمادا كبيرا على الكتابات السبئية التى عثر عليها فى مواضع متعددة من جنوب الجزيرة العربية وبخاصة فى الجوف مقر السبئيين ، الا أنه يؤخذ على الكتابات السبئية انها لم تتخذ تاريخا مطلقا كبداية للتاريخ ، وإنما أرخت الاحداث نسبة الى الاشخاص ، وبعض الاحداث الهامة ، وذلك مما يجعل عملية تحديد زمن هذه النصوص أمرا من الصعوبة بمكان ومع ذلك فلقد أمدتنا هذه النقوش بمعلومات لا بأس بها عن نظام الحكم وتتابع الحكام فى بعض الاحايين والاعمال الهامة التى قاموا بانجازها والاحداث الكبيرة التى حدثت فى عهودهم .

وفيما يتصل بالكتابات المقدسة ، فلقد اشار القرآن الكريم فى سورة سميت باسم «سبا» وهى السورة «٣٤» من القرآن الكريم ، الى ما كانت تتمتع به دولة سبا من نعيم ورخاء مقيم ، فقال جل من علا : «لقد كان لسبا فى مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له

بلدة طيبة ورب غفور» (آية رقم ١٥) ثم تتحدث آيات القرآن الكريم بعد ذلك عما أصابهم نتيجة اعراضهم ، من تعرضهم لسيل مدمر حطم كل شيء . انظر في ذلك قوله سبحانه وتعالى : «فاعرضوا فإرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خبط وائل وميء من سدر قليل» (آية رقم ١٦ من سورة سبا) .

واشار القرآن الكريم في سورة النمل الى قصة زيارة ملكة سبا لسليمان - عليه السلام - دون الاشارة الى اسمها . ومما جاء في ذلك قوله سبحانه وتعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدد أم كان من
الغائبين (٢٠) لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه
أو ليأتينى بسلطان مبين (٢١) فمكث غير بعيد
فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ

يقين (٢٢) انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من
كل شىء ولها عرش عظيم (٢٣) وجدتها وقومها
يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان
أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون (٢٤)
ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات
والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون (٢٥) الله
لا اله الا هو رب العرش العظيم (٢٦) قال سننظر
أصدقت أم كنت من الكاذبين (٢٧) اذهب بكتابى
هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا
يرجعون (٢٨) قالت يا ايها الملا انى القى الى
كتاب كريم (٢٩) انه من سليمان وانه بسم الله
الرحمن الرحيم (٣٠) ألا تعلوا على وأتوني
مسلمين (٣١) قالت يا ايها الملا أفتونى فى أمرى
ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون (٣٢) قالوا نحن

أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظري
ماذا تأمرين (٣٣) قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية
أفسدوها وجعلوا أمزة أهلها أذلة وكذلك
يفعلون (٣٤) واني مرسل اليهم بهدية فناظرة بم
يرجع المرسلون (٣٥) فلما جاء سليمان قال
أتمدونن بمال فما اتاني الله خير مما أتاكم بل أنتم
بهديتكم تفرحون (٣٦) ارجع اليهم فلناتينهم
بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم
صاغرون (٣٧) قال يا أيها الملأ أئكم يأتيني بعرشها
قبل أن يأتوني مسلمين (٣٨) قال عفريت من الجن
أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه
لقوى أمين (٣٩) قال الذي عنده علم من الكتاب
أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه
مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر

أم أكفر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه ومن كفر فان
ربي غني كريم (٤٠) قال نكروا لها عرشها ننظر
أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون (٤١) فلما
جاءت قيل أمكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا
العلم من قبلها وكنا مسلمين (٤٢) وصددها ما كانت
تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين (٤٣)
قيل لها ادخلي الصرح فلما رآته حسبتة لجة
وكشفت عن ساقها قال انه صرح ممرد من قوارير
قالت رب اني ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان
الله رب العالمين (٤٤)

صدق الله العظيم

ولقد وردت كلمة «سبأ» و «شبا» في التوراة ، ولكن كاتبى التوراة كانوا مترددين في نسبهم ، فهم مرة من الحاميين ، فلقد ورد في الآية السابعة من الاصحاح العاشر من سفر التكوين : «وينوكوش سبا وحويله وسبته ورعمه وسبتكا . وبنو رعمه شبا وددان» (١) . وورد كذلك في الآية التاسعة من الاصحاح الاول من اخبار الايام الاول : «وينوكوش سببا وحويله وسبتا ورعما وسبتكا . وبنمو رعما شبا وددان» . فلقد ذكروا في هذين الموضعين على انهم من كوش اى من الحاميين (٢) .

وهم مرة اخرى من الساميين ، فلقد ورد في الايات من ٢١ - ٢٨ من الاصحاح العاشر من سفر التكوين ما يشير الى ذلك : «وولد لسام ايضا بنون وهو ابو جميع بنى عابر اخو يافث الاكبر ، بنو سام عيلام واشور وازمكشاد ولود وارام . بنو ارام عوص وحول وجاثر وماش وارفكشاد ولد شالح وشالح ولد عابر ، وولد لعابر ابنان اسم احدهما فالج لانه في ايامه انقسمت الارض واسم اخيه يقطان ، ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح ، وهدورام واوزال ودقله ، وعوبال وابيمائيل وشبا» (٣) .

ووصفت ارض «شبا» في التوراة بانها كانت تصدر اللبان ، وان تجارها كانوا يقومون بالتبادل التجارى مع العبرانيين ، انظر في ذلك ما جاء في الآية العشرين من الاصحاح السادس من نبوة ارميا : «لماذا يأتينى اللبان من شبا وقصب الذريرة من ارض بعيدة» (٤) . وما جاء في الايات ٢٢ - ٢٤ من الاصحاح السابع والعشرين من نبوة حزقيال وجاء فيها :

«تجار شبا ورعمه يتجرون معك وبافضل كل طيب وبكل حجر كريم وبالذهب اقاموا اسواقك ، حاران وكنه وعادان وتجار شبا واشور وكلمد يتجرون معك ، هؤلاء يتجرون معك بالانسجة الفاخرة وبأردية من

(١) تكوين : ١٠ ، ٧ .

(٢) اخبار الايام الاول ، ١ : ٩ .

(٣) تكوين ، ١٠ : ٢١ - ٢٨ .

(٤) ارميا ، ٦ : ٢٠ .

السمنجونى والوشى وبالنقائس من الثياب المبرمه المشدودة بالخيال المعكومة
بين بضائعك» (١) .

ولقد اشارت التوراة الى قصة سليمان - عليه السلام - مع ملكة سبا ،
ويلاحظ ان التوراة لم تذكر اسم ملكة سبا . ولقد وردت هذه القصة فى الايات
من ١ - ١٠ ، ١٣ من الاصحاح العاشر من سفر الملوك الثالث وجاء فيها :
«وسمعت ملكة سبا بخبر سليمان واسم الرب فقدمت لتختبره باحاجى ،
فدخلت اورشليم فى موكب عظيم جدا ومعها جمال موقره اطيابا وذهبا
كثيرا جدا وحجارة كريمة واتت سليمان وكلمته بجميع ما كان فى خاطرها ،
ففسر لها سليمان جميع كلامها ولم يخف على الملك شئ لم يفسره لها ،
ورأت ملكة سبا كل حكمة سليمان والبيت الذى بناه ، وطعام موائده ،
ومسكن عبيده وقيام خدامه ولباسهم وسقائه ومحرقاته التى كان يصعدها فى
بيت الرب فلم يبق فيها روح بعد ، وقالت للملك حقا كان الكلام الذى يلقى
فى ارضى عن اقولك وعن حكمتك ، ولم اصدق ما قيل لى حتى قدمت وعايينت
بعملى فاذا انى لم اخبر بالنصف فقد زدت حكمة وصالحا على الخبر الذى
سمعت ، طوبى لرجالك طوبى لعبيدك هؤلاء القائمين دائما بين يديك
يسمعون حكمتك ، تبارك الرب الهك الذى رضى منك واجلسك على عرش
اسرائيل فانه لاجل حب الرب لاسرائيل الى الابد ، اقامك ملكا لتجرى
الحكم والعدل ، واعطيت الملك مائة وعشرين قنطار ذهب واطيابا كثيرة
وحجارة كريمة ولم يرد بعد فى الكثرة مثل ذلك الطيب الذى وهبته ملكة
سبا للملك سليمان واعطى الملك سليمان ملكة سبا كل بغيتها التى
سالتها فوق ما اعطاها من العطايا على حسب كرم الملك سليمان وانصرفت
وذهبت الى ارضها هى وعبيدها» (٢) .

وتشير احداث هذه القصة الى معرفة العبرانيين بالسبئيين ، وان اختلفت
وجهات نظر المؤرخين فى مكان دولة سبا التى ورد ذكرها فى احداث هذه
القصة ، فاتجه بعض الباحثين الى الاعتقاد بانها كانت مملكة عربية صغيرة
فى اعالى جزيرة العرب كان سكانها من السبئيين القاطنين فى الشمال .

(١) حزقيال ، ٢٧ : ٢٢ - ٢٤ .

(٢) الملوك ثالث ، ١٠ : ١ - ١٠ ، ١٣ .

ورغم الاختلاف في تفاصيل كيفية تعرف سليمان - عليه السلام - بملكة سبا والهدف من الزيارة بين ما ورد في القرآن الكريم والثوراة ، الا انها تشير الى معرفة العبرانيين بالسبئيين والى وجود هذه المملكة في القرن العاشر قبل الميلاد .

اصل السبائين :

اختلف المؤرخون في اصل السبئيين ، فتذكر الروايات العربية ان سبا من قحطان ، ويسمونهم العرب المتعربة ، تمييزا لهم عن العرب الذين كانوا قبلهم ، وتشير هذه الروايات ان والده هو يشجب بن يعرب بن قحطان ، وتذكر ان من اولاده قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب قبل الاسلام وبعده ، ونسب اليه نسله من السبئيين ، وقد ذكروا ان اسمه الحقيقي هو «عبد شمس» واما «سبا» فهو لقب تلقب به ، وذهبوا في سبب هذه الكنية مذاهب متعددة ، فقالوا انه لقب به لانه اول من سبا ، اى سن السبى من ملوك العرب ، واتجه البعض الاخر الى احاكة الاساطير حوله فقالوا انه بنى مدينة «سبا» وسد مأرب ، وغزا الاقطار وبنى مدينة عين شمس في مصر ، وهى امور لاتعدو ان تكون خيالا في مخيلة كاتبها(١) .

ولم يعثر في النصوص العربية الجنوبية التى كشف عنها عن شىء يتصل بشخص يدعى سبا او اسمه واعماله ، وكل ما ورد في هذه النقوش يشير الى ان سبا هو اسم شعب كون له مملكة وكان له حكامه ونظامه السياسى والادارى والاقتصادى ، وعلاقاته الخارجية .

ويتجه بعض العلماء الى الاعتقاد بان السبئيين كانوا في الاصل شعب بدوى يتنقل بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها ، ثم استقر في بلاد اليمن فيما يقرب من عام ٨٠٠ ق م ، واخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب جيرانهم من المعينيين والاوسانيين والحضارمة ، وعملوا بالتجارة

(١) انظر : الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الاول ، ص ٢١١ ، ابن الاثير (عز الدين أبو الحسن على الشيبانى) ، الكامل في التاريخ ، الجزء الاول ، ص ٢٣٠ .

وسيطروا على الطرق التجارية الرئيسية التي تصل ما بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها وبلاد الشام ، وكان لذلك اثره الكبير في ازدهار دولة سبأ ونموها بين ممالك العرب الجنوبية (١) .

مراحل التاريخ السبئي :

يمكن بفضل النقوش السبئية تقسيم عصر دولة سبأ الى عدة مراحل وذلك على اساس تغير لقب حكام سبأ ، حيث تغير هذا اللقب عدة مرات ، وفي كل مرة كان يتغير فيها كان يحدث تغيير في نظام الحكم ، وتدخل سبأ في عهد جديد يختلف عنوانه عن العهد السابق ، ولقد امكن تحديد مراحل اربعة رئيسية مرت بها سبأ ، وهذه المراحل هي :

١ - مرحلة المكارية : وهي مرحلة كان يتلقب فيها حاكم سبأ بلقب مكرب ، اي المقرب من الالهة ، أو الوسيط بين الالهة والناس ، وقد اتخذ المكارية من صرواح عاصمة لهم ثم نقلوها الى مأرب ، ويمتد عصر المكارية من عام ٨٠٠ - ٦٥٠ ق م (٢) .

٢ - مرحلة ملوك سبأ : وهي المرحلة التي تلقب فيها حكام سبأ بلقب «ملك سبأ» وتمتد هذه المرحلة حتى عام ١١٥ ق م أو ١٠٩ ق م .

٣ - مرحلة ملوك سبأ وذى ريدان (١١٥ - ٣٠٠ م) .

٤ - مرحلة ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن واعرابها في المرتفعات وفي التهامم . وهو آخر دور من ادوار الحكم في سبأ (٣٠٠ م - ٥٢٥ م) (٣) .

١ - سبأ في عهد المكارية :

اتخذ حكام سبأ في اقدم عهودهم لقب «مكرب» وذلك كما ورد في

(1) Burton, R. F., Royal Inscriptions From Sumer & Akkad.

(٢) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

الكتابات السبئية وتشير اللفظة على التقرب من الآلهة ، فكان «المكرب» هو المقرب أو الوسيط بين الآلهة والناس ، وغلب على حكام سبا في هذه المرحلة الصفة الدينية (١) .

وفيما يتصل بالتحديد الزمني لحكم المكارية فهناك عدة آراء تدور حول هذا الامر ، فهناك من يرى ان بداية حكم المكارية ترجع الى القرن العاشر او التاسع قبل الميلاد ، بينما هناك رأى ثان يرى ان بداية حكمهم كان في بداية عام ٨٠٠ ق م واستمر عهدهم لمدة قرنين ونصف اى حتى حوالى عام ٦٥٠ ق م بينما رأى فريق ثالث ان مدة حكم المكارية قد استمرت ثلاثة قرون وذلك من حوالى ٧٥٠ ق م وحتى ٤٥٠ ق م .

ونلاحظ من ذلك اختلاف آراء المؤرخين حول بداية عهد المكارية وكذلك نهاية هذا العهد ، فبينما يرجع البعض بدايته الى القرن العاشر ق م ، نجد البعض الاخر يرجع بدايته الى اواسط القرن الثامن ق م ، وبينما يجعل البعض نهاية هذا العهد في منتصف القرن السابع ق م ، نجد البعض الاخر يجعلها في اواسط القرن الخامس ق م (١) . ويرجع ذلك - كما سبقت الاشارة - الى عدم وجود تواريخ محددة وثابتة نستطيع التاريخ على اساسها لدولة سبا ولعدم وجود تواريخ ثابتة تثبت حكم كل ملك بصورة قاطعة .

ومن أقدم مكارية سبا الذين وصلتنا معلومات عنهم المكرب «سمه على» وقد وصلنا من عهده بعض الكتابات المكتوبة بالطريقة الحزونية ، ولكن هذه الكتابات كانت قصيرة وناقصة ، ولقد ورد فيها أسماء بعض المعبودات مثل : عثتر والمقه وذات حميم .

ولقد اختلفت آراء العلماء حول حكام سبا وترتيب تتابعهم في الحكم وكذلك سنوات حكمهم ، وحاولوا ترتيبهم على اساس تقدير عمر البقايا

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .
(٢) راجع في ذلك : جواد على ، المرجع السابق ، ص ٢٦٨ وما بعدها .
عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٥٥ ، محمد بيومي مهران ،
المرجع السابق ص ٢٧٣ وما بعدها ،

Phillpy, T. B., Op. Cit., p. 141.

الاثريّة التي تخلفت من عهودهم والطبقات الاثريّة المتخلفة فيها وكذلك على اساس دراسة نماذج الخطوط والكتابات التي وردت عنهم ، ويلاحظ في ذلك تباين آراء المؤرخين حول عددهم وتتابعهم ، ومن اشهر هؤلاء المكارية :

- سسمة على .
- يدع ايل ذريح .
- يثع امر وتر .
- يدع ايل بين .
- كرب ايل بين .
- يثع امر وتر .
- ذمر على وتر .
- يثع امر بين .
- ذمر على ينف .
- كرب ايل وتر .

سياسة سيا الداخلية في عهد المكارية

١ - بناء المعابد :

اهتم مكارية سيا ببناء معابد الالهة وتقديم القرابين لها ، وتشير نقوش المكارية الاوائل الى تشييدهم لمعابد الالهة في صرواح ومارب وغيرها من المناطق السبئية ، ولعل من أشهر هذه المعابد ، المعبد الذي شيده المكرب «يدع ايل ذريح» لاله المقه في مارب^(١) ، ويسمى هذا المعبد «معبد أوام» وهو يعرف حاليا باسم «محرم بلقيس» ، وهو يقع جنوب شرق مارب الحالية بحوالي اربعة كيلو مترات .

وفي محاولة لتفسير معنى التسمية الحالية للمعبد ، يذكر الاستاذ

(١) يتجة بعض الباحثين الى ان هذا المعبد كان موجودا قبل عهد «يدع ايل ذريح» وانه لم يكن الباني له كله ، بل قام ببناء بعض اجزائه فقط ، غير انه لم يعثر على اسم من قام ببنائه ، ومهما كان الامر ، فان اقدم اسم موجود في هذا المعبد هو لهذا المكرب ، ولهذا فانه ينسب اليه ، حتى تكشف لنا الحفائر التي تجرى في هذه المنطقة عن اسم بانيه .

الدكتور أحمد فخري^(١) أن كلمة «محرم» تعنى المكان المقدس للاله أو بعبارة أخرى «المعبد» . أما «بلقيس» فيرى المؤرخون العرب أنها ملكة سبا التي زارت سيدنا سليمان - عليه السلام - ويرون أن اسمها كان «بلقيس» أو «بلقمه» ويرجح علماء الساميات أن «بلقمه» هو الأرجح ، وربما كان اسم الاله «المقه» يدخل في تركيبه . أما اسم «بلقيس» الذي تكرر ذكره في كتب المفسرين المسلمين فلم يرد على الإطلاق بين الاسماء السبئية المعروفة ، وهناك احتمال بأن الاسم منقول عن العبرية التي نقلته بدورها عن اليونانية ومعناه «أمة» أو جارية .

وفيما يتصل بالتصميم المعماري لمعبد أوام محرم بلقيس^(٢) ، فيلاحظ أنه يكاد يكون بيضاوى الشكل ، ويوجد مدخلة الرئيسى في الناحية الشمالية ، ويوجد أمام المدخل بهو ذو أعمدة على جوانبه ، وبعد المدخل بحوالى عشرة أمتار تقوم ثمانية أعمدة كبيرة في صف واحد ، وذلك عدا الأعمدة الصغيرة . ويوجد في الجهة الشرقية من البناء هيكلًا صغيرًا من الحجر له أربعة أعمدة . وشيد السور الخارجى للمعبد من أحجار منحوتة ، وهى تتفاوت في أحجامها ، وقد زين أعلى السور ببعض الزخارف . وكان للمعبد باب جانبى آخر في الناحية الغربية وهو مواجه للمدينة القديمة ، وربما كان هناك طريق موصل بين الاثنين ، ومن المحتمل أن تكون هناك أبواب جانبية أخرى مغطاة الآن بالرمال .

وقام مكارية سبا بعد ذلك بترميم المعبد وتوسيعه ، ومن هؤلاء المكارية «يثع امر بين» الذى حكم في النصف الثانى من القرن السادس قبل الميلاد ، الذى سجل نقشا على الناحية الغربية من سور المعبد اشار فيه الى قيامه باتمام بناء المعبد . ولقد ظل هذا المعبد يؤدي وظيفته في عبادة الاله المقه مدة تناهز الالف عام ، حيث عثر على كتابات بالقرب من باب المعبد تشير

(١) أحمد فخري ، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ١٨٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٨٤ - ١٨٧ .

الى القيام ببعض الترميمات فيه ، وترجع هذه الكتابات الى القرنين الثالث والرابع الميلاديين .

وقام المكرب «يدع ايل ذريح» ببناء معبد للاله المقه ايضا في مدينة صرواح ، ولكن لا يمكن معرفة التصميم الاصلى بهذا المعبد ، وذلك نظرا لانه قد استخدم خلال العصور الوسطى كحصن ، فاستحدثت فيه مداخل وسدت منافذ وهدمت كثيرا من احجاره .

٢ - تشييد السدود :

اهتم مكاربة سبا بالاصلاحات الزراعية ، فعملوا على استصلاح الارض واستغلالها ، ومن اجل ذلك وجهوا اهتمامهم لبناء السدود لحجز المياه للاستفادة منها في اعمال الزراعة ، واقام العرب السدود لقلّة المياه في بلادهم فلم يدعوا واديا يمكن استثمار جانبيه بالماء الا وحجزوا سيله بسد ، فتكاثرت السدود بتكاثر الاودية حتى تجاوزت المئات . ولقد ذكر الهمذاني في يحصب العلو من مخاليف اليمن وحده ثمانين سدا ، والى ذلك اشار شاعرهم بقوله :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

وكانوا يسمون كل سدا باسم خاص به ، أو بنسبه الى البلد المقام فيه ، ومن اعظم هذه الاسداد في بلاد العرب واشهرها سد مارب^(١) . ومن أقدم النقوش التى وصلتنا عن سد مارب نقش من عهد المكرب «سمه على ينف» وشار فيه الى تصميمه لسد رحاب للسيطرة على مياه الامطار والاستفادة من السيول ، وهو جزء من مشروع سد مارب ، ويشير هذا النقش كذلك الى قيام هذا المكرب بثقب حاجز من الحجر ، وفتح ثغرة فيه لمرور المياه منها الى سد رحاب لتسيل الى منطقة يمران ، وكانت تغذيها مسایل وقنوان عديدة تأتي بالماء من حوض هذا السد .

(١) راجع : أحمد فخري ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ - ٢٠٣ ، عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٦١ - ٦٦ .

وتشير نقوش «سمه على ينف» وهي أقدم كتابات تصلنا عن سد مارب الى قيامه بأعمال عامة فيه ، الا انه لا يمكن القول انه هو مشيده ، فقد يكون تشييده قد بدأ من قبل حكمه وانه أتم هذا العمل ، ولكن نظرا للنقص الشديد في الوثائق المتصلة بهذا الموضوع يظل «سمه على ينف» هو أقدم المكاربة الذين نعرف عنهم قيامهم بتشبيد سد مارب ، وكان ذلك في اواسط القرن الثامن قبل الميلاد . ولقد سار على نهجه من جاء بعده من المكاربة في الاهتمام بسد مارب وتعلية جدرانها وترميمها واستحداث اضافات اليه .

ويعتبر سد مارب اعظم عمل هندسى قديم في الجزيرة العربية كلها ، ولقد حظى بكثرة ماورد عنه في اخبار العرب واشعارهم وذلك على سبيل العظة والعبرة لما اصاب سبا نتيجة انهياره ، ولقد اشار القرآن الكريم في سورة سبا الى ما اصاب سبا نتيجة حدوث سيل العرم ، فقال تعالى في كتابه الكريم : «لقد كان لسبا في مساكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات اكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لايات لكل صبار شكور» . الايات من ١٥ - ١٨ (١)

وسيل العرم الذى يشير اليه القرآن الكريم ، والذى كتب فيه المفسرون كثيرا ، وكان سبا في خراب المنطقة حدث في وقت ما بين أعوام ٥٤٣ ، ٥٧٠م ، اى قبيل مولد النبی عليه افضل الصلاة والسلام . ولكن بالرغم من ان حادث هذا السيل كان قريبا من البعثة المحمدية فان ما كتبه الشراح والمفسرون ملئ بالقصص الخيالية سواء كانت عن سبب تخريب السد

(١) سورة سبا ، الايات ١٥ - ١٨ .

وتهدمه أو عن الذين قاموا ببنائه، فقال بعضهم أن بانيه هو سبا بن يشجب، وقال غيرهم بناء لقمان بن عباد، وجعله فرسخا في فرسخ، وجعل له ثلاثين فتحة، إلى غير ذلك من المبالغات.

ولعل من أوثق روايات العرب عن سد مأرب ما ذكره أبى محمد الحسن ابن يعقوب الهمذاني في كتابه الاكليل، وكان قد شاهد انقاضه بنفسه في أوائل القرن الرابع للهجرة، وكان يقرأ خط المسند ويفهمه، فوصف انقاضه مع تطبيقها على ما جاء في القرآن الكريم، ولقد جاء في رواية الهمذاني (١) :

ذكر مأرب : وهى مسكن سبا الذى قال الله فيه : «لقد كان لسبا فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور» (٢) . وهى كثيرة العجائب . والجنتان عن يمين السد ويساره ، وهما اليوم غامرتان ، والغامر العافى ، وانما عفتا لما اندحق السد فارتفعتا عن ايدى السيول . ووجدت فى احدهما غريق اراك ، وفى اصله جذع نخلة أسود قد كبست باقيه السواقي ، فقال بعض من كان معى : لا اظنه الا من بقايا نخل الجنتين ، وما اظنه بقى من العصر القديم . وأما مقاسم الماء من مداخل السد فيما بين الضياع فقائمة كان صانعا فرغ من عملها بالامس . ورأيت بناء احد الصدفين وهو الذى يخرج منه الماء ، قائما بحاله على اوثق ما يكون ولا يتغير الا أن يشاء الله ، وانما وقع الكسر فى العرم وقد بقى من العرم شئ مما يصل الى الجنة اليسرى يكون عرض اسفله خمسة عشر ذراعا ، قال تبارك وتعالى : «فأعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط. وأثل وشئ من سدر قليل» (٣) قيل الخمط الاراك والاثل الطرفاء ، والسدر المعروف العرج وهو العلب وجمعه علوب والواحدة علبة .

(١) الهمذاني (أو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) ، الاكليل ، الجزء الثامن .

(٢) سورة سبا ، آية رقم ١٥ .

(٣) سورة سبا ، آية رقم ١٦ .

ومن امثال العرب في الرجل المنيع الجانب : هو رجل لا يفاش عليه ولا يخلف وئله ودومه ، وبها من الاراك ما ليس ببلد ومن الحمام المطوق في الاراك ما يجل عن الصفة . وكان السيل يجمع من اماكن كثيرة ومواضع جمعة باليمن ، من (عروش وجانب ردمان وسرعة وذمار وجهران وكومان واسبيل وكثير من مخاليف خولان) . وفي هذا السد يقول الاعشى (١) .

«كفى ذلك للمؤتس اسوة	ومأرب قفا عليها العرم
رخام بناه له حمير	اذا جاء مأوهم لم يرم
فأروى الحروث واعنابهم	على ساعة مأوهم ينقسم
فعاشوا بذلك في غبطة	فجار بهم جارف منهزم
فطار القيول وقيالها	ببهاء فيها سراب يطم

وفيما يتصل بوصف السد ، فيلاحظ ان السيول المتدفقة في الوديان تصل الى منطقة قريبة من مأرب في وادي اذنه حيث تدخل في جبل يسمى «جبل بلق» وتسمى الفتحة التي تدخل منها المياه باسم «الضيقة» ولكل من جهتيها اسم حسب وصفها بلق الايمن وبلق الايسر .

ويرتفع جبل بلق في تلك المنطقة الى حوالي ٣٠٠ متر ، ويبلغ متوسط اتساع «الضيقة» ٢٣٠ مترا ، ولكنها تتسع في الوسط فيصبح اتساعها ٥٠٠ مترا ، ثم تضيق بعد ذلك فلا تزيد عن ١٩٠ مترا تقريبا ، ثم تستمر الناحية الشمالية في امتدادها بينما تنفرج الناحية الاخرى . وقد اختير هذا المكان لتشييد السد ، فبنى فيه جدارا قويا يعترض الوادي ويوقف مياه السيول المتدفقة ، وجعلوا في الناحيتين فتحتين احدهما الى اقصى اليمين واستغلوا ذلك الجبل المرتفع في هذا الغرض فلم يبنوا الا جدارا ضخما واحدا ليكون صدفا ثانيا للبوابة ، أما البوابة التي في الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهي اكبر واعظم ، وتنقسم الى قسمين ، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيران بمسافة غير قليلة ، ثم ينتهيان بحوض كبير مبنى بالحجر ترى في جهاته

(١) انظر : احمد فخري : المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

المتنفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لرى ناحية من نواحي
الوادي الفسيح .

ولقد شيد هذا السد لغرضين ، الاول السيطرة على مياه السيول
المتدفقة فلا تخرب ما يعترضها اذا جاءت فجأة بكثرة غير عادية ، وثانيهما
تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد وعدم صرف شيء منها الا بالمقدار
اللازم ، وبذلك يضمنون رى وادي مارب الذى يرتفع عن مستوى السابله
بخمسة أمّاتار ، وبأمنون توفر كميات المياه اللازمة للرى حين يحين موعد
مجيء سيول اخرى .

وفيما يتصل بوقت تهدمه (١) ، فيلاحظ أن السد لم يتهدم مرة واحدة
وأنا صارع عوامل الزمن والطبيعة ، وأهمال الانسان طيلة الفترة التي
كان قائما فيها ، ولا ريب انه تآثر بتلك التحولات السياسية والاقتصادية
التي شهدتها اليمن قديما ، وتعرض للاهمال والكوارث الطبيعية مرارا .
ومن النقوش التي سجلت تهدم السد والقيام بترميمه ، نقش عثر عليه في
مارب ويعرف باسم «جام ٦٧١» ويرجع الى أواسط القرن الرابع الميلادي ،
وفيه يشير «تاران بن يهنعم» وابنه «ملكى كرب يهامن» الى اصلاح ماتهدم
من السد في حوالى ثلاثة أشهر . ووصلنا النقش الثانى من عهد الملك
«شرحبيل يعفر بن ابي كرب اسعد» التابع اليماني وذلك بين عامى ٤٤٩ ،
٤٥٠ م ، وفيه يشير الى اصلاح ماتهدم من السد من جداره ، أو قنواته واعيد
بناؤه سويا ، كما كان ، وذلك في خمسة أشهر من العمل المتواصل واشترك
في اصلاحه عشرون ألف رجل .

وتهدم سد مارب للمرة الثالثة في عهد ابرهة الذى حكم اليمن بعد الغزو
الحبشى واليا لنجاش الحبشة ثم حاكما مستقلا عنه ، وكان ذلك حوالى عام
٥٤٣ م. وقد عمل في اصلاح السد آنذاك عدد كبير من العمال وصرف على ترميمه
أموال طائلة اشير اليها في نقش ابرهة الذى عثر عليه قرب السد ويطلق عليه

(١) انظر : مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ٩٩ - ١٠١ .

(المدونه ٥٤٢) وكان خبر انكسار السد قد بلغ ابرهة وهو في احدى حملاته لاختضاع بعض القبائل الثائرة ، وعاد ابرهة ومعه من ثار عليه من القبائل واشترك الجميع في اصلاح السد وياشرف ابرهة نفسه . وقد خلد ابرهة ذكرى هذا العمل في نقش عثر عليه في جلازر . ونورد فيما يلى ما جاء في هذا النص اعتمادا على ماورد في مؤلف الاستاذ جرجى زيدان عن العرب قبل الاسلام :

«بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس ، ان ابرهة عزيز الاحباش الاكسوميين ؛ ملك اراخميس زيمان ، ملك سبا وذو ريدان وحضرموت ويمنت واعرابهم في نجد وتهامة ، قد نقش هذا الاثر تذكارا لتغلبه على يزيد بن كبشه ، عامله الذي كان قد ولاه كندة وريء ، وعينه قائدا ومعه اقبال سبا الصحاريين ، وهم مرة ونمامة وحنش ، ومرثد وصنف ذو خليل واليزنيون. اقبال معدى كرب بن السميفع وهفان واخوته ابناء الاسلام ، فأنفذ الملك اليه الجراح دازنبور ، فقتله يزيد وهدم قصر كدار ، وحشد من اطاعه من كندة وحريب وحضرموت ، وفر هجان الزمارى الى نجران . وبلغ الملك الاستصراخ ، فنهض بجنده الاحباش الحميريين الوفاء في شهر ذو القياط من سنة ٦٥٧ (من تاريخ اليمن) فنزل اودية سبا . . . فجاء يزيد وبايح وخضع للملك بين يدي القواد . وهم في ذلك جاءهم النبا بتهدم السد والحائط والحوض والمصرف في شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ فامر بالعفو . . . وبعث الى القبائل بانفاذ الحجارة للاساس والحجر الخام والاخشاب ورضاص الصب . . . لترميم السد في مأرب . . . فتوجه اولاً الى مأرب وصلى في كنيستها ، ثم عمد الى الترميم فنبشوا الانقاض حتى وصلوا الى الصخر وبنوا عليه . وعلم وهو في ذلك أن القبائل تضايقت من العمل، ورأى اعدائهم يعود بالضرر فعفا عنهم : احباشهم وحميرهم ، وأذن بانصرافهم . . . ورجع الملك الى مأرب بعد أن عقد تحالفاً مع الاقبال الآتى ذكرهم : اكسوم ذو معاهر بن الملك ومرجرف ذو ذرناح وعبادل ذو غائش

(١) انظر : جرجى زيدان ، العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٦٩ .

١١٥ - سنة شولمان وشبعان ورعين وممدان والكلاع ٠٠٠ الخ وجاء اليه وفد
النبى ر : رعد ملك الروم ورسول عن المنذر وآخر من الحارث بن جبلة ،
وأتوا بن جندبوا بعون الرحمن يخطبون مودته فى أواخر شهر داوان ، وبعثوا
النبى بن غيلة اراضيهم لترميم ما انصدع من البناء فرمعه ووسعوه حتى بلغ
النبى ١٥ ذراعا وارتفاعه ٣٥ ذراعا (ثم ذكر ما انفق فيه من الحجارة
والأحجار للعملة والحيوانات للعمل) ، واستغرق العمل فى ذلك ٥٨ يوما
و ١١ شهرا ، وكان الفراغ منه فى شهر ذومعان سنة ٦٥٨ . وهذه السنة
فى حساب السمريريين تعدل عام ٥٤٣ للميلاد ، لانهم كانوا يبدأون تاريخهم
سنة ١١٥ قبل الميلاد» .

أما متى تفجر سد مارب للمرة الأخيرة ، وعلى الحادثة التى ذكرها
القرآن الكريم ، فلا يعلم زمانها بدقة وان كان جمهور العلماء يرى ان تلك
الحادثة لابد وان تكون قد تمت بعد منتصف القرن السادس الميلادى ، أى
بعد عام ٥٥٠ ميلادية ، وذلك قبل ميلاد الرسول الكريم محمد صلوات الله
وسلامه عليه ، بسنوات قليلة .

٣ - بناء المدن :

اتخذ مكارية سبا من صرواح عاصمة لهم فى بادىء الامر ، وظلت قرونا
طويلة عاصمة لهم ، وعلى الكثير من حكام سبا بتشديد المعابر فيها . وتقع
مدينة صرواح فى وادى صرواح الذى يكاد يكون مستديرا ، وتحيط به المياه
من كل ناحية ، وكان له سد لتخزين مياه الامطار . وتوجد المناطق الاثرية
فى صرواح فى ثلاثة مناطق متقاربة واحدة منها هى منطقة السد وتعرف
باسم «البناء» ، والثانية هى المنطقة المسماة «القصر» ، والمنطقة الثالثة
وتعرف باسم «الخريبة» وتوجد فيها بقايا المعابد ، ومن أشهرها المعبد
الكبير الخاص بالاله «المقه» والذى سبقت الإشارة اليه (١) .

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٥٧ وما بعدها ،
استد فخرى ، أحدث الاكتشافات الاثرية فى اليمن ، ص ١٥٩ - ١٦٢ .

سياسة سبا الخارجية في عهد المكارية :

تشير العديد من النقوش السبئية الى الاهتمام بمدينة نشق وتحصينها(١) وهي مدينة معينة في الاصل ، كانت مهمة بالنسبة لهم ، فقررُوا اصلاح ماتخرب منها ، واستصلاح ارضها لاسكان السبئيين فيها ، ووسعوا في حدودها ، واصلحوا نظم الري فيها، ووزعوا اراضيها الزراعية على اتباعهم السبئيين ، وحولوها بذلك الى مدينة سبئية . ومن هذه النقوش التي تشير الى اهتمام مكارية سبا بمدينة نشق ، نقش خاص بالمكرب «كرب ايل بين» ويشير فيه الى انه وسع حدود مدينة (نشق) وحسن المدينة ، وأشار ابنه المكرب «ذمرعل وتر» الى انه امر بتوسيع (نشق) واصلاح الارض المحيطة بها ، وبتحسين نظم الري فيها ، وذلك قيما وراء الحد الذي وضعه أبوه لهذه المدينة ، وانه قد جعل ذلك وقفا على شعب سبا .

ويشير الى توسع السبئيين ايضا نقش يرجع الى عهد المكرب «يثع امر بين» وفيه يذكر انه سور وحصن قلعة (حريب) وهما من مدن قثبان(٢)، ويشير ذلك الى توسع السبئيين في عهد المكارية والى اتقاذهم هذه الحصون مواقع هجومية تذهب منها جيوشهم على جيرانهم الذين اصابته حكوماتهم الضعف .

ولقد ورد في نقش خاص بالملك مرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق م) انه تسلم هدايا من عدد من الملوك ، من بينهم «يثع امر» السبئي ، وذهب بعض الباحثين الى الاعتقاد بأن «يثع امر» هذا كان احد الملوك السبئيين الحاكمين في شمال جزيرة العرب على مقربة من البادية في اعالي الحجاز ، او نجد مثلا ، او في الارض الواقعة في المناطق الجنوبية من الاردن ، بينما يرى آخرون انه هو المركب السبئي الذي حكم في الجنوب ، وهو ما يتجه اليه معظم الباحثين ، وفي هذه الحالة ، فان هذه الهدايا لا تشير الى خضوع سبا للاشوريين ، اذ انه من المستبعد بلوغ نفوذ الاشوريين في ذلك الوقت

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(2) Philpy, J. B., Sheba's Daughters, p. 445.

الى اليمن ، وعلى ذلك فان هذه الهدايا تكون مجرد تعبير عن الصداقة التى كانت تربط بين آشور وسبا ، خاصة وان بين اليمن والعراق تجارة مستمرة قديمة ، ومواصلات متصلة ، فلتوطيد الصداقة بين الحكومتين وتسهيل التبادل التجارى بين العراق واليمن ارسل حكام سبا تلك الهدايا لكسب ودهم وتسهيل امور تجارتهم فى أسواق العراق .

٢ - عصر ملوك سبا :

. يبدأ عصر ملوك سبا بالملك «كرب ايل وتر» الذى كان «مكربا» ثم لقب «ملك» كما تشير الى ذلك النقوش التى ترجع الى عهده ، ومن أهمها نقش صرواح المنقوش على الجبه جدار مشيد من المرمر فى بهو المعبد الرئيسى فى صرواح ، وقد افنتح هذا النقش بجمله : «هذا ما امر بكتابته كرب ايل وتر بن ذمر على مكرب سبا عندما صار ملكا» . ويشير استخدام حكام سبا لهذا اللقب الى زيادة صفتهم السياسية عن صفتهم الدينية . وقد انتقلت الحكومة من صرواح العاصمة الاولى القديمة الى مارب العاصمة الجديدة ، حيث استقر الملوك فيها متخذين من قصر سلحين مستقرا لهم .

وفيما يتصل بالتحديد الزمنى لعصر ملوك سبا ، فهناك من المؤرخين من يجعل بداية هذا العصر حوالى عام ٦٥٠ ق م (١) ، بينما يرجعه آخرون الى حوالى عام ٤٥٠ ق م ، الا ان الرأى الاول هو الأرجح . اما عن تحديد نهايته ، فيتجه غالبية العلماء الى تحديده بحوالى عام ١١٥ ق م أى ١٠٩ ق م .

وقد اختلف المؤرخون فى عدد ملوك سبا ، فذكر «هومل» فى قائمته تسعة عشر ملكا ، وذكر «كليمان هوار» اثنا عشر ملكا ، وأورد «فلبى» اسماء خمس وعشرين ملكا ، ومن هؤلاء الملوك :

— سمه على ذريح

(١) فريتز هومل ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .
انظر : جراد على ، المرجع السابق ، ص ٣٤٧ - ٣٥٢ .

- الشرح بن سمه على ذريح .
- كرب ايل وتر بن سمه على ذريح .
- يدع ايل بين بن كرب ايل وتر .
- يكرب ملك وتر .
- يثع امر بين .
- كرب ايل وتر .
- سمه على ينف .
- الشرح بن سمه على ينف .
- ذمر على بين بن سمه على ينف .
- يدع ايل وتر .
- ذمر على بين بن يدع ايل وتر .
- كرب ايل وتر بن ذمر على بين .
- نشا كرب يهنعم .
- ناصر يهنعم .
- وهب آل يحز .
- كرب ايل وتر يهنعم (١) .

سياسة سبا الداخلية في عصر الملوك

١ - الاهتمام بالنواحي الاقتصادية :

أهتم ملوك سبا بإقامة السدود وحصر السيول وشق القنوات لاستصلاح الاراضى الصالحة للزراعة وتنظيم وسائل الري . وفى ذلك يشير أول ملوك سبا وهو «كرب ايل وتر» فى نقش النصر الى شكره لالهته وثنائه عليها لمباركتها ارضه وارض شعبه، ووهبت ارض سبا مطرا سال فى الاودية فأخذت الارض زخرفها بالنبات ، واذا مكنته من انشاء السدود وحصر السيول حتى صار فى الامكان اسقاء الاراضى المرتفعة ، واحياء الاماكن التى حرمت من

(١) انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ٣٤٧ - ٣٥٢ .

الماء . وكذلك احياء اراضي واسعة بإنشاء سد لحصر مياه الامطار يتصل بقناة روت اراض لم تكن المياه تصل اليها ، فوصلت اليها بامتلاء حوض السد بالماء ، وبانشائه مسایل أوصلت المياه الى اراض اخرى ، كما نظم الري ، حتى صارت المياه تملأ كل أرض . كما اشار في نقش آخر يعرف باسم Glaser 1000B الى اقامته لخزان ماء في وادي أذنة ، واقام مسایل للماء فوصلها الى (يسران) وانه شيد وحصن وقوى جدار ماء (بلط) وما يتفرع منه من مساق ومسایل . ويشير في هذا النقش كذلك الى تعميره لاراض زراعية ، في ارض (يسران) وغرسه لنباتات فيها(١) .

وورد نقش من عهد الملك «كرب ايل وتر» سجله احد كبراء القبائل بمناسبة قيامه بأعمال زراعية وبأمور تتعلق برى الارض مثل حفر الانهار وبناء السدود . وقد ورد في هذا النقش اسماء الاماكن التي أجريت فيها هذه الاعمال ، وهي (أئين) و (مطرن) و (ماتم) و (ذو فنوتم) و (سمطانهان) وهي من مزارع الملك . وغوطة (ذوضام) في (سرو أمان) .

وقد ذكر اسم الملك «كرب ايل وتر يهنعم» في النص المعروف بـ Jamme 563 وقد دونه أناس من (بنى عثكلان) حمدا وشكرا للاله الملقه الذي انعم عليهم وحباهم بنعمه ، واعطاهم حصادا جيدا وغلة وافرة ، وليمزيد في توفيقه لهم ونعمه عليهم ، وليبعد أذى الحصاد وشر الشائنين . ويوضح ذلك مدى الاهتمام بزيادة المحاصيل الزراعية .

كما جاء اسم هذا الملك في نص آخر دونه قيه من أقيال (غيمان) معروف بـ Jamme 464 دونه عند تقديمه تمثالا للاله الملقه حمدا له وشكرا على انعامه عليه وعلى جيش واقبال الملك كرب ايل وتر يهنعم ، ولانه من عليه وأعطاه حاصلا طيبا وغلة وافرة وأثمارا كثيرة ، وليمن عليه وعلى قومه في المستقبل أيضا ، وذلك بحق الملقه وبحق الالهة عشتار . . . ثم يعدد النقش العديد من الالهة السبئية(٢) .

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .
(٢) جرجي زيدان ، المرجع السابق ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

٢. النواحي المعمارية :

العمارة الدينية : اعتم ملوك سبا باقامة معابد الالهة وترميمها وتقديم القرابين اليها ، ومن بين النقوش التي وصلتنا وتشير الى اهتمام الملوك بترميم المعابد وزيادتها ، نقش يعرف بـ CTH 374 (١) وورد فيه «ان الشرح ابن سمه على ذريح» قد اقام جدار معبد المقة من موضع الكتابة الى اعلاها ، ورسم ابراج هذا المعبد . وحفر الخنادق ، ووفى بجميع نذره الذي نذره لالهة المقة على الوفاء به بعد ان اجاب دعاءه ، وقد استجاب الهة لسؤاله ، فيسر امره واعطاه كل ما اراد ، نشكرا له على نعمه ، وشكرا لبقية الهة سبا ، وهي : عشتار وعيس وذات حميم ، وذات بعدن وتعجيذا لاسم والده «سمه على ذريح» ان امر بتدوين هذه الكتابة ليطلع عليها الناس .

العمارة المدنية : اشار اول ملوك سبا «كرب ايل وتر» في نقش النصر الذي يرجع الى عهده الى بعض ما قام به من اعمال عمرانية ، فذكر انه اتم بناء الطابق الاعلى من قصر سلحين ابتداء من الاعمدة ، والطابق الاسفل الى اعلى القصر .

وفيما يتصل بعاصمة سبا في عهد الملوك فكانت مارب (٢) ، وكان يحيط بها سور قوى حصين له ابراج ، وشيد السور بحجر البلق ، كما ورد في النقش المعروف بـ Glaser 418, 419 ، واقيم السور على اساس قوى من الحجر ، وكان يوجد بالسور بابين . ومن اعظم ابنية مارب واشهرها قصر ملوكها وهو المعروف بقصر سلحين ، ومعبدتها الكبير الخاص بالالهة المقة . وفي الناحية الشمالية والغربية من المدينة وفي خارج اسوارها توجد بقايا مقبرة جاملية ، يبدو انها كانت مقبرة مارب قبل الاسلام .

٣ - النظم السياسية :

توجد بعض الاشارات التي يمكن الاستدلال منها على بعض نواحي التنظيم السياسي في عصر ملوك سبا . ومن هذه الاشارات ماورد في عهد

(1) Philby, J. B. The Background of Islam, p. 142.

(2) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ص ٢٩٦ - ٢٩٨ .

الملك «كرب ملك وتر» وهو النقش المعروف Halevy 51 (٢) ، وقد سجل عليه تأييد هذا الملك لقانون كان قد صدر في أيام حكم أبيه لشعب سبا ، وقبيلة «يولح» ، وهو يتصل بحقوق الأرض وكيفية استغلالها واستثمارها في مقابل ضرائب معينة تدفع إلى الدولة ، وفي الواجبات المترتبة على سبا وعلى (يولح) في موضوع الخدمات العسكرية ، وتقديم الجنود لخدمة الدولة في السلم والحرب . وقد شهد على صحة هذا القانون وأيد صدق صدوره من الملك ووافق عليه جماعة عن الإشراف وسادات القبائل المتضامنة مع سبا . وقد ذكرت اسمائهم بعد جملة «شهد على صحة هذا البيان ، وأيده ، ووافق على ما جاء فيه» .

يتضح من هذا النقش أهمية القبائل السياسية في اتخاذ قرارات القوانين والموافقة عليها ، وأنه كان يوجد - وذلك فيما يذكر استاذنا الاستاذ الدكتور مصطفى العبادي - ما يمكن أن يطلق عليه مجلس قبائل سبا ، وأن هذا المجلس يتكون من ممثلين لإشراف كل قبيلة ويرأسه الملك ، ويبدو أنه لابد من موافقة هذا المجلس على ما يصدره الملك من قرارات ، وبعبارة أخرى كان هذا المجلس هو الذي يصنع سياسة الدولة بما يتفق ومصالح القبائل الممثلة فيه .

ويؤيد ذلك نقش آخر يرجع إلى عهد الملك «كرب ايل وتر» ويعرف بـ Glaser 1571 وهو يتضمن أمراً ملكياً يتصل بجباية الضرائب ، وقد شهد عليه ووقعه ممثلون عن القبائل : قبيلة ذى يفعان ، قبيلة نزحتن (نزحتان) ، وقبيلة اربعنهان ، وقبيلة فيشان ، وكبير صرواح .

السياسة الخارجية :

استمر «كرب ايل وتر» أول ملوك سبا في سياسة المكارية الخارجية ، وذلك فيما يتصل بسياسة التوسع والقضاء على الحكومات العربية الجنوبية

(1) Halevy, J., Rapport Sur une Mission Archeologique. dans le Yemen, J.A., VI, Paris, 1872. p. 137.

الآخري ، أو إخضاعها لحكم سبا ، وقد سجل في نقشة المعروف باسم نقش النصر مقام به من أعمال حربية ونتائج هذه الحروب ، ونستطيع من دراستنا للأعمال العسكرية في هذا النص معرفة الاتساع الذي بلغته سبا في عهده وماغنمه في هذه الحروب وما أوقعه بأعدائه أو المتحالفين معه . ولقد اطلال في ذكر البلاد التي فتحتها ودمرها ، ويذكر أنه في حربه ضد أوزان قتل ١٦٠٠٠ من أعدائه وأسر ٢٠٠٠ ، ويقول أنه استمر في فتوحاته حتى وصل إلى البحر ودانت أوزان وملكها «مارتو» لسلطانه . وبعد أن تم له إخضاع الجنوب ، اتجه ببصره نحو مدن المعينيين فأخضعها واحدة بعد أخرى ، وقبل ملوكها دفع الجزية له ، وإن يكونوا من أتباعه . ويشير في آخر النقش إلى حملته على نجران . ولقد كانت حروب هذا الملك فاتحة عهد جديد في تاريخ اليمن القديم ، وأصبح ملك سبا ، ملكا على اليمن بأكملها بما في ذلك حضرموت ونجران ، وما يسمى الآن بالمحميات ، واستمر ذلك الملك الواسع الكبير لسبا لمدة عدة قرون (١) .

ومفد عهد الملك «يثع امر بين» دخلت سبا في صراع مع قتيان ، ومما يشير إلى ذلك نقش سجله كاهن الآلهة ذات غضران بمناسبة إقامته هو وأفراد أسرته جدارا في معبد الآلهة المقه وشكرهم لآلهة سبا لأنها أنعمت عليه إذ كان قائدا عسكريا بالتوفيق في عقد صلح بين حكومة سبا وحكومة قتيان وذلك بعد حرب ضارية استمرت لمدة خمس سنوات ، كانت قتيان هي التي أشعلت نارها بهجومها على أرض سبا ، وقد عهد إلى هذا الكاهن والقائد بمحاربة القتيانيين والدفاع عن المملكة ، فاستطاع وقف الهجوم القتياني واجلائهم وانتهى الأمر بعقد صلح معهم ، تمكن السبئيون من استعادة أراضيهم التي احتلها القتيانيون (٢) .

ولم تنته جولات الحروب بين سبا وعتبان عند ذلك ، فهناك العديد من

(١) انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧ - ٢٩٩ .

(٢) Halevy, J., JA, 1874, p. 548.

Bowen, R. L., and Albright, F., Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, 1958, p. 222.

الاشارات الى وقوع حروب بينهم بعد ذلك ، استمر بعضها سنين طويلة استغرقت عهد العديد من الملوك ، وكان لقتبان الغلبة في بعضها حيث استولت على بعض املاك القبائل السبئية وسجلتها باسمها .

ويستدل من النص المعروف بـ Glaser 1228 أن «وهاب ايل يحز» قد دخل في صراع حربي مع الريدانيين ، وقد ساعد السبئيين في هذه الحرب بعض القبائل ومنها مخطران ، وسخيم ، وزوخولان ، وينوتبع بينما انضم الى جانب الريدانيين سعد شمس ، ومرثد .

ويشير نص آخر الى هذه الحروب مع الريدانيين ، وهو يعرف بـ Jamme 561 BIS وقد سجله بعض اقبال همدان وذلك عند تقديمهم تمثالا الى الاله المقه لانه من عليهم وعلى قبيلتهم ، وأغدق عليهم نعماءه واعطاهم غنائم كثيرة في الحرب التي وقعت بين ملوك سبا وبين ذي ريدان واشتركوا فيها ، اذ تراسوا بعض القوات وكذلك في غاراتهم على ارض العرب المجاورين لقبيلتهم والنازليين على حدودها ، اولئك العرب الذين اخطأوا تجاه امرائهم وساداتهم ملوك سبا ، وتجاه بعض قبائل ملك سبا ، ولان الاله المقه انعم عليهم بان جعل الملك «وهاب ايل يحز» ملك سبا راضيا عنهم ، مقربا لهم .

ويتبين من هذا النقش ان هؤلاء الاقبال من قبيلة همدان كانوا في خدمة ملك سبا ، وانهم قد استركوا مع ملك سبا «وهاب ايل يحز» في تكبيد بني ذي ريدان خسائر فادحة في الحرب التي نشبت بينهم وبين هذا الملك كما يتبين من هذا النقش كذلك ان ارض همدان قد تعرضت لغارات الاعراب ، وقد نجحوا في تاديبيهم .

وقد وردت أولى الاشارات عن الاعراب وغاراتهم على السبئيين وقوافلهم من عهد الملك «نشا كرب يهنعم» ، وقد دون هذا النص بعض الافراد من قبيلة بني آل الجميل العرج وهم من كبراء قبيلة يدع ، وذلك حمدا للاله المقه الذي اجاب نداءهم واغاثهم ومن عليهم وعلى بيتهم سلحين في الجميل وحماهم من الغارة التي امر بها الملك «نشا كرب يهنعم» على

(أرض عربى) ، أى أرض الاعراب لانقاذ اصدقائهم واهليهم فى مأرب ، وكذلك الجنود والحيوانات التى كانت معهم واعادتهم الى مأرب .

ويتضح من هذا النص أن اعراب البادية كانوا قد أغاروا على جماعة من السبئيين ، أو أنهم هاجموا أرض سبأ ، فأرسل الملك السبئى «نشا كرب يهنعم» قوة من الجيش ومن الاهالى للاغارة عليهم فى مضاربهم (أرض العرب) ولاسترجاع ما أخذوه من غنائم واسلاب وأسرى ، وقد رجعت الحملة سالمة . ومن الواضح أن (أرض عربى) تشير هنا الى اعراب البادية المتنقلون الرحل والذين لم يكن لهم موطن محدد ولا اسما معيناً ، وذلك بعكس القبائل المستقرة فى اليمن والتى كانت تذكر بأسماء قبائلها ومواطنها(١) .

٣ - دولة سبأ وذى ريدان :

اتخذ ملوك سبأ فى هذا العهد لقب جديد وهو «ملوك سبأ وذى ريدان» وذلك اشارة الى ضم ذى ريدان الى مملكة سبأ . الا انه لا يمكن الجزم بذلك ، فقد ظل للريدانيين كيانهم الى جانب دولة سبأ ، مما قد يرجح فيما يرى الاستاذ الدكتور مصطفى العبادى أن ذلك يعنى تحالفا بين سبأ وقبائلها وكيان ذى ريدان وحمير .

وقد اختلف المؤرخون حول بداية هذا العهد ، فينتجه اغلب العلماء الى أن ذلك كان حوالى عام ١١٨ أو ١١٥ أو ١٠٩ ق م ، الا أن البعض يتجه الى الاعتقاد بأن ذلك اللقب لم يظهر الا فى أواخر القرن الاول قبل الميلاد(٢) .

وتتميز هذه المرحلة من الناحية الداخلية بالاضطراب وعدم الاستقرار وكثرة الحروب الداخلية ، وأدى ذلك الى تدهم المدن وتخريب القرى وعدم الاهتمام بوسائل الرى مما حول الكثير من الاراضى الزراعية الى صحارى مجدبة . وتوجد من هذا العصر الكثير من النصوص التى يتوسل فيها الاهالى الى الآلهة بأن تمن عليهم بنعمة الطمانينة والهدوء والاستقرار ،

(١) أنظر : محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٢٩٢ - ٢٩٥ .
(٢) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٤١٦ وما بعدها .

وكان من نتائج هذه الحروب انتشار الاوبئة والامراض التى كانت تفتك
بالناس بالجملة .

وأول ملوك هذا العصر هو «الشرح يحضب» ، وتشير النقوش المتبقية
من عهده أنه كان مقاتلا خاض العديد من الحروب حتى قبل أن يصبح ملكا ،
استمرت الحروب للتنافس على العرش بينه وبين «شمر» وهو من حمير ،
ولقد تدخل الاحباش فى هذا الصراع الداخلى ، ولم تكن لهم سياسة ثابتة ،
فقد كانوا يغيرون سياستهم تبعا للاحوال المتغيرة ، فنزاهم مرة مع الحميريين
وتارة عليهم ، وكان ذلك نتيجة للاحوال القلقة المضطربة التى كانت تتحكم
فى العربية الجنوبية آنذاك ، ولصالح الحبش الذين كانوا يريدون تثبيت
أقدامهم فى السواحل العربية المقابلة وتوسيع رقعة ما يملكونه باستمرار .

وينسب الى الشرح يحضب تشييد قصر غمدان فى صنعاء ، وقد ذكر هذا
القصر فى نصوصه مع قصر سلحين ، وقد يشير ذلك الى اقامته فى القصرين
وحكم منهما . وقد لمع اسم (صنعو) اى (صنعاء) فى ايام الشرح يحضب ،
وهى لابد أن تكون قد بنيت قبل عهده ، وكان لتشييده قصره فيها اثره فى
زيادة مكانتها ، حتى صارت عاصمة اليمن ومقر الحكام .

ومن الناحية الخارجية ، فلقد تعرضت سبا خلال هذا العهد للحملة
الرومانية التى قام بها اليوس جالوس حاكم مصر الرومانية عام ٢٤ ق م ،
وذلك بهدف الاستيلاء على اليمن للسيطرة على طرق التجارة التى كان
يحتكرها السبئيون ، فقد تمكنت بحكم موقعها من التحكم فى نقل السلع
الآتية من الهند وأفريقيا الشرقية الى الشمال ، وذلك بالاضافة الى تصدير
ماتنتجه بلاد الجنوب العربى من محاصيل الى الشمال ، ومثلت هذه
التجارة والطرق التجارية مصدر ثروة اليمن (١) .

واعتمد اليوس جالوس فى حملته على مساعدة الانباط له ، الا أن
الحملة فشلت فشلا ذريعا ، ولم تحقق أغراضها ، اذ تعرضت للامراض

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

والأوبئة والجوع والعطش ووعورة الطرق ، ولقد وصف سترابو^(١) الذي يبدو أنه قد رافق الحملة ، ما تعرضت له الحملة وصفا دقيقا ، إلا أنه ألقى بتبعة فشل الحملة على كاهل الوزير النبطي «صالح» الذي رافق الحملة وعمل دليلا لها .

وكان لفشل الحملة اثره في عزوف الرومان عن السيطرة على بلاد العرب بطريق القوة ، واقتصروا على محاولة السيطرة على التجارة البرية ، وتدعيم مصالحهم التجارية عن طريق تحسين علاقاتهم السياسية بالدول العربية والامارات في الجنوب العربي .

دولة سبا وذى ريدان وحضرموت ويمنت :

يبدأ هذا العهد من حوالى عام ٣٠٠ ويستمر حتى عام ٥٢٥ ويشير اتخاذ الملوك لهذا الاسم على ان دولة سبا وذى ريدان اصبحت تضم اليها حضرموت وكذلك يمنت ، وهى فى رأى غالبية العلماء تشمل المنطقة الجنوبية الغربية من بلاد العرب ، من باب المندب وحتى حضرموت .

وأول ملوك هذه الدولة هو «شمر يهرعش» ولقد نسب اليه القيام بالكثير من الفتوحات فى العديد من البلدان ، حتى قيل أنه وصل حتى الصين وأخضع فارس وخراسان والشام ومصر ، ومن الواضح أن ذلك نوعا من المبالغة ، اذ لا تثبت الادلة النصية والاثريّة فى منطقة الشرق الأدنى القديم حدوث مثل هذا العمل ، ولكن يبدو ان هذه المبالغة ترجع الى قيامه بالعديد من الفتوح فى جنوب بلاد العرب ، مما دعا الاخباريين العرب الى المبالغة فى أمر فتوحاته .

وبعد وفاته تمكن الاحباش من احتلال اليمن فى سنة ٣٤٠ م ، واخذ نجاش الحبشة لقب «ملك أكسوم وحمير وذو ريدان والحبشة وسبا وصلح وتهامة والبجاء وكسو» ، وربما كان هذا الاحتلال الحبشى لليمن راجعا فى

(1) Strabo, XVI, 23-24.

المقام الاول للعوامل الاقتصادية ، وذلك لحماية التجارة الحبشية كرد فعل للغزو الذى قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية للحبشة(١) .

ونظرا لحدوث بعض الثورات فى المناطق الافريقية لملك الحبشة وانشغال الاحباش بالقضاء على هذه الثورات ، فلقد انتهز اليمنيون الفرصة وطردهوا الاحباش من اليمن وذلك فيما بين عامى ٣٧٠ ، ٣٧٨ م .

وكان لاعتناق آخر ملوك سبا «ذو نواس» الدين اليهودى ومحاولته فرضه بالقوة على شعبه ، واضطهاده للمسيحيين، أثره فى تشجيع الاثيوبيين على غزو اليمن واحتلالها عام ٥٢٥م وذلك بتشجيع من الدولة البيزنطية .

وادت هذه الاحوال المضطربة الى توقف التجارة العالمية التى اشتهر بها عرب الجنوب وكان مصدر ثرائهم وازدهارهم ورخائهم ، ويضاف الى ذلك تصدع سد مارب مما ادى الى ضعف هذه المنطقة ضعفا شديدا، وفى عام ٥٧٥م تمكن الفرس من احتلال اليمن ، وظل اليمن خاضعا لهم حتى ظهور الفتوحات الاسلامية الكبرى فى القرن السابع الميلادى التى انتهت دولتهم(٢) .

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ .
(٢) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٥٣٠ وما بعدها .

الفصل الثامن

مكة المكرمة

مكة المكرمة

تعتبر مكة المكرمة من أهم مواضع الحضر في الحجاز على الإطلاق . ويتسم مناخها بقسوته ، اذ تشرف عليها جبال جرد ، وليس بها ماء ، غير ماء زمزم . لذلك لم تصلح أرض مكة لان تكون أرضا ذات نخيل وزرع وحب ، ونتيجة لذلك فقد اعتمد سكانها على التعيش مما يكسبونه من الحجاج ، بالإضافة الى العمل بالتجارة . وتتميز مكة بموقعها الجغرافي ، اذ تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشام ، أو القادمة من بلاد الشام تريد العربية الجنوبية ، ثم ما لبث أهلها أن اقتبسوا من رجال القوافل السفر وفائدته ، فعملوا بالتجارة ، ثم احتكروا التجارة في العربية الغربية وسيطروا على حركة النقل في الطرق المهمة التي تربط اليمن ببلاد الشام والعراق وذلك في القرن السادس م .

هذا ولم يرد اسم مكة في كتابات الجاهلية ، أما الموارد التاريخية المكتوبة باللغات الأعجمية ، فقة جاء في كتاب (جغرافيا) لبطليموس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي ، اسم مدينة دعيت بـ (مكة) (مكربا) ، وقد ذهب الباحثون الى أن المدينة المذكورة هي (مكة) (١) . وإذا كان هذا الرأي صحيحا يكون (بطليموس) أول من أشار إليها من المؤلفين وأقدمهم . كذلك ذهب بعض الباحثين الى أن المعبد الشهير الذي ذكره (ديودور الصقلي) في أرض قبيلة عربية دعاها (Bizomeni) وقال أنه مكان مقدس له حرمة وشهرة بين جميع العرب ، هو مكة ، وإن كان هناك من يعارض هذا الرأي استنادا الى أن الموضع الذي يقع المعبد فيه ، هو موضع بعيد عن مكة بعدا كبيرا . أما الاخباريون فانهم لم يشيروا الى هذا الاسم الذي ذكره (بطليموس) ، ولا الى اسم آخر قريب منه ، وإنما أشاروا الى اسم آخر هو

(1) Ptolemy, Geographia, VI. 1, 32.

(بكة) . وقد ذكر هذا الاسم في القرآن . قالوا أنه اسم مكة أبدلت
بـالميم بـاء . وقد اتجه بعض الاخباريين الى القول ان المقصود بـ
(بكة) بطن مكة ، وذهب آخرون أن بكة موضع البيت ، ومكة ماوراءه ،
وقال فريق ثالث ان البيت هو مكة وما والاها بكة(١) . وقد عرفت مكة عند
الاخباريين أيضا بأسماء أخرى منها : صلاح ، لامنها ، ومنها أم رحم ،
وذكرت في القرآن الكريم بـ(أم القرى) .

وبختلف المؤرخون في اشتقاق كلمة (مكة) ، فذهب فريق منهم الى
أنها إنما سميت كذلك لأنها تتمك الجبارين ، أي تذهب نخوتهم ، وذهب
فريق ثان الى أنها إنما تقع بين جبلين مرتفعين عليها ، وهي في هبطة
بمنزلة المكوك ، وذهب فريق ثالث الى أن الكلمة مشتقة من (امتك) من
قولهم : امتك الفعيل ضرب أمه ، اذا مصه مصا شديدا ، ولما كانت مكة
مكانا مقدسا للعبادة ، فقد امتكت ، أي جذبتهم من جميع الاطراف .
وهناك من يرجح أن الاسم إنما أخذ من لغة الجنوب ، مستندا الى البيت
الحرام ، فمكة أو (مكرب) في رأى هذا الفريق - كلمة يمنية مكونة من
«مك» و «رب» ومك بمعنى بيت ، فتكون مكرب بمعنى «بيت الرب» أو
«بيت الاله» ومن هذه الكلمة اخذت مكة ، أو بكة - بقلب الميم بـاء على
عادة أهل الجنوب(٢) .

وفيما يتصل بتاريخ مكة فقد ذهب بعض الاخباريين الى أن (العماليق)
كانوا قد انتشروا في البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز، وعتوا عتوا كبيرا،
فبعث اليهم موسى جندا فقتلوه بالحجاز . وجاء اليهود فاستوطنوا
الحجاز بعد العماليق ثم جاءت (جرهم) فنزلت على (قطورا) أسفل مكة -
وكان عليها يومئذ (السميدع بن هوثر) ، ثم لحق بجرهم بقية من قومهم
باليمن وعليهم (مضاض بن عمز). فنزلوا بـ«قعيقعان» بأعلى مكة ، ثم
حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا ، فتغلب (المضاض) وغلب (السميدع) .

(١) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله) ، معجم البلدان ،
الجزء الخامس ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٢ .
(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج ١ ص ٣٣ .

وجرهم قوم من اليمن قحطانيون ، جدهم هو ابن (يقطن بن عامر) وهم بنوعم (يعرب) وكانوا باليمن وتكلموا بالعربية ثم غادروها فجاءوا مكة . ومن جرهم نزوح سيدنا (اسماعيل بن ابراهيم) وكانت هاجر قد جاءت به الى مكة ، فلما شب وكبر وتعلم لغة جرهم وتكلم بها ، تزوج امرأة أولى قالوا ان اسمها (جرا) ثم طلقها وتزوج بامرأة اخرى هي السيدة بنت (الحارث بن مضاض) . وعاش نسله في جرهم ، والامر على البيت لجرهم الى ان تغلبت عليهم (بنو حارث بن ثعلبة) وهم خزاعة ، فانتزعت منها الملك وزحزحتها ، واقامت عمرو بن لحي - وهو منها - ملكا عليها ، وظلت خزاعة صاحبة مكة ، الى ان كانت ايام عمرو بن الحارث وهو (ابو غبشان) فانتزع قصي منه الملك واخذه من خزاعة لقريش . وكان (عمرو ابن لحي) اول من نصب الاوثان وادخل عبادة الاصنام الى العرب ، بعد ان كان اسماعيل بن النبي ابراهيم - عليه السلام - يدعو الناس في مكة ومجاوراتها الى عابدة الله (١) .

ويعد (عمرو بن لحي) اول رجل يصل اليها خبره من الرجل الذين كان لهم اثر في تكوين مكة وفي انشاء معبدها وتوسيع عبادته بين القبائل المجاورة لها . حتى صار لهذه المدينة شأن عند القبائل المجاورة وذلك لاتيانه باصنام نحنت نحنا جيدا بأيدي فنية قديرة ، وعلى راسها الصنم (هبل) ووضعها في البيت ، فجلب بذلك انظار اهل مكة وانظار القبائل المجاورة نحوها ، فصارت تقبل عليها . وبذلك كون للبيت شهرة بين الاعراب ، فصاروا يقدمون عليه للتقرب الى (هبل) والى بقية الاصنام التي جاء بها من الخارج فوضعها حوله وفي جوفه .

والجدير بالذكر ان تاريخ مكة حتى ظهور قصي بن كلاب غامض غموضا شديدا ولا سيما في عصوره الجاهلية القديمة وذلك لعدم وجود نصوص اثرية تعين الباحث على استنطاق تاريخ قائم على أسس علمية ، ولذا فان تاريخ مكة يعتمد في هذه الفترة على روايات الاخباريين المتناقضة

(١) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٣٩٤ - ٤٠٠ .

المتضاربة و (قصي بن كلاب) هذا من قريش ، وقريش كلها من نسل رجل اسمه فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، فهي من القبائل العدنانية ، أي من مجموعة العرب المستعربة في اصطلاح علماء النصب ، و (قصي) كان زعيم قريش ومكة بأسرها ثم أورثت إلى أولاده من بعده ، فصارت قريش بذلك صاحبة مكة . وقد اشتهرت قريش بالتجارة ، وبها عرفت وذاع صيتها بين القبائل ، وتمكن رجالها من الاتصال بالدول الكبرى في ذلك العهد : الفرس والروم والحبشة ، وحكومة الحيرة والغساسنة ولسادات القبائل وتكوين علاقات طيبة معها ، كما تمكنوا من عقد تحالف مع سادات القبائل ضمننت لهم السير طوال أيام السنة بهدوء وطمأنينة في كل أنحاء الجزيرة فنتشروا تاجرتهم في جميع ربوعها . وقد علمت الأسفار سادة قريش أمورا كثيرة من أمور الحضارة والثقافة ، فقد جعلتهم يشاهدون بلادا غربية ذات تقدم وحضارة ، وجعلتهم يمتحنون بعرب العراق وعرب بلاد الشام ، فتعلموا من الحيرة أصول كتابتهم ، وهدبوا لسانهم ، ودونوا به أمورهم . وقد علمت الطبيعة أهل مكة أنهم لا يتمكنون من كسب المال ومن تأمين رزقهم في هذا الوادي الجاف ، إلا إذا عاشوا هادئين مسالين ، يدفعون الاساءة بالحسنة ، فصار التجار والبائع والمشتري يقف على سوق مكة ، يبيع ويشترى بكل حرية ، لأنه في بلد آمن ، اتخذ سادته على أنفسهم عهدا بالآل يتعدى الحد منهم على غريب . لأن الانصرار به يبعد الغريباء عنهم . ويتألك تحريم مكة من التجارة التي هي أساس حياتها . وقد اصططحت قريش على أن تتأخذ ممن ينزل عليها في الجاهلية حقا ، دعتة ((حق قريش)) ، وفي جملة ما كانوا يأنفذونه من التعريب القادم اليهم بعض ثيابه أو بعض بدنته التي يتحر .

وقد تمكنت قريش في نهاية القرن السادس وبفضل نشاطها التجاري أن تصبح من أهم المراكز المرموقة في العربية العربية في التجارة ، وفي القراض المال للمحتاج اليه ، كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة .

أما عن ((قصي بن كلاب)) فقد قام بعدة اصلاحات في مكة ، فبعد أن جمع القرشيين اليبعثين في توأحي متعددة إلى وادي مكة ، جعل الكل بظن

حيا خاصا به على مقربة من الكعبة ، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام ، فيتعهدونه بالصيانة ، ويدفعون عنه الخطر ، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها بطون قريش ، الا بمقدار ما يسمح للناس بالاطواف ، وان كان أهم أعماله إنما هو انشاؤه (دار الندوة) حيث كان يدار فيها تحت رئاسته كل أمر قريش - ما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح ، فما كان لرجل ولا لامرأة أن يتزوج الا فيها ، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع الا فيها ، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده ، وكان القوم يفعلون ذلك ببنايتهم اذا بلغن الحلم ، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش - ذكورا كانوا أم اناثا - وأما أعضاء دار الندوة ، هذه ، فكانوا جميعا من ولد قصي ، وبعضا من غيرهم ، على شريطة أن يكون الواحد منهم قد بلغ الأربعين من عمره ، أو كان من ذوى القدرات الخاصة . وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة في آن واحد ، يديرها الملا من القوم - الذين كانوا يشبهون الى حد ما أعضاء مجلس الشيوخ الاثيني ، ويتكونون من رؤساء العشائر وأصحاب الرأي والحكمة فيهم للنظر فيما يعترض القوم من صعاب(١) .

وكان قصي شديد العناية بعمارة البيت الحرام ، الذي يزعم البعض أنه أعاد بناءه ، ومن ثم فهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش، ثم سقفاها بخشب الدوم وجريد النخل ، كما كان أول من أظهر الحجر الأسود بعد أن دفنته (أياد) في جبال مكة ، ثم أوكل أمره من بعده الى جماعة من قريش ، حتى أعاد القوم بناء الكعبة عام ٦٠٦م (٣٥ ق.هـ) فوضعه في ركن البيت بازاء باب الكعبة في آخر الشرقي(٢) .

ولعل من أهم أعمال قصي أنه جعل وظيفة (سندانة الكعبة) - وهي خدمة البيت الحرام - من أهم الوظائف في عهده ، والأمر كذلك بالنسبة

(١) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثاني ، ص ٣٣٤ ،
اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) ، تاريخ اليعقوبي ، الجزء
الاول ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٢٣٧ - ٢٤٠ .
(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الرابع ، ص ٣٦٦ .

الى وظيفة «السقاية» بخاصة في بلد شحت مياهه في وقت كان يستقبل فيه أكثر مما يطيق من الحجيج ، ومن ثم فقد كان على صاحب السقاية توفير المياه لزوار البيت الحرام، حتى ييسر لهم مهمة الحج ، ويجعل الاقبال عليه كبيرا ، ومن ثم يذهب الاخباريون الى ان قصيا قد حفر بئرا اسماها «العجول» ، وكانت (الرفادة) - وهي خرج تدفعه قريش من أموالها الى قصي ليصنع منه طعاما للحجاج ممن لم يكونوا على ميسرة - من الوظائف الهامة التي ظهرت في مكة على أيام قصي . وتروى المصادر العربية أن قصيا قال لقومه : «انكم جيران الله واهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدوا عنكم» ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون من أموالهم فيصنع به الطعام أيام «منى» ، فجرى الامر على ذلك في الجاهلية والاسلام ، واخيرا كان من اعمال قصي «اللواء» وهي رئاسة الجيش في الحروب - ويسند لمن بيده اللواء ، يسلمونه اليه عند قيام الحرب . وتجمع المصادر الاسلامية على أن مولانا وسيدنا رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - قد ألغى جميع هذه المناصب يوم فتح مكة ، الا سقاية الحاج وسدانة الكعبة . ويجمع المؤرخون على أن قصيا إنما ظل يمسك بهذه الوظائف جميعا حتى وفاته ، كما ظل كذلك الرجل الوقور المطاع في قومه ، لا يخالف ولا يرد عليه شيء أقره ، ولعله في جمعه لرياسة الندرة وعقده اللواء وجمعه الرفادة ، يقابل في اصطلاحاتنا الحديثة ، رياسة السلطات التشريعية والحربية والمالية - أن جاز هذا التعبير (١) .

ولعل هذا هو الذى دفع «الاب هنرى لامانس» الى القول ، بأن مكة إنما كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية، وقد يكون لشخصية (قصي) الفذة تأثير في ذلك ، الا أن تنظيمات قريش لم تكن في واقع الامر ، الا تنظيما قبليا في جوهره، وإن بدأ في ظاهره تنظيما جمهوريا، لان الزعيم لم يكن يحمل لقباً معيناً ، فضلا عن أن هناك من الأدلة ما يشير الى أن العشيرة إنما كانت تتمتع بحرية كاملة ، ولا تخضع لسلطان غيرها في كثير من

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

الاحايين ، بل أن كثيرا من الافراد إنما كانوا يخرجون على رأى العشيرة نفسها ، ومن النوع الاول عدم مشاركة بنى زهرة لقريش فى موقعة بدر ، رغم موافقتها على القتال وخروجها اليه ، بل ان بنى عدى لم يخرجوا للقتال اصلا ، ومن النوع الثانى خروج ابو لهب على رأى بنى هاشم ، وانضمامه الى بقية بطون قريش فى مقاطعتها لبنى هاشم ، وبقاء العباس على علاقاته الودية ببطون قريش ، رغم تضامنه مع بنى هاشم ، هذا الى جانب أن العشيرة إنما كانت تخرج أحيانا على رأى مجلس القبيلة ، ومثال ذلك اجتماع بنى هاشم والمطلب على حماية المصطفى - ﷺ - ومواجهة قريش . ويرى الدكتور طه حسين ، أنه من العسير أن نحدد لمكة نظاما من نظم الحكم التى يعرفها الناس ، فلم يكن لها ملك ، ولم تكن جمهورية ارستقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة ، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة أيضا ، ولم يكن لها طاغية يدير أمورها على رغمها ، وإنما كانت قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصائص قبائل البادية ، فهى منقسمة الى احياء وبطون وفصائل . والتنافس بين هذه جميعا قد يشتد حيناً ويلين حيناً آخر ، ولكنه لا يصل الى الخصومات الدامية ، كما هو الحال فى البادية ، وأمور الحكم ، تجرى كما تجرى فى البادية ؛ وكل ما وصلت اليه قريش من التطور فى شئون الحكم هو انها لم يكن سيد أو شيخ يرجع اليه فيما يشكل من الامر ، وإنما كان لها سادة أو شيوخ يتكون منهم مجلس يجتمع فى المسجد الحرام أو فى دار الندوة (١) .

أما قانون أهل مكة ودستورهم فهو : (أنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون) . فهم محافظون حريصون على كل ما وصل اليهم ، لا يريدون له تغييرا ولا تبديلا ، مهما بدا لهم فى الجديد من منطق وحق ، فملا مكة اناس محافظون لا يقبلون تجديدا ولا تطويرا ، سنتهم تتعلق بالماضى وكره الثورة والخروج عن العرف والعادة. مهما كانت . فالعرف جرى الناس عليه ، فلا خروج على العادة والعرف . أما المستهين بالعرف المخالف

(١) أنظر فى ذلك :

محمد بيرومى مهران ، نفس المرجع السابق ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

لسنة الألباء والاجداد ، فيعاقب حتى يعود إلى رشده وصوابه . وهم باستماتتهم في التمسك بالماضي كيف كان ، ويتطرفهم في المحافظة على العرف ، إنما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية ، فأنعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد المحافظة على مصالحها ، استنادا إلى العادات . هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجل ، وعلى الناس الطاعة والانقياد .

ومن الناحية المعمارية فقد طرأ تغيير في نظام بيوت مكة في هذا العهد ، فقد أصبحت بيوت أثريائها وساداتها مقامة بالحجر ، وبها عدد من الغرف ، ولها بابان متقابلان ، باب يدخل منه الداخل ، وباب يقابله يخرج منه الخارج ، ولعلها بنيت على هذا الوضع لتتمكن النساء من الخروج من الباب الآخر عند وجود ضيوف في رحبة الدار عند الباب المقابل ، وكان لبعض الدور (حجر) عند باب البيت يجلس تحته ليستظل به من أشعة الشمس . هذا ولم تعمز بطن مكة ولم تبني البيوت المستقرة فيه إلا منذ أيام (قصي) أما قبل ذلك فقد كان الناس يسكنون (الظواهر) : ظواهر مكة ، أي أطرافها وهي مواضع مرتفعة تكون سفوح الجبال والمرتفعات المحيطة بالمدينة ، أما باطن مكة وهو الوادي الذي فيه البيت ، فقد كان حرما آمنا لا بيوت فيه ، أو أن بيوته كانت قليلة حصرت بسدنة البيت وبمن كانت له علاقة بخدمته ، لذلك بنيت فيه الشجر حتى غطت سطح الوادي ، من السيول التي كانت تسيل إليه من الجبال .

ولما مات (قصي) دفن (بالحجون) وقد كان القوم يزورون قبره ويعظمونه ، والحجون جبل بأعلى مكة ، كان أهل مكة يدفنون موتاهم فيه ، فعليه مقبرة جاهلية من مقابر مكة القديمة ، وقد ذكر في شعر جاهلي .

هذا وقد أنجب (قصي) ثلاثة أبناء - عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى - ورغم أن عبد الدار كان أكبر أخوته ، إلا أن عبد مناف كان أكثر شهرة ، وأرفع شأنا وأعظم مهابة ، ومن ثم فقد رأى قصي أن يعرض عبد الدار عما فقد من مقومات الزعامة ، فأسند إليه كثيرا من الوظائف ليقاوم شخصية أخيه القوية ، ومن هذه الوظائف أنه جعل له دار الندوة والحجابه

(أى حجابة الكعبة واللواء ، فكان يعقد لقريش الويتهم ، وسقاية الحجيج والرفادة . وما أن تمضى الأيام ويرث الابناء الأباء ، حتى يقوم النزاع بينهم ، وينتهى ذلك بأن يتولى عبد المناف السقاية والرفادة ، أما الحجابة واللواء ورياسة دار الندوة فقد ظلت فى بنو عبد الدار(١) . وتولى هاشم بن عبد المناف السقاية والرفادة ، وقد ذكرت رواية الاخباريين أن اسمه (عمرو) وهو أكبر أبناء عبد مناف ، وقد قيل له هاشم ، لانه أول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه . وذكر أن قومه من قريش كانت قد أصابتهم لزمة وقحط ، فرحل الى فلسطين فاشترى منها الدقيق ، وقدم به الى مكة ، وبذل طعامه لكل نازل بالبلد المقدس او وارد عليه(٢) .

كذلك يذكر الاخباريون أنه هو أول من من الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف ، وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها ، فنسب اليه أنه أول من منها . وقد قام (هاشم بن عبد المناف) بحفر بئرا عرفت بـ(بذر) ، وبئرا آخر يقال لها بئر (جبير بن مطعم) فيسر بذلك لمكة الماء ، وساعد على اكثاره عندهم ، واخذ (هاشم) عهدا على نفسه بأن يسقى الحجاج ويكفيهم بالماء ، قرية الى رب البيت ما دام حيا .

ومن أعظم المآثر التى تنسب (لهاشم بن عبد المناف) أنه عقد بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع امير غسان ، معاهدة حزن جوار ومودة ، وحصل من الامبراطور الرومانى على الاذن لقريش بأن تجوب الشام فى أمن وطمانينة ، وقد ذكران تاجرته قد وصلت الى (غزة) وربما توغل نحو الشمال ، حتى زعم أهل الاخبار أنه ربما بلغ (أنقرة)(٣) .

-
- (١) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .
(٢) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الثانى ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .
(٣) اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر) تاريخ اليعقوبى ، الجزء الاول ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

وينسب كذلك الى (هاشم بن عبد المناف) ايلاف قريش والمقصود بالايلاف عهود ومواثيق مع سادات القبائل في مقابل اسهامهم باموالهم وبحمايتهم لقوافل قريش في مقابل ضرائب معينة تدفع لهم ، وسهاما من الارياح تؤدي لهم ، مع اعطائهم رؤوس اموالهم وما ربحته في الاسواق ، وبذلك كسبت قريش حياذ هذه القبائل ودفاعها من المصالح . كذلك فقد عقد نوفل والمطلب حلفا مع فارس ، ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن . ويذهب الاخباريون الى ان هاشما وعبد شمس توأمان ، وان احدهما ولد قبل الآخر واصبح له ملتصقة بجبهة صاحبه ، فنحيت فسال الدم ، فقليل يكون بينهما دم ، ومن ثم فانهم يرون ان أمية بن عبد شمس قد حسد هاشما على رياسته واطعمه فتكلف أن يصنع مثله ، ولكنه قد عجز ، ومن ثم فقد شمت به ناس من قريش وتنافر هو وهاشم ، وانتهى الامر بجلاء أمية عن مكة عشر سنين ، فكان ذلك أول خلاف بين بنى هاشم وبنى أمية ، وفي الواقع كما يقول الاستاذ العقاد ، فلقد كان بنو هاشم اصحاب عقيدة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أمية اصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء ، وينعقد الاجماع - أو ما يشبه الاجماع - على اخبار الجاهلية التي تنم على هذه الخصال في الاسرتين ، وبقي الكثير منها الى ما بعد قيام الدولة الاموية فلم ينفدوه .

وورث عبد المطلب زعامة ابيه هاشم ، واسم عبد المطلب هو (شيبه) وقد عرف بين الناس بعبد المطلب ، لان عمه (المطلب) لما حملة من يثرب الى مكة ، كان يقول للناس ، هذا عبدى ، أو عبد لى ، فسمى من ثم بعبد المطلب ، وشاعت بين قومه من أهل مكة حتى طغت على اسمه ، وقيل أنه عرف بين أهل مكة بـ(شيبه الحمد) لكثرة حمد الناس له ، وكان يقال له (الفياض) لجوده ، و (مطعم طير السماء) لانه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش على رؤوس الجبال . هذا وقد تولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فأقامها للناس ، واقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم أمره فيهم . وفي الواقع ان عبد المطلب لم يكن عظيما عند قريش فحسب ، وانما كان عظيما كذلك في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ،

ومن ثم فإن المؤرخين يرون أنه قد ذهب الى اليمن مهثئا بالملك ، عندما تولى «معد يكرب» (سيف بن ذى يزن) عرش اليمن ، بعد أن نجح بمساعدة الفرس في طرد الاحباش من اليمن ، مما يدل على ان الرجل كان ذو مكانة عند ملوك العرب ، تعطية الحق في الاتصال بهم ، ثم تهنئتهم بعروشهم ، كما يدل في الوقت نفسه على مكانته عند قريش ، حتى انه كان رئيسا لوفدها في هذه المهمات العظيمة ، والتي ربما كان من نتائجها ان يأخذ ايلافا لقومه من ملوك اليمن ، ومن ثم فقد اصبحت قريش تنظم عيرا الى اليمن في كل عام(١) .

هذا وتذهب المصادر العربية الى ان عبد المطلب قد لقي الكثير من المتاعب في توفير المياه للحجيج عندما تولى امر السقاية والرفادة ، وذلك بسبب دفن زمزم ، ربما منذ ايام جدهم ، وزاد الامر صعوبة ان مكة كانت آنذاك تمر بفترة قاسية ندرت فيها الامطار وجفت مياه الابار - او كادت - في وقت كان موسم الحج قد بدت طلائعه ، وهنا رأى عبد المطلب - فيما يرى النائم - انه يؤمر بحفر طيبة ، وحين يسأل عنها لا يتلقى جوابا . غير ان الرواية تتكرر اياما ثلاثة ، يؤمر فيها عبد المطلب بحفر «برة» ثم (المضنونة) ثم (زمزم) ، وحين يسأل عبد المطلب عن (زمزم) يجيبه «الهاتف» تراث من ابيك الاعظم ، لا تتزف ابدا ولا تدم ، تسقى الحجيج الاعظم ، وهى بين الغرث والدم ، عند نقرة الغراب الاعظم عند قرية النمل وينجح عبد المطلب في حفر زمزم ، غير ان قريشا سرعان ما تطلب بحقها في زمزم ، على اساس انها بئر ابيهم اساعيل ، وان انتهت الامور الى جانب عبد المطلب(٢) .

هذا وقد تميز عبد المطلب - جد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - باريحة لا نستطيع ان نسميها الا بالمطلبية . اريحة فريدة في نوعها ، لا تدل الا على ولا تصدر الا منه ، وكانت كلها مزيجا من الانفة والكرم والرصانة .

-
- (١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٧٧ - ٧٨ .
(٢) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٤١٢ - ٤١٣ .

والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر واثابة ، وذكر عنه انه كان يأمر اولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الاخلاق ، وينهاهم عن دنيات الامور ، وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه ، وان وراء هذه الدار دارا اخرى يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسيء باسائه ، ويقال انه رفض في آخر عمره عبادة الاصنام ووحد الله .

وروى عنه انه وضع سننا وردت فيما بعد في القرآن الكريم واقترتها سنة النبي - ﷺ - منها الوفاء بالنذر وتحريم الخمر والزنا ، وان لا يطوف بالبيت عريان ، وذكر انه كان اول من سن دية النفس مئة من الابل ، وكانت الدية قبل ذلك عشرة من الابل ، فجرت في قريش والعرب مئة من الابل واقرها رسول الله على ما كانت عليه . والجدير بالذكر ان عبد المطلب لم يكن أغنى رجل في قريش ، ولم يكن سيد مكة الوحيد المطاع كما كان قصي ، اذ كان في مكة رجال كانوا أكثر منه مالا وسلطانا ، انما كان وجيه قومه ، لانه كان يتولى السقاية والرفادة ويثر زمزم ، فهي وجاهة ذات صلة بالبيت . ويروى أهل الاخبار أن عبد المطلب كان قد نذر : لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ان يذبح احدهم . فلما تكاملوا عشرة ، هم بذبح احدهم ، ف ضرب بالقداح فخرج القداح على عبد الله ، ولكن القوم منعوه ، ثم اشاروا عليه بأن يرضى الله بنحر ابل فدية عنه ، وكان كلما ضرب القداح يخرج على عبد الله حتى بلغ العدد مئة فخرج على الابل ، فنحرها بين الصفا والمروة ، وتركها في الفضاء لكل من يريد لحمها من انسى أو وحش أو طير (١) .

وتعد حملة (ابرهة الحبشى) من أهم الاحداث التى وقعت فى حياة عبد المطلب ، وقد أرخت قريش بوقوعها ، وصارت الحملة مبدء التاريخ ، لاهميتها بالنسبة لمكة ، وقد تركت اثرا كبيرا فى نفوس قريش ، بدليل تذكير القرآن الكريم لهم بما حل بـ (أصحاب الفيل) . وقد اشار عبد المطلب على قومه بالتحرز بشعاب الجبل ، وبترك البيت وشأنه لان للبيت ربا يحميه ، وبعدم التحرش بالحبش وتركهم وشأنهم ، والظاهر أنه وجد أن عدد

(١) الطبرى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ - ٢٤٣ .

الاحباش كان كبيراً وان من غير الممكن مقاومتهم والدفاع عن مكة في الوادي، ثم انها حرم آمن لا يجوز القتال فيه ، وليس فيها حصون وآطام يتحصن بها ، لهذا رأى ضرورة الرحيل عن الوادي والاحتساء برؤوس الجبال والاشراف منها على الدروب والطرق ، فذلك أنفع وأحمى للمال والنفس ، ثم انه من الممكن مباغطة الحبش منها ومهاجمتهم وانزال الخسائر بهم حين يشاؤون ويقررون ، وقد نجحت فكرة عبد المطلب ، ولم يصب أهل مكة بسوء أما البيت الحرام فقد حماه الله من اصحاب الفيل وهلكوا جميعاً .

ومات عبد المطلب بعد ان جاوز الثمانين وكان ذلك في حوالى عام ٥٧٨م ، وقد دفن بالحجون وذكر انه لم يقم بمكة سوق اياما كثيرة لوفاة عبد المطلب ، ومن ولد عبد المطلب : عبد الله وهو والد الرسول ، وأبو طالب والزبير ، وعبد الكعبة ، وعاتكة وبرة وأميمة .

ولم يكن ولد عبد المطلب من رجال مكة الاثرياء ، وكل ما كان عندهم ثراء يروحي ، استمدوه من أسم (قصي) وهاشم . فكانوا من وجهاء القوم من هذه الناحية ، أما من ناحية المادة والمال فلم يكونوا من السباقين فيه ، لقد كانوا وسطا ، وكانوا تجارا يخرجون بتجارتهم على عادة فيهم الى بلاد الشام ، أو الى اليمن ، فيبيعون ويشترون ، وقد توفى (عبد الله) وهو في طريقه من غزة الى مكة .

وتعد (ايام الفجار) من الحوادث المؤثرة في تاريخ مكة ، وقد سميت بذلك لانها كانت في الاشهر الحرم ، ويعد (فجار البراض) الذي وقع بعد عشرين سنة من عام الفيل هو اعظم ايام الفجار ، وقد اطلق عليه ايضا (يوم نخلة) ، وكان البراض قد قدم بالطيعة الى مكة ، فأكلها وهي لطيمة (النعمان بن المنذر) ، التي وضع النعمان زمامها بيد (عروة بن عتبة الرحال) وكان سمي بالرحال لرحلته الى الملوك ، فكان ذلك مما أهاج الحبيب ، وقد رأس قريش حرب بن أمية ، وكان موضعه في القلب ، وعبد الله بن جدعان في الميمنة ، وهشام بن المغيرة في الميسرة ، والتقوا بـ«نخلة» فاقبلوا حتى دخلت قريش الحرم ، وجن عليهم الليل ، فكان اليوم

لهوازن . ثم رأس (الزبير بن عبد المطلب) بنى هاشم ، وكان في جملة من شهد (حلف الفضول) في دار (عبد الله بن جدعان) .

وحلف الفضول من الاحداث الهامة التي يذكرها أهل السير والاختبار في تاريخ مكة ، واذا صح ما يذكرونه من انه عقد بعد الفجار بشهور ، وفي السنة التي وقع فيها الفجار الذي حضره الرسول (فجار البراض) ومن ان الرسول حضره وهو ابن عشرين سنة ، فيجب ان يكون عقد هذا الحلف قد تم في حوالي السنة ٥٩٠م ، ويذكر ان الذي دعا اليه هو الزبير بن عبد المطلب .

وقد شهد حلف الفضول بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم ، وذكر انهم تعاهدوا على ان يكونوا مع المظلوم حتى يؤدي اليه حقه . وفي التآسي في المعاش ، كذلك تحالفوا الا يظلم احد بمكة الا قاموا معه حتى ترد ظلامته .

أما عن سبب تسمية هذا الحلف (بحلف الفضول) فقد ذكر البعض انه سمي بذلك لانهم تحالفوا ان يتركوا عند احد فضلا يظلمه احدا الا اخذوه له منه ، وذهب آخرون الى انه سمي بذلك الاسم تشبيها بحلف كان قديما بمكة أيام جرهم على التناصف والاخذ للضعيف من القوى والغريب من القاطن ، وسمى حلف الفضول ، لانه قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل ، ف قيل حلف الفضول جميعا لاسماء هؤلاء ، وذكر انه سمي حلف الفضول ، لان قريشا قالت هذا فضول من الحلف ، فسمى حلف الفضول .

وقد ذكر الاخباريون ان هدف هذا الحلف انصاف المظلومين من أهل مكة ، من الضعفاء والمساكين ومن لا يجد له عونا يحميه ويدافع عن حقوقه ، وانصاف الغرباء الوافدين على مكة من حجاج أو تجار ، ممن يعتدى عليهم فيأخذ أموالهم ويأكلها ولا يدفع لاصحابها عنها شيئا ، ويعتقد ان هذا الحلف استمر قائما الى وقت ما في الاسلام ، ثم فقد بعد ذلك قيمته ، فمات . فورد انه كان بين (الحسين بن علي بن ابي طالب) وبين (الوليد بن عتبة بن ابي سفيان) منازعة في مال متعلق بالحسين ، فمأطله الوليد . (فقال الحسين للوليد : احلف بالله لتنصفني من حقي أو لأخذن سيفي ثم لاقومن

بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لادعون لحلف الفضول ، فلما بلغ ذاك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه) . وتدخل مكة بعد ذلك في طور جديد ببداية دعوة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم الى عبادة الاله الواحد الاحد ونبذ عبادة الاصنام(١) .

(١) انظر عن حلف الفضول :

عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٨٣ ، ابن كثير ، المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثاني ، ص ١٧ وما بعدها .

الفصل التاسع

المدينة المنورة

المدينة المنورة

كان تعرف المدينة المنورة قبل هجرة النبي سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام باسم (يثرب) . وتعددت الاشارات التي ظهر فيها هذا الاسم ، وأقدم اشارة لدينا وردت في النصوص البابلية التي ترجع الى القرن السادس ق م ، وقد ورد فيها قيام ذلك البابلي نبونيت (٥٥٥ - ٥٣٩ ق م) بحملة الى بلاد العرب احتل فيها بعض المدن ومنها «اتريبو» وهي «يثرب» .

وقد ورد اسم «يثرب» في جغرافية بطليموس تحت اسم «يثربه» (١) ، وعرفها الاخباريون باسم «أثرب» و «يثرب» ورأوا أنه نسبة الى «يثرب ابن قانيه من ولد سام بن نوح» ، بينما رأى آخرون أنها نسبة الى «يثرب» ابن قائد بن عبيل .

ولقد ورد اسمها في القرآن الكريم «المدينة» وفي ذلك قوله جل من علا في سورة التوبة (الاية ١٢٠) «ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» (٢) . ويتجه البعض الى القول بأن هذا الاسم مأخوذ من الكلمة الآرامية «مدينتا» .

ولقد كثرت أسماء المدينة في العصر الاسلامي ، ومن أهم هذه الاسماء التي عرفت بها المدينة و يثرب وطيبة و العاصمة و المباركة و المختارة و المقدسة و قرية الانصار و سيدة البلدان و دار الهجرة و بيت الرسول ومدينة الرسول (٣) .

وفيما يتصل بالتتبع التاريخي لتأريخ «المدينة» فان اعتمادنا بالدرجة الاولى يقع على روايات الاخباريين ، وذلك نظرا لعدم وجود أدلة أثرية أو

(1) Ptolemy, VI, 7, 31.

(٢) سورة التوبة ، آية ١٢٠ .

(٣) انظر : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٣١ - ٣٣٤ .

نصية ترجع الى تاريخها القديم ، وذلك نظرا لعدم القيام بحفريات علمية في هذه المنطقة ، وعلى ذلك فانه تجدر الاشارة الى طبيعة المعلومات المستقاة من روايات الاخباريين وضرورة تروخي الحذر فيما تقدمه من معلومات . وقد عثر في بعض الاماكن القريبة من «يثرب» على كتابات جعلية لم تعرف طبيعتها ، وذلك نظرا لعدم دراستها دراسة علمية حتى الآن .

وتشبه «يثرب» «مكة» في كونها محرومة من الحماية الطبيعية ، فلم يكن يحيط بها سور أو حائط أو خندق يدفع المغيرين عليها ، ومن ثم فقد كان أهلها يدافعون عن أنفسهم بالتحصن في بيوتهم ويسد منافذ الطرق أثناء الخطر . أما الاغنياء الموسرون فكانوا يعتمدون على أطامهم وحصونهم وقصورهم ، يلجأون اليها عند الشدة ، ويرمون أعداءهم من فوق السطوح بالسهام والحجارة ، وقد تحارب الاوس والخزرج على الاطام ، وأرخوا بتلك الحرب ، فعرفت باسم «عام الاطام» .

ويلاحظ أن جر يثرب الطف من جو مكة ، ولم يعاني أهلها ما عانى أهل مكة من قحط في الماء ، فالماء متوافر بعض الشيء في المدينة ، وهو غير بعيد عن سطح الارض ، ومن الممكن الحصول عليه بحفر الآبار ، ولهذا صار في امكان أهلها زرع النخيل واقامة البساتين والحدائق^(١) .

وحسب المعلومات المتاحة لنا فانه يمكن القاء الضوء على عناصر السكان الذين سكنوا المدينة وذلك حسبما ورد في روايات الاخباريين الذين يذكرون أنه تتابع على مكن المدينة العماليق ثم اليهود ثم العرب .

وفيما يتصل بالعماليق فيرجعون بنسبهم الى «عملاق بن أرفخشذ بن سام» وينسبون لهم أنهم أول من زرع النخيل بالمدينة وأول من شيدوا فيها المباني واتخذوا الضياع^(٢)

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٣٣٤ - ٣٣٩ .
(٢) ياقوت الحموي ، المرجع السابق ، الجزء الخامس ، ص ٨٤ (مادة مدينة) .

أما عن اليهود فتعددت رواياتهم وتباينت تباينا كبيرا ، فترى بعض الروايات أن وجودهم يرجع الى أيام سيدنا موسى عليه السلام الذي بعث جيشه الى سكان هذه المدينة من العماليق وأمرهم بقتل جميع سكانها ، وأنه لامر ما بقى هذا الجيش في المدينة ، وكانوا أول من سكنها من اليهود ، إلا أن هذا الرأي لا يحالفه التوفيق الى حد بعيد . وتذهب رواية ثانية الى أن موسى عليه السلام قد حج الى بيت الله الحرام ومعه بعض من بنى اسرائيل ، وعند عودتهم وجدوا في موضع المدينة أوصاف بلد النبي المذكور عندهم في التوراة بأنه خاتم النبيين ، وعلى ذلك فقد أقاموا في مكان سوق بنى قينقاع ، وكانوا هم أول من سكن المدينة وهو أمر عار من الحقيقة كذلك .

وتتجه بعض الآراء الى أن اليهود قد قدموا الى المدينة في عهد «داود عليه السلام» (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق م) وذلك نتيجة الانقسام الذي حدث بين داود وابنه أبشالوم ، وهذه الرواية تحريف لما جاء في التوراة عن الأحداث التي ذكرتها عن أخريات أيام داود (١) .

وهناك من يجعل هذا الوجود في القرن الثامن قبل الميلاد بعد سقوط السامرة في أيدي الآشوريين وذلك اعتمادا على ما قسم به الآشوريون من تهجير عناصر السكان الى أماكن متفرقة من بلاد الشام والعراق وفارس ، إلا أنه يقف في وجه هذا الرأي عدم وجود إشارة في التوراة أو في النصوص الآشورية الى تهجير اليهود من السامرة الى يثرب (٢) .

ويرى البعض أن هجرة اليهود قد تمت في القرن السادس قبل الميلاد بعد سقوط اليهودية وتدمير الهيكل على يد «نبوخذ نصر» وأبعد كثير من اليهود الى بابل وهو ما عرف «بالمسي البابلي» (٣) ، ففي تلك الأثناء فر كثير من اليهود الى مصر بعد مقتل نائب «نبوخذ نصر» في اورشليم، وترى هذه الروايات أن بعضهم قد فر الى يثرب ولكن لا توجد أي إشارة الى ذلك .

(١) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٢) محمّد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٣) Dózy, R., Die Israeliten zu Mekka, 1864, p. 135.

وترجع الأدلة التاريخية أن وجود اليهود في يثرب إنما يرجع الى القرنين الاول والثاني بعد الميلاد (١) ، وما يؤيد هذا الاتجاه المناخ السياسي الموجود في تلك الفترة ، وذلك بعد نجاح الرومان في السيطرة على الشام ومصر في القرنين الاول والثاني الميلاديين ، فقر الكثير من اليهود الى بلاد العرب ، وكانت أكبر الهجرات اليهودية بعد عام ٧٠م وذلك في أعقاب الثورة اليهودية ضد الرومان وقيام الرومان بالقضاء عليها بعنف شديد ، فدمروا المدينة المقدسة وتم احراق المعبد اليهودي ، وكان من نتيجة ذلك فرار مجموعات كبيرة من السكان الى بلاد العرب ، حيث وصل بعضهم الى يثرب ، وتتابع الهجرات اليهودية في النصف الاول من القرن الثاني الميلادي نتيجة ثورة اليهود على أيام هادريان ، وكان من نتائجها القضاء تماما على اليهود بكيان سياسي في فلسطين ، فهاجر كثير منهم الى بلاد العرب حيث وصل بعضهم الى يثرب . وهم الذين كونوا الجالية اليهودية في شمال الحجاز وفي يثرب بصفة خاصة ، وزاد عددهم بمرور الزمن حتى كان معظم السكان من اليهود عند ظهور الاسلام ، وتركز اليهود في ثلاث قبائل رئيسية هي بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، وذلك بجانب بطون وعشائر يهودية أخرى .

ويتجه معظم المؤرخين الى القول بأن يهود بلاد العرب إنما هم من يهود فلسطين ، وعلى أنه يجب ألا يفهم من ذلك أن جميعهم من أصل يهودي ، فهناك الكثير من العرب المتهودين ، ويشير الى ذلك أسماءها العربية الاصلية ومنها بعض من الاوس والخزرج وبنى الحارث وقوم من غسان .

وفيما يتصل بوجود العرب فيرى الاخباريون أن القبائل العربية من الاوس والخزرج أخوان .، فهما أبناء «حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزريقاء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الظريف بن امرئ القيس

(١) جواد على ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء السادس، ص ٥١٤ .

البطويق بن ثعلبة بن مازن بن الازد» الذى ينتهى نسبه الى يعرب بن قحطان . ويرى بعض الباحثين أن كلمة (الاولس) هى اختصار لجملة (اولس مناة) ، والاولس هو جد الاولس ، أما (مناة) فهو صنم من أصنام الجاهلية ، وينقسم الاولس الى عدة بطون ، منها : عوف ، والنبيت ، وجشم ، ومرة ، وأمرؤ القيس . أما الخزرج ، فهم أخوة الاولس - كما سبق القول - وهم ينقسمون أيضا الى عدة بطون ، من أشهرها : بنو النجار ، والحارث ، وجشم ، وعوف ، وكعب ، ويلاحظ أن نجشما وعوفا هما أسما بطنين من بطون الاولس .

وترى هذه المصادر أنهم قد هاجروا من اليمن الى يثرب بعد تعرض سد مارب لسيل العرم ، ولا يمكن تحديد زمن هذه الهجرة على وجه التحديد نظرا لتعرض سد مارب للتهدم عدة مرات . وإن كانت الروايات العربية تشير الى أن هذه الهجرة قد حدثت فى القرن الرابع قبل الهجرة (١) .

وكانت هناك أسباب أخرى بجانب تهدم سد مارب أدت الى هجرة هذه القبائل الى شمال الجزيرة العربية ومنها ضعف الحكومة فى اليمن وظهور المشاحنات الدينية بين القبائل والتدخلات الخارجية فى شئون اليمن الداخلية ، وأدى كل ذلك الى اضطراب الامن فى البلاد ، وزاد الامر سوءا تحول الطرق التجارية ، ولم تعد اليمن صاحبة السيادة عليها ، كما لم تعد الوسيط الوحيد فى نقل التجارة الى المناطق الشمالية ، وأدى ذلك الى كساد الاحوال الاقتصادية (٢) ، وهكذا كان للاحوال الاقتصادية والسياسية أثرها الكبير فى دفع العديد من القبائل العربية الى الهجرة الى شمال الجزيرة العربية .

ولقد أقام الاولس والخزرج فى المدينة بجانب اليهود الذين سمحوا لهم بالاقامة بجوارهم للاستفادة من خبراتهم فى مجال الزراعة والتجارة ، وعاش

(١) جرجى زيدان ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ .
(٢) جواد على ، الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الاول ، ص ٢٤٦ .

الآوس والخزرج في ضيق من العيش ، في أول الأمر ، لعدم قدرتهم على مجابهة اليهود ، إلا أنهم بمرور الزمن أخذوا يتطلعون إلى وضع اقتصادي أفضل ، وكانت مسيلتهم في ذلك أما مشاركة اليهود في تملك الأراضي الخصبة أو الاستيلاء عليها منهم (١) .

ويذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن تطلع الآوس والخزرج إلى مشاركة اليهود والتغلب عليهم إنما يرتبط بالأحداث الدولية حينئذ ، ويرون أن الدولة البيزنطية كانت هي الحركة لهذه الأحداث ضد اليهود ، فهي التي قضت على اليهودية في اليمن بعد حملة أبرهة ، ثم دفعت بالغساسنة إلى التدخل في شئون يثرب ، ومناصرة الآوس والخزرج ضد اليهود .

ومن جهة أخرى ، فإن هناك من الباحثين من يعارض هذا الاتجاه ، ويرى أن النزاع كان محليا بين العرب واليهود ، وأن مرجعه إلى الظروف الاقتصادية واعتماد السكان على استثمار الأراضي الزراعية ، ويعتمدون في ذلك على بعض الحجج التي لعل من أهمها هو استمرار الصراع بين الآوس والخزرج أنفسهم بعد تغلبهم على اليهود ، واشتراك كل طوائف المدينة فيه تبعا لمصلحتها الاقتصادية ، وهو ما سنشير إليه .

وانتهى الصراع ما بين الآوس والخزرج واليهود بغلبة الآوس والخزرج وأصبح لهم كيان سياسي بارز في يثرب يفوق ما كان لليهود ، وكان لذلك أثره في قيام التنافس والصراع بين الآوس والخزرج .

فقد كان للتنافس على الزعامة في يثرب أثره في وجود مشاحنات بينهما ، وزاد من هذه المشاحنات رغبة كل من الفريقين في الاستيلاء على ما عند اليهود ، وزاد النيران اشتعالا موقف اليهود الذين أخذوا في الإيقاع بينهما ، وإثارة الأحقاد والضغائن بينهم ، واشتعلت نيران الحروب بينهما لاقبل الأسباب ، وكان معظمها غير ذي بال .

وأول حرب وقعت بين الآوس والخزرج - حسب رواية الأخباريين -

(١) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٤٦٠ .

هى حرب «سمير»^(١) وحسب هذه الرواية ، فإن سفيروا وهو من الأوس ، شتم رجلا اسمه كعب بن العجلان ، كان ضيفا على مالك بن العجلان رئيس الخزرج ، ثم مالبث سمير أن قتل كعب ، ونشبت الحرب بين الأوس والخزرج لاختلافهما حول دية كعب ، وانتهى الامر الى احتكامهم الى «المفذر بن حرام» الخزرجى ، وهو جد حسان بن ثابت ، الذى قضى بينهما ، وانتهت الحرب بينهما ، الا أنها تركت ندوبا فى النفوس قلما تندمل ، فتمكنت العداوة منهما وتعددت الحروب .

ومن هذه الحروب التى دارت لاسباب لا قيمة لها ، وما كانت لتقع لولا هذه العصبية الضيقة التى يثيرها فى الغالب افراد لا منازل كبيرة لهم فى المجتمع ، فإذا وقع على أحدهم اعتداء ، نادى قومه للاخذ بثاره ، فتثور الحرب ، حرب يوم السراة ، وحرب بنى وائل بن زيد الأوسيين ، وبنى مازن بن النجار الخزرجيين ، وحرب حاطب ، ويوم الربيع ، وحرب الفجار لاولى .

وكان آخر الحروب التى وقعت بين الأوس والخزرج هى الحرب المعروفة باسم «يوم بعاث»^(٢) وقد حدثت قبل الهجرة بخمسة أعوام . وفى هذه الحرب حاولت كل من الأوس والخزرج استمالة البطون اليهودية اليها ، فتحالفت الأوس مع بنو قريظة والنضير وبنى مزينة ، أما الخزرج فقد تحالفوا مع بنى أشجع وبنى جهينة .

ونشبت الحرب بين الفريقين عند حصن يدعى «بعاث» وانهزم الأوس فى اليوم الاول ، غير أن موازين الحرب تغيرت نتيجة لمقتل قائد الخزرج ، فانتهاز الأوس الفرصة ، وهزموا الخزرج شر هزيمة ، فاخذوا يقتلون

(١) انظر عن هذه الحرب :
ابن الاثير ، المرجع السابق ، ص ٦٥٨ - ٦٦٢ ، جرجى زيدان ،
المرجع السابق ، ص ٣٦١ .

(٢) انظر :
ابن خلدون ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ،
ابن الاثير ، المرجع السابق ، ص ٦٨٠ - ٦٨٤ .

رجالهم ويحرقون منازلهم وبساتينهم ، ولم ينقذ الخزرج من الكارثة سوى خشية الاوس من استعادة اليهود لمكانتهم السابقة ، بعد أن وضحت نياتهم في اذلال الخزرج ونهب أموالهم ، ومن ثم فقد اكتفى الاوس بالقضاء على روح التسلط في الخزرج .

وقد أضعفت هذه الحرب بطون يثرب كلها ، وأضعفت فيهم روح العداوة والحق في النفوس ، وان ظلت البذور موجودة ، حتى شرفت المدينة بقدوم سيد الخلق سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فأمرهما بالكف عن العداة ، ووجههما وجهة أخرى أنستهما الخصومة العنيفة التي كانت فيما بينهما . ونظرا لمساعدة أهل يثرب للرسول عليه الصلاة والسلام ومناصرتهم له وللمهاجرين ، فقد عرف الاوس والخزرج في الاسلام بـ(الانصار) ، وصاروا يفتخرون بهذه التسمية ، حتى غلبت عليهم، وصارت في منزلة النسب .

الفصل العاشر

الأنبياء

الأنباط

تعد دولة الأنباط التي قامت على الاطراف الخارجية لمنطقة فلسطين في حوالي القرن السادس قبل الميلاد من أهم الدويلات التي قامت على طول حدود الصحراء من ساحل البحر الاحمر الى اطراف سوريا وفلسطين والعراق ، وقد اتخذت من البتراء عاصمة لها(١) .

وقد بلغت دولة الأنباط أقصى اتساعها الجغرافي أيام ملكها «حارثة الرابع» في أواخر القرن الاول قبل الميلاد والنصف الاول من القرن الاول الميلادي ، اذ ضمت منطقة واسعة الى جنوب البتراء بلغت حتى حدود العلا ، وكان وجودها واضحا في منطقة النقب ، ومن الشمال وصلت اقصاها بضم دمشق ، وهذا الاتساع في معظمه سياسي وتجاري . فمن الناحية السياسية كان التوسع ناحية الشمال أسهل لانهم لم يجدوا مقاومة تصدهم عنها ، ومن الناحية التجارية كان يمثل المكان الذي تتجه اليه السلع الآتية من الجنوب ، فهو الاتجاه الطبيعي الذي لابد من تأمينه ، وربما يكون ذلك السبب وراء عدم اتجاههم في بداية تاريخهم للسيطرة على المناطق الجنوبية ، لان الامتداد نحو الجنوب لم يكن يمثل أهمية لهم في هذه المرحلة أو ربما كان راجعا الى وجود قبائل قوية رأوا من مصلحتهم حينئذ أن لا يستثيروا عداوتها . وتعويضا عن ذلك قاموا بتوسيع رقعتهم في المنطقة الساحلية عند العقبة ، أما الامتداد جنوبا فلم يتجاوز الحوراء على الساحل وتيماء والحجر في الداخل(٢) .

وبعد تأمينهم للمنطقة الساحلية استولوا على المنطقة المعروفة اليوم باسم شرق الاردن حتى بلغوا حدود مادبا الى الشمال ، وان كانوا قد

(١) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٢٦ .

(٢) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٠٢ ، فيليب حتى ،

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

اتجهوا الى ماوراءها بعد ذلك . وحين اتسعت تجارة القوافل النبطية كان من الضروري لهم تأمين الطرق التجارية التى تذهب من البتراء مخترقة النقب الى غزة او العريش . ومن ثم عملوا على الاستيلاء على النقب كله لتأمين طرقهم التجارية من ناحية واستغلاله فى الزراعة من ناحية أخرى .

وعلى ذلك فان المناطق التى شملها الامتداد النبطى كانت ثلاث مناطق رئيسية انشاوا لهم فيها مراكز ومواقع استيطانية تعد بالمئات ، وهذه المناطق هى :

١ - منطقة النقب وكانت أهم مراكزهم فيها عبده وكرنب ونصتان وخلصه .

٢ - منطقة جنوبى سوريا وكانت أهم المراكز فيها - بالاضافة الى بصرى - هى سيعاء والسويداء .

٣ - المنطقة الواقعة شرقى نهر الاردن وتمتد جنوبا لتشمل جانبا من شمال الحجاز ، وبالإضافة الى البتراء أهم مركز نبطى فى هذه المنطقة فانها تحتوى على أكبر نسبة من المراكز النبطية ومنها موقع ذبيان ووادى روم وهو يقع عند نهاية شرق الاردن وبداية الجزيرة العربية ، ومن أهم المنشآت النبطية فى هذه المنطقة معبد لا يزال فى حالة جيدة نسبيا .

وفيما يتصل بالتسمية ، فهناك من الباحثين من يربط بين كلمة «نبط» ولفظة «نبايوت» التى وردت فى العهد القديم كاسم للابن البكر لاسماعيل ، ومن الباحثين من قرننها بلفظة «النبيايين» و «النبايتى» التى وردت فى نصوص الملك العراقى تجلات بلاسر الثالث ، ثم فى نصوص أسرحدون ، ومن بعد ذلك فى نصوص الملك آشور بانيبال .

وفيما يتصل بالمصادر التى نعتمد عليها فى دراسة التطور السياسى والحضارى لدولة الانباط ، فمن أهمها المصادر الاثرية وكتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان ، وما سجله المؤرخ اليهودى «يوسفوس فلافيوس ٣٧ - ١م» ، وسنتناول هذه المصادر بشيء من التفصيل فيما يلى :

أولا المصادر الاثرية :

بدأت الجهود الاثرية الجادة تأخذ طريقها في المواقع النبطية من عام ١٩٢٩ ، حينما قامت بعثة برئاسة جورج هورسفيلد بالعمل في موقع البتراء ، وتتابع بعد ذلك البعثات ، فتمكن البرايت من الكشف عن «مغلة كونواي» عام ١٩٣٤ وعن خزنة فرعون وقبر الجرة وقبر الجندي الروماني عام ١٩٣٦ . ومنذ عام ١٩٥٤ بدأت دائرة الآثار الاردنية بالقيام بأعمال حفظ وصيانة الآثار النبطية وكذلك عمليات الكشف المستمرة في هذه المواقع مما كان له الاثر الكبير في الكشف عن الكثير من الادلة الاثرية التي أضافت اللثام عن تاريخ وحضارة الأنباط .

ومن أهم هذه المكتشفات الاثرية ما كشف عنه من نقوش استدل منها على نوع كتابتهم ولغتهم وأسماء الاعلام الشائعة بينهم ، وأسماء الآلهة التي عبدوها ، وأسماء عدد من ملوكهم وملكاتهم ، وبعض شعائهم الدينية وغير ذلك من الامور .

ويمكن ان نميز في نقوشهم النماذج التالية :

- ١ - نقوش تذكارية قصيرة كالتى وجدت في البتراء والحجر وسيناء .
- ٢ - نقوش مدونة نصب المقابر .
- ٣ - نقوش معمارية يذكر فيها اسم المبنى والذي قام بتشيدده وتاريخ البناء ، وفي بعض الاحيان لا يكتب اسم المبنى اذا كان بناء شهيراً .
- ٤ - نقوش وقفية يذكر فيها اسم واهب الوقف والشئ الموقوف وأسم المعبود الذى قدم اليه الوقف .
- ٥ - نقوش تمثل توقيعات البنائين او توقيعات تدل على الملكية .
- ٦ - نقوش تكريميه وهى نادرة عند الأنباط .

ومن الراضح ان هذه النقوش على كثرتها لا تتحدث عن أحداث تاريخية ، ومن ثم تنحصر الاستفادة منها في معرفة أسماء الاعلام والآلهة والمباني ،

وعلى ذلك يستعين المؤرخ بالمصادر الاثرية الاخرى كالمسكوكات وبقايا المقابر والتماثيل والرسوم والمصنوعات المختلفة .

ثانيا - المصادر اليونانية والرومانية :

من أهم المؤرخين اليونان والرومان الذين كتبوا عن الانباط نذكر كلا من ديودور الصقلي واسترابو ، ولقد اعتمد ديودور الصقلي فيما كتبه عن الانباط على مصدر معاصر للانباط في القرن الرابع قبل الميلاد وهو «هيرونيموس القارديائي Hieronymus of Cardia» ، ويرجع الفضل لهذا المؤرخ في امطة اللثام عن تاريخ الانباط في هذه الفترة المبكرة (١) .

وأما استرابو فقد اعتمد في كتابته عن الانباط على بعض المصادر والتي من أهمها ماكتبه صديقين له أحدهما هو «أثنودور الطرسوسي Athenodorus of Tarsus» المتفلسف الرواقى الذى ولد وعاش في البتراء وخبر حياة أهلها وعاداتهم ومعتقداتهم . أما الآخر فهو ايليوس جالوس الذى قاد حملة الى اليمن أيام أوكتفيان ورافقه فيها استرابو .

ثالثا - المصادر اليهودية :

أشار يوسفوس فلافيوس في كتابيه حروب اليهود ، وآثار اليهود الى الكثير من المعلومات الخاصة بالانباط وذلك من خلال علاقاتهم بالدولة المكابية سلما كانت تلك العلاقة أم حربا . وهو متعصب كثيرا للمكابيين ، ولهذا فقد يكون حديثه عن الانباط في لحظات صراعهم مع الدولة اليهودية مشمولا بالهوى ، وثمة جانب غير مأمون فيما يقصه من أخبار وأحداث ، وذلك أنه ينصب من نفسه مفسرا للوقائع ، فيحجب بتفسيره حقيقة الرواية التى قد تتحمل - لو رويت على وجهها - تفسيراً آخر أو تفسيرات أخرى ، هذا الى أنه كثيرا ما يقع فى الخطأ والتضارب والتشويه ، ويخلط الشائعة بالحقيقة التاريخية .

وقد اختلف المؤرخون فى الموطن الاصلى للانباط ، فذهب فريق منهم

(1) Diodorus, 19, 94, 1-100.

الى أنهم من أهل العراق ، وأنهم قد هاجروا من العراق الى (ادوم) ،
وذهب فريق آخر الى أنهم عراقيون أتى بهم «نبوخذ نصر» في القرن
السادس قبل الميلاد عندما اكتسح فلسطين ، فأنزلهم «البقراء» ومجاوراتها ،
وذهب فريق ثالث الى أنهم من جبل شمر في أواسط بلاد العرب ، ثم سرعان
ما نزحوا الى العراق وظلوا بها ، حتى دهمهم الآشوريون فأخرجوهم من
هناك .

والثابت أن الأنباط الأوائل هم من سكان العراق ، إذ ورد ذكرهم في
آثار آشور منذ القرن السابع قبل الميلاد على أيام آشوربانيبال . وهذا
يفسر كيف أن العرب عندما عرفوا الأنباط لأول مرة كان ذلك في بطائح
العراق حيث يكثر الماء حتى قالوا : «وسى نبط السواد نبطا ، لاستنباطهم
المياه وسقيهم الانهار» . هذا وقد دخل الأنباط في نطاق العرب عن طريق
اتخاذهم للثقافة الآرامية واصطناعهم لكتابة ولغة الآراميين ، ويرجع ذلك
الى أنها كانت اللغة الشائعة في ذلك العصر ، بل أنها أصبحت لغة
المراسلات الدولية في الشرق الأدنى القديم منذ حوالي عام ٥٠٠ ق.م ، كما
أصبحت اللغة التي يستعملها سكان منطقة الهلال الخصيب - وكذا الأنباط -
كما أنها سوف تصبح لغة المسيح وشعبه فيما بعد .

فعندما بدأ الأنباط يعملون بالتجارة ، ولم يعودوا نقلة لمتاجر غيرهم
مقابل أجر معلوم اكتشفوا حاجتهم الماسة الى الكتابة ، وكانت اللغة السائدة
في كل أنواع المعاملات والسفارات في بلاد الشرق الأدنى حينئذ هي الآرامية ،
فكتبوا بها ، وظلوا يستعملون لغتهم العربية في حياتهم اليومية فيما بينهم .
وقد كان اختيارهم للآرامية ضرورة حضارية ووسيلة عملية للتفاهم مع من
حولهم ممن يستعملونها في مكاتباتهم ، وظلت هي لغة الكتابة بعد أن
سقطت دولتهم لمدة مائتي سنة .

ويتبين من أقدم الاخبار الواردة في كتابات المؤرخين اليونان والرومان
أن النبط كانوا في بادئ أمرهم أعرابا ورعاة ماشية ، وفي ذلك يقول
ديودور الصقلي .

«لقد آلوا على أنفسهم ألا يبذروا حبا ، ولا يغرسوا شجرا يؤتى ثمرا ، ولا يعاقروا خمرا ، ولا يشيدوا بيوتا ، ومن فعل ذلك كان عقابه الموت وهم يلتزمون بهذه المبادئ لانهم يعتقدون أن من تملك شيئا استمرأ ما ملك وعز عليه التخلي عنه واضطر من أجل ذلك أن ينصاع لما يفرضه عليه ذوو القوة والجبروت» .

ومع ذلك فانهم - فيما يبدو - لم يقنعوا بتربية الابل والماشية ولم يقتصروا على حياة الرعى ، بل كانوا قد تميزوا عن كثير من البدو ، بالاقبال على حياة التجارة شراء وبيعا ، وعلى القيام بدور الوسطاء في دنيا البيع والشراء حتى عرفوا بالثراء^(١) ، وهذا ما يؤكد قول ديودور الصقلي :

«ثمة قبائل عربية كثيرة تتخذ الصحراء مراعى لقطعانها ، ولكن الانباط يفوقون الجميع بثرائهم» .

أما أقدم ما وصلنا من أخبار عن الانباط فهو ما ذكره (ديودور الصقلي) من أن «انتيجونوس» الذي خلف الاسكندر في سورية قد جرد حملة على النبط قوامها أربعة آلاف جندي من المشاة ليجبرهم على التحالف معه وتأييد مصالحه ، وكان ذلك في عام ٣١٢ ق.م ، وسار قائد هؤلاء الجنود وياغت الصخرة (أم البيار) في منتصف الليل ، فقتل من حاول المقاومة وأسر خلقا منهم ، وترك الجرحى ، واستولى على ما وقعت عليه يده من البخور والتوابل والفضة ، ثم أمر قواته بالأسراع بالرجوع ، فلما قطعت مسافة ، أضناها التعب ، واضطرت الى الاستراحة في معسكر أقامته ، وفيما كان الجنود ينعمون بنومهم ، هاجمهم النبط وأعملوا فيهم السيوف ، فلم ينج من رجال الحملة الا خمسون فارسا هربوا بسلام ، ثم كتبوا الى الملك من جانب النبط عادوا الى الصخرة ونظموا أمورهم ، ثم كتبوا الى الملك «انتيجونوس» كتابا بالسريانية يلومون فيه قائد الحملة التي بعثها الملك على ما فعل بهم ، ويعتذرون فيه عما بدر منهم ، وقد أجابهم الملك بأن ما حدث إنما كان بغير علم منه ، وأن قائده قد تصرف برأيه ، ثم يختم

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٠ .

رسالته باعلان صداقته لهم ، بينما كان في واقع الامر ، انما يعد لجولة جديدة قد يهبط لها من الاسباب ما يكفل لها النجاح . وهكذا ما ان يمضي وقت طويل حتى يرسل اليهم ولده «ديمتريوس» على رأس حملة قوامها أربعة آلاف من الفرسان ومثلهم من المشاة . ويبدو أن الانباط أنما كانوا يتوقعون الخيانة من «انتيجونوس» ، ومن ثم فقد كانوا في حيلة من أمرهم ، فأمعنوا أموالهم في مواضع حصينة لا تصل اليها أيدي الطغاة الطامعين ، ثم تفرقوا في الصحراء وهكذا ما أن وصل «ديمتريوس» الى الصخرة (أم البيار) حتى هاجمها بعنف وشراسة ، إلا أن محاولته هذه لم يكتب لها نصيب من النجاح ، ومن ثم فقد عاد بخفي حنين ، قانعا بما قدمه اليه الانباط من هدايا (١) .

ومن المعروف أن البطالمة قد طمعوا في دولة الانباط بسبب موقعها كمحطة تجارية هامة ، وبسبب خيراتها الوفيرة ، ومن ثم فقد اهتموا بالسيطرة على البحر الاحمر من أجل تأمين تجارتهم في بونت والهند . فلقد كانت سفن الهند تفرغ بضائعها في بلاد اليمن ومن هناك كانت تنقل شمالا بطريق البحر الاحمر أو بالطريق البري الى ايلة ثم الى بترا . وفي عهد بطليموس الثاني (٢٨٣ - ٢٤٦ ق م) ونتيجة لتحرش الانباط بسفن البطالمة ومهاجمة سفنهم المتجهة الى مصر وأخذ ما فيها - قام بإنشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية ، وقد ألحقت هذه القوة خسائر فادحة باسطول النبط ، وأدت سياسة بطليموس الرامية الى السيطرة على البحر الاحمر ، واعادة فتح القناة القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الاحمر - الى إلحاق خسائر فادحة بالنسبة للانباط الذين كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارة القوافل التي كانت تمر ببلادهم ، فأخذوا يشنون الغارة تلو الغارة على السفن الذاهبة أو الآتية من مصر (٢) .

وفيما يتصل بملوك الانباط ، فيختلف المؤرخون حول ترتيبهم ، ويزيد

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٩ - ٢٠ .

(2) Strabo, III, p. 402.

من صعوبة هذا الأمر وجود العديد من الفجوات التي لا يوجد ما يملأها ،
ومن أهم هؤلاء الملوك :

الحارث الأول :

هو أول ملوك الانباط ، عرف اسمه ، وهو اسم كثير الشيوخ في أسماء
الاعلام ، ولما كان هو أول من عرف اسمه دعى «الأول» تمييزا له عن كل
من جاء بعده ممن اسمه «الحارث» . ولكنه ليس من الضروري أن يكون
أول ملك نبطي .

وكان الحارث الأول معاصرا لمؤسى الاسرة المكابية (اسرة حاكمة
يهودية) ، فلقد ورد ذكره في سفر المكابيين الذى أطلق عليه «أريتاس»
وذلك عندما حدث نزاع بين اليهود عام ١٦٩ ق.م حول من يتولى الكهانة
العليا ، وفر أحد المتنازعين الى الحارثة . ولكنه طرده ربما لوجود اتفاق
ما بين الحارث والاسرة المكابية .

ولم يصلنا أى شيء آخر بخصوص الحارث الأول ، وان كان هناك من
الباحثين من يرى أن النقش الذى عثر عليه فى الخلصه يخصه ، وقد جاء
فى هذا النقش «هذا هو الموضع الذى أقامه عبد نثيرو لحياة حارثة ملك
النبط (نبطو)» . ويتجه أصحاب هذا الرأى أن هذا النقش لا يتجاوز فى
تاريخه عام ١٥٠ ق.م (١) .

الحارث الثانى :

وبجاء بعد الحارث الأول الملك زيدال وذلك فى حوالى عام ١٤٦ ق.م ،
ثم تلاه على العرش الملك الحارث الثانى الذى حكم حوالى عام ١١٠ ق.م ،
ودأم حكمه حتى حوالى عام ٩٦ ق.م ، وقد نعتة المؤرخ يوسفوس بلقب
«ملك» مما يدل على أن هذا اللقب صار لقباً رسمياً لحكام النبط فى ذلك
العهد .

(١) عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ، فيليب حتى ،
المرجع السابق ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

وفيما يتصل بالاحوال التاريخية خلال هذه المرحلة يذكر المؤرخ يوسفوس في كتابه «آثار اليهود» عن بداية تضارب المصالح بين الاسرة المكابية والانباط ، وكانت الدولة السلوقية حينئذ قد أخذت تدخل مرحلة ضعف وتقهقر مما أغرى ملك المكابيين بانتهاز الفرصة للتوسع وجعل هدفه مدينة غزة التي استغاث أهلها بالملك الحارث الثاني المجاور لهم ، الا أنه خيب آمالهم فلم يقدم يد العون لهم رغم وعده لهم بذلك مما مكن المكابيين من الاستيلاء على غزة ، ولم يتركوها الا لوجود حرب أهلية عندهم .

وأثار يوسفوس أيضا الى أن الملك الحارث الثاني قد انتهاز فرصة ضعف الاوضاع في مصر وبلاد الشام ، فهاجم بجنوده بعض هذه الاراضي ، وغنم منها غنائم كثيرة ، فكون بذلك لنفسه وللعرب صيتا بعيدا .

وفي زمن الحارث الثاني ، صدرت نقود نبطية ، ولعله أول ملك نبطي يفعل ذلك ، اذ لم تصلنا نقود لملك قبله . وتحمل النقود المنسوبة اليه حرف "A" وهو الحرف الاول من اسمه « Arethas » ، وقد وجدت حديثا كمية غير قليلة من العملة البرونزية وفيها نماذج تحمل حرف (ح) بالارامية اشارة الى حارثة .

ولقد انتهى حكم الحارث الثاني عام ٩٥ ق م ، وخلفه على العرش النبطي ابنه عبادة الاول (١) .

عبادة الاول :

ورد نقش سجله رجل يدعى أصلح بن أصلح من هل البتراء على غرفة للعبادة في الصخر في الممر الضيق المؤدى الى البتراء وجاء فيه : « هذه هي القاعة التي اقامها أصلح بن أصلح لذى الشرى اله منبتو لحياة عبادة ملك النبط في أول سنة من سنى حكمه » . وقد أرخ هذا النقش بعام ٩٥ ق م . وفي هذا اشارة اكيدة لتاريخ اعتلائه العرش .

(١) جواد على ، المزجج السابق ، الجزء الثالث ، ص ٢٥ .
Hastings, J., Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh, 9,
p. 121.

ولقد استمر في عهده النزاع بين الانباط والمكابيين في عهد ملكهم إسكندر جينوس ، لان أطماع جينوس التوسعية امتدت الى جلعاد وموآب ، واستطاع التغلب على عرب هاتين المنطقتين ، ولذلك تصدى له عبادة في معركة عند جدارة (أم قيس) الى الشرق من بحيرة طبرية ، واضطرته «هجانة» الانباط الى الوقوع في واد عميق ، وكاد يفقد حياته ، واضطر جينوس الى التخلي عن طموحه والتفرغ لضغوط أخرى بزغت في مكان آخر ، فرد الى ملك العرب ما كان استولى عليه من موآب وجلعاد وما فيها من معاقل في مقابل أن يمتنع عبادة عن مساعدة خصومه (١) .

رب ايل الاول :

هو ابن الحارث الثاني وأخو عبادة الاول ، حكم في الفترة من ٨٨ - ٨٧ ق م ، لم يذكره يوسفوس بالاسم ، ولذلك اضطربت المصادر بشأنه ، ونسبت الاحداث التي تمت في عهده الى عهد أخيه عبادة ، غير أن المؤرخ أسطفانس البيزنطي ذكره لدى حديثه عن الحملة الثانية التي قام بها انطيوخس الثاني عشر ضد العرب ، وكانت هذه المعركة في أواخر عام ٨٨ ق م ، أم أوائل التي بعدها . وقد أحرز الانباط في هذه المعركة نصرا مؤرزا ، وقتل انطيوخس وفرجيته وهلك معظمه جوعا .

الحارث الثالث :

هو ابن حارثة الثاني أيضا وأخو عبادة الاول ورب ايل الاول ، وهو يعد من أشهر الملوك المتقدمين من النبط . ويرى بعض الباحثين أنه حكم من عام ٨٧ حتى عام ٦٢ ق م ، وقد قطف ثمار الانتصار الذي حققه سلفه ضد انطيوخس ، اذ خلا جواره المباشر من تدخل السلوقيين مؤقتا واستطاع أن يمضي قدما في السياسة النبطية التوسعية . وقد اقترن عهده بفتوحات واسعة بدأت باستيلائه على دمشق ، وعلى سهل البقاع ، في حوالي عام ٨٥ ق م ، وذلك بناء على دعوة تلقاها من سكان المدينة العريقة - وكانت عاصمة السلوقيين وقتذاك - لانقاذهم من هجوم «الايثوريين» الذين كانوا

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٢٦ .

يطمعون في الاستيلاء عليها ، وأدخلها في جملة أملاكه ، ولقبه أهلها (محب
اليونان وحاميهم) لانه أنقذهم من غزو الاعراب لهم (١) .

وهكذا أصبح (للحارث الثالث) مملكة واسعة الاطراف ، عمل على
تدعيمها ببناء جيش قوى ، فبعد ان كان جيش النبط في بادىء الامر مجرد
جماعات غزو غير منظمة تهاجم عدوها وتباعثه على طريقة الاعراب ثم
تتراجع ، حاول الحارث ادخال الكثير من الاصلاحات عليه ، واستعان بعدد
كبير من اليونان في تدريب جيشه ، وتكوين وحدات نظامية مدربة ، استعان
بها في تقوية مركزه حتى صار من اقوى ملوك النبط الذين حكموا حتى
ايامه . ومن ثم فقد بدأ الحارث يتدخل في شئون مملكة يهوذا المتداعية ،
فغزا أرض يهوذا ، وفي معركة واحدة وقعت عند موضع (اويدا) أنهار
الجيش اليهودى وتشنت شمله ولم يبق امام ملكهم الا طلب الصلح ، وعاد
النبط منتصرين الى ديارهم . كذلك عمل (الحارث الثالث) على مجابهة
الرومان ولكنهم تغلبوا عليه ، ويرجع ذلك الى حيازة الرومان لجيوش
منظمة مدربة .

ودعت الظروف السياسية الحارث مرة أخرى للتدخل في شئون مملكة
يهوذا (١) ، بان الخلاف الذى دب بين ولدى «اسكندر جينوس» (ارسطوبولس
وهركانوس) ، وانقسام اليهود الى فريقين ، الصدقيون ويؤيدون
«ارسطوبولس» والفريسيون ويؤيدون «هركانوس» الذى فر الى البتراء ،
لعله يجد الحى عند الحارث ، فضلا عن اعادة التاج اليه وتثبيت ملكه ،
على أن يعيد للحارث في مقابل ذلك ، المدن الاثنى عشر التى كان قد أخذها
أبوه من العرب ، ويقبل الحارث أملا في أن يوسع أملاكه على حساب
يهوذا ، ان لم يقدر له أن يوجه اليها الضربة القاضية . وهكذا يوجه الحارث
جيشا قوامه خمسون ألف رجل لمهاجمة «ارسطوبولس» الذى سرعان ما يفر
الى القدس بعد هزيمة منكرة ، فيتابعه الحارث الى المدينة المقدسة ، ويكاد

(١) جواد على ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣٠ .
(2) Josephus, The Jewish War, p. 302.

يستولى عليها ، لولا قيام الرومان بالهجوم على دمشق ، ثم إرسال حملة عسكرية الى القدس نفسها للتدخل في النزاع القائم بها وقتذاك ، ولمنع الانبساط عن الاستيلاء عليها . وأدرك الحارث أن جيشه لا يستطيع الوقوف أمام جيوش الرومان المدربة ، المنظمة والمسلحة تسليحا جيدا حديثا بالنسبة الى أسلحة الأنبط ، ففك الحصار وتراجع ، الا أن «أرسطوبولس» الذي نجح في اكتساب ثقة قائد الحملة الرومانية سرعان ما تعقب الانبساط وهم في طريق عودتهم ، فانتصر على الحارث وقتل ستة آلاف من أتباعه .

وتعقدت الامور مرة ثانية بين الرومان والانباط ، فهدد الرومان الأنبط بالزحف عليهم وتخريب بلادهم ، ووجد الحارث أنه من المستحيل عليه الثبات أمامهم ، وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن يدفع الحارث جزية للرومان . واعتبر «بومبي» حاكم الرومان أن ذلك إنما هو خضوع من الانبباط للرومان ، ومن ثم فقد وضع صورة الحارث في موكب نصره ، كما أمر القائد الروماني أن تضرب النقود وعليها صورة الحارث راکعا على ركبتيه الى جانب جمل وهو يقدم غصنا في خضوع الى القائد الروماني ، تعبيرا عن استسلامه . أما الانبباط فلعلمهم وجدوا أن دفع بعض الاموال لا يخدش وجه سيادتهم واستقلالهم الذاتي ، خصوصا وأن استيلاء الرومان على كل سورية قد وضح لهم مدى قدرتهم على المبادرة بالتحدي . وكانت هذه الاحداث هي خاتمة حياة الحارث الثالث الذي وافته المنية في عام ٦٢ ق م (١) .

الملك عبادة الثاني :

وحكم بعد (الحارث الثالث) ابنه الملك (عبادة الثاني) الذي حكم في الفترة من ٦٢ - ٤٧ ق م على رأى ، وفي الفترة من ٦٢ - ٦٠ ق م على رأى آخر . ولدينا من عهده نقد من الفضة ضرب بأمره في السنة الثانية أو الثالثة من حكمه وهو من فئة الـ (دراخما) وقد صور عليه وجه الملك حليقا، وشعر رأسه قصيرا (٢) .

(١) جواد علي ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .
(٢) جرجي زيدان ، المرجع السابق ، ص ٨٨ ، وكذا السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ص ٢٣٤ .

مالسلة الاول :

حكم الملك (مالك الاول) بعد (عبادة الثاني) وفي عهده شارك النبط يوليوس قيصر في حصاره لمدينة الاسكندرية عام ٤٧ ق م ، فامدوه بقوة من جيوشهم . ثم حدث بعد ذلك ان تدهورت العلاقات بين الرومان والنبط ، وربما يرجع ذلك الى امتناع الانباط عن دفع الجزية للرومان ، اولان النبط قد وقفوا الى جانب الفرس عندما ارادوا الاستيلاء على فلسطين . وايا كان السبب ، فان الروم وبعد انتصارهم على الفرس ، بدأوا يتجهون نحو النبط واجبروهم على دفع جزية كبيرة ، ثم زاد الموقف تعقيدا عندما منح (مارك انطونيوس) وهو الذي عهد اليه الرومان بتولى امور الشرق ، جزءا كبيرا من قسطنطينيا وسوريا ، فضلا عن بلاد الانباط ، الى «كليوباترا» ملكة مصر . وهكذا أصبحت (كليوباترا) صاحبة الحق في جزية الرومان من الانباط ، غير ان النبط قد امتنعوا عن دفع الجزية لملكة مصر ، ومن ثم فقد طلبت كليوباترا من مارك انطونيوس الاسراع في تأديب الانباط . وفي نفس الوقت دفعت كليوباترا بملك اليهود (هيرودوس) لمحاربة الانباط ، وكانت تهدف من وراء ذلك اضعاف مركز كل من ملك اليهود والانباط حتى تتمكن منهما ، وتتصبح سيده بلاد العرب . وبإدارة هيرودس بمحاربة النبط ، فالتقى بهم عند «اللد» وانتصر عليهم ، ثم التحم بهم في (قنا) في البقاع ، وكاد يتغلب عليهم ، الا أن موازين النصر سرعان ما تغيرت الى جانب النبط ، فقتلوا عددا كبيرا منهم وأسروا آخرين ، وفر «هيرودوس» الى القدس (١) . وفي القدس أخذ (هيرودوس) يحرض قومه على الانتقام من العرب ، والاخذ بالثأر ، ولا سيما أن الانباط أخذوا في الهجوم على مدنه ، فنشبت سلسلة من الحروب بين الطرفين ، كلفت كل منهما خسائر كبيرة . ويدعى المؤرخ (يوسفوس) أن النصر كان في الخاتمة في جانب اليهود ، واضطر النبط بعد ذلك الى دفع الجزية الى (هيرودوس) وعقدوا صلحا معه ، لم يخالفه الانباط بعد ذلك . وليس هناك شك في أن قوة هيرودوس لم تكن

(١) فليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٣١١ - ٣١٢ ، وكذا محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٥١٤ - ٥١٥ .

على في الحقيقة التي جعلت الانباط يقبلون بمصالحة اليهود أو دفع الجزية لهم ، إنما كانت قوة الرومان وراء تلك الانتصارات التي حققها هيرودوس نتيجة ما تقدمه له من مساعدات عسكرية فعالة (١) .

عبادة الثالث - (٣٠ - ٩ ق م) :

يصفه كل من يوسفوس واسترابو بالكسل وتراخي الهمة ، وبأنه لم يكن يعير الشؤون العامة ، فضلا عن الشؤون العسكرية أى اهتمام . وفي نفس الوقت فقد أسهبوا في مقارنته بوزيره الشاب النشط «صالح» أو «سليوس» Sylla ، وبذلك تضاعلت شخصية عبادة الثانى بجوار وزيره صالح ، وتصدرت الاحداث شخصية الوزير صالح الذى كان يلقب في النقوش «أخا الملك» أى اليد اليمنى للملك .

وعلى الرغم من ضالة الدور الذى ينسب الى عبادة فهناك نقشا يستشف منه أنه قد أله في عهد خليفته ، وليس لهذا التالىه من سبب الا اذا كان خليفته الذى قام بهذا العمل كان يهدف من وراء ذلك الى جعل هذا التالىه سنة متبعة ، وبذلك يضيف فى نفوس أهل المملكة هيبة جديدة للملك الانباط ليكتسب لنفسه تلك المكانة بعد موته أيضا ، وقد يكون من أسباب ذلك أيضا اضعاف نوع من التقديس والاحترام على شخص عبادة بسبب قوة وزيره صالح الذى كان أشبه بالوصى عليه .

ومن أهم الاحداث التى حدثت في عهد هذا الملك الحملة الرومانية على على بلاد العرب الجنوبية عام ٢٥ - ٢٤ ق م ، وكانت تهدف الى الافادة من مصادر الثروة السبائية ، ونظرا لمرور هذه الحملة فى أراضى تجت سيطرة الانباط أو موالية لهم ، وأن دليل الحملة كان الوزير صالح ، فقد ارتبطت هذه الحملة بالانباط . وقد فشلت الحملة فى تحقيق أهدافها فشلا ذريعا ، وحاول استرابو أن يضع كل مسئولية الفشل على عاتق الوزير صالح واتهمه بالكر والخداع وأنه قد غرر بالجيش ، الا أنه قد بالغ كثيرا فى القاء التهم على الوزير صالح فى محاولاته المستميتة فى تبرير فشل الحملة .

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ص ٣٧ .

ومن الناحية الداخلية ، فقد أصدر عبادة الثانى نوعين من النقد أولهما صدر فى أوائل حكمه ويسمى النقد البطلمى ، وقد صور على أحد وجهيه رأس عبادة وعلى الثانى رسم صقر ، وثانيهما يسمى النقد اليونانى وقد صدر بين السنة العاشرة والعشرين من حكمه ، وقد صور على أحد وجهيه رأس الملك وعلى الوجه الثانى صورة رأس الملك والملكة ، وكتب على جميع النقود عبارة «عبادة الملك ، ملك الانباط» (١) .

الحارث الرابع (٩ ق م - ٤٠ م) :

ورد اسمه فى عدد من الكتابات النبطية ، وقد حمل لقب «رحم عم» أى المحب لامته ، وقد قام هذا الملك بتزويد القائد الرومانى (واروس) بقوة من المشاة والفرسان حين زحف على يهوذا ، وقد فعل ذلك انتقاما من اليهود وتقريبا الى الرومان . ثم حدث بعد ذلك أن اصطدم النبط باليهود وذلك نتيجة قيام هيروودوس بطلاق ابنة الحارث الرابع ، وكان قد تزوجها منذ حين ، وبسبب اختلافهما أيضا على حدود المنطقة .

وانتهت الحروب بين الطرفين بانتصار الحارث على خصمه انتصارا كبيرا فى جلعاد وتشتيت شمل جيوشه ، فاستنجد هيروودوس بسيده وحاميه قيصر الروم ، الذى غضب وكتب الى عامله فى سورية يحثه على السير لمحاربة الحارث والقبض عليه حيا وارسله مكبلا بالسلاتل الى روما ، أو يبعث برأسه اليه ان قتله . وبينما كان العامل يهم بالزحف على مملكة النبط جاءته الاخبار بوفاة القيصر فتوقف عن الحرب ، وساء موقف هيروودوس ونحاه الرومان عن عرشه (٢) .

ويستدل من رسالة بولس الثانية الى أهل كورنثة أن دمشق كانت تتبع الحارث ملك الانباط ، وقد كان بولس فى دمشق حوالى عام ٤٠ م وهى آخر سنة فى حكم حارثة . وفى ذلك يقول : «كان الحاكم بدمشق تحت امرة ارتاس (الحارث) الملك» ، ويدل ذلك على عودة دمشق الى الدولة النبطية

(١) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .
(2) Josephus, Antiquities of The Jews, V, 18. 1.

وربما كان ذلك حوالى عام ٣٧٠م إبان الحزب التى استعمر أوارها بين الحارث وهيرودوس ، وربما بقيت تحت سيادة الانباط فى مقابل مبلغ يدفعونه للرومان (١) .

ويتميز عهد الحارث الرابع بحركة عمرانية واسعة تركزت حول القسم الجنوبى من المملكة ، فتحولت المنشأة النبطية فى مدائن صالح (الحجر) الى مدينة كبيرة ، وظهر ذلك أيضا فى المقابر المنحوتة فى الصخر والتى تضاهى فى فخامتها المقابر المنحوتة فى الصخور فى البتراء نفسها ، ويحمل أكثرها نقوشا تشير الى أنها قد شيدت فى النصف الاول من القرن الاول الميلادى ، ويحمل أقدمها نقشا يشير الى السنة الاولى بعد الميلاد . ومن الجدير بالملاحظة أن معظم هذه المقابر كان خاصا بالضباط العسكريين من ذوى الرتب المختلفة ، وربما يشير ذلك الى أن هذه المنطقة (مدائن صالح) قد جعلها الحارث منطقة عسكرية لحصانتها ، وأن تكون كدرع أمان للدولة النبطية فى المستقبل من أطماع الرومان .

ويضاف الى ذلك ، أن الانباط كانوا قد خسروا كثيرا من توسعهم التجارى بعد أن أصبح البحر الاحمر مجالا لنشاط السفن الرومانية ، ومعنى ذلك أنهم لم يخسروا التجارة البحرية وحسب ، بل تضاعلت حصتهم من التجارة البرية ، وأخذ طريق البتراء - غزة تكاد تصبح مهجورة وعلى ذلك ، فقد كان هذا الاتجاه نحو الجنوب كمحاولة لانعاش الوضع التجارى وتعويض الخسائر . ودلت النقوش التى اكتشفت فى الجوف عند الطرف الجنوبى لهذا الوادى على كثرة الرتب العسكرية ، ويدل هذا أيضا على أن الحارث كان يحاول تقوية هذه المنطقة ليتم لتجارته الوصول من خلالها الى بصرى ، دون حاجة الى المرور بالمنطقة الواقعة شرق الاردن التى قد تفكر روما ذات يوم فى ضمها الى الولاية السورية .

ولعل التخوف من المنافسة الخارجية فى النشاط التجارى هو الذى دفع الحارث الى الاهتمام بالزراعة ، ويتضح ذلك فى زيادة حركة الاعمار فى

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤٤ .

مدن النقيبة مثل عبدة وكرنب ونصتان . وكان الري هو العامل الرئيسي والضروري لهذا الاعمار ، ولقد كشف عن بعض الآثار التي تشير الى وجود نظام متقدم لحفظ مياه المطر وتسييرها الى الارضى الصالحة للزراعة ، ولم يقتصر الاهتمام بالاعمار على المناطق الجنوبية ، بل امتد كذلك الى المناطق الشمالية ، فراينا آثاره في بصرى شمالا وهي تسيطر على الطرق الداخلية من وادي سرحان ، ابتداء من الجوف وباتجاه دمشق .

وحظيت البتراء بنصيب كبير من العمران في عهد الحارث ، فقد شيد في عهده أكبر أثرين من آثار تلك المدينة وهو المسرح المحفور في الصخر ، والمعبد القائم في وسط المدينة والذي يعرف اليوم باسم قصر البنت (١) .

ولقد خلد الحارث ايام حكمه بتوالى الاصدارات النقدية ، حتى لا تكاد سنة من سنوات حكمه تمضي دون اصدار نقد جديد ، ولقد سجل على بعض القطع النقدية بعض الاحداث التي تمت في عهده ومنها تخليده للحركة المعمارية التي أجراها في مدائن صالح ، ومنها كذلك اصداره في العام العشرين من حكمه نقدا تذكاريًا لزواجه من شقيقة التي أصبحت ملكة بعد وفاة زوجة سابقة له . كما حملت بعض النقود أسماء بعض أبنائه وبناته . ويلاحظ أن معظم النقود التي أصدرها قد كتب عليها «الحارث ملك الأنبط، محب أمة» .

ومن ناحية أخرى ، فلقد عثر على العديد من النقوش التذكارية التي أقامها أفراد من الشعب النبطي للحكم الحارث ، وقد أرخت هذه النقوش بسنوات حكمه ، وكتب فيها «محب أمة» ويشير انتشار هذه النقوش في أماكن متعددة حتى وصل بعضها الى ايطاليا الى اتساع الافاق التي كان يؤمها الانباط وعلى امتداد تأثيرهم التجاري والحضاري الى مناطق بعيدة (٢) .

ومن هذه النقوش التذكارية نقشا يتميز بقيمته التاريخية وقد عثر عليه

-
- (١) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .
(٢) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٥٢ .

فى موقع مادبا وجاء فيه «هذا هو القبر ومعه الهرمان المبنيان فوقه الذى اقامه عبد عبودت من أجل اتاييل الستريج (حاكم المقاطعة) والده ، ومن أجل اتاييل رئيس معسكرى لحيطو وعبرتاً فى مقر حكمهما الذى شغله فترتين أى ستة وثلاثين عاماً فى مجموعهما ، فى أيام الحارث ملك الانباط ، محب أمته» . ولقد تم انشاء ذلك الضريح فى السنة السادسة والاربعين من حكم الحارث أى عام ٣٧م . ويلاحظ أن لحيطو هى لهيت التى ذكرت فى سفر اشعيا ، وأما عبرتاً فتعنى المخاضة أو المعبر ولعلها هى المخاضة الموجودة على نهر عرنون فى الطريق الى الكرك .

مالك الثانى - (٤٠ - ٧٠م) :

هو ابن الحارث الرابع ، ويلاحظ أن البقايا الاثرية والتاريخية المتبقية من عهده قليلة وان كان مرجحاً أنه قد تابع سياسة أبيه فى الاهتمام باعمار المناطق الجنوبية من الدولة ، ولقد توقف اصدار النقد فى السنوات الست الاخيرة من أيامه ، وفى الوقت نفسه استأنفت دمشق اصدار نقدها مما دعى الباحثين الى الاعتقاد بأن الانباط قد فقدوا دمشق فى عهده ، ولقد جاء بعده على العرش النبطى ابنه رب ايل الثانى (١) .

رب ايل الثانى - (٧٠ - ١٠١م) :

كان صغيراً حين تولى العرش ولهذا عينت أمه وصية عليه ، وهى تظهر على النقود التى أصدرت فى سنوات حكمه الاولى ، وبعد أن تزوج أصبحت زوجته «جميلة» هى التى تصور على ما يصدره من نقود .

وكانت فترة حكم رب ايل قليلة الاحداث ولهذا لم تثر انتباه مؤرخى الدولة الرومانية . وهناك مجموعة من المخريشات تشير الى قيام ثورة فى بداية حكمه ، ومما يلفت النظر أن رب ايل كان يقضى أكثر وقته فى بصرى وتلك كانت بداية غروب مجد البتراء السياسية وان بقيت بمجدها التجارى .

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤١ .

ولقد اتخذ رب إيل لقباً لافتاً للنظر وقد الحقه باسمه حيثما ذكر وهو
«واهب الحياة والخلص لامته» (١) .

مالك الثالث (١٠١ - ١٠٦ م) :

آخر ملك نعرفه من ملوك الانباط هو مالك الثالث ، وفي عهده قضى
تراجان قيصر الروم على استقلال مملكة الانباط وجعلها تحت حكم حاكم
سوريا ، وذلك في عام ١٠٦ م وأطلق عليها اسم (المقاطعة العربية) ونقل مقر
الحكم من البتراء الى بصرى ، فتضاءل بذلك شأن العاصمة القديمة وصارت
مجرد موضع قليل الشأن . وكانت بصرى حتى ذلك الوقت موقعا غير ذي
أهمية ، فأمر الامبراطور تراجان باعادة تأسيسها ، ويشهد بذلك لقبها
الرسمى المنقوش على عملتها وهو «بصرى الجديدة التراجانية» . وحين
أصبحت بصرى العاصمة بدأ بذلك تقويم جديد اسمه تقويم الولاية ، وأصبحت
بصرى قاعدة الفيلق الروماني الثالث ووضعت الحاميات الرومانية على
طول الطرق الرئيسية التي تكون ما يسمى بالحد الغربى ، وكانت الطريق
الجديدة التي بناها تراجان تصل بين سوريا والبحر الاحمر (٢) .

النشاط الاقتصادي :

من أهم أوجه النشاط الاقتصادي عند الانباط النشاط التجارى ، وقد
أوضحنا فيما سبق الجهود التي بذلها ملوك الانباط في سبيل توسيع رقعة
نشاطهم التجارى ، ولقد كان النشاط التجارى من الانساب التي أدت الى
بروز مظاهر كثيرة في الحياة النبطية وفي مقدمتها العناية بتربية الجمال
وتوفير المؤونة بها والتزود بكل الادوات التي تساعد على تجهيز البضائع
وترتيبها وتصنيفها وبناء السفن والتدريب على ركوب البحر وتهيأت كل
ما تتطلبه الموانى من معدات ، وتخصيص أماكن للتفريغ والتخزين . وأدى

(1) Hastings, J., ERE, 9, p. 121,

جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤٨ ، فيليب حنى ،
المرجع السابق ، ص ٤٢٤ .

وفيليب حنى ، المرجع السابق ص ٤٢٤ .
(٢) فيليب حنى ، نفس المربع السابق ، ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

النشاط التجارى كذلك الى حركة صناعية وتعدينية وزراعية ورعوية ، ثم :
يكتف الانباط باستقبال السلع الخارجية وتسويقها .

ويصف استرابو بعض جوانب من ثروتهم الحيوانية وسلعهم المحلية
والمستوردة فيقول :

«والضأن لديهم ذات صوف ابيض ، وثيران كبيرة ، ولكن بلادهم
لا تنتج خيولا ، وتقوم الجمال بتلبية خدماتهم مقام الخيل . . . وبعض
الحاجيات مستوردة من بلاد أخرى . الا أن حاجيات أخرى ليست كذلك
وخاصة ما كان منها نتاجا محليا كالذهب والفضة ومعظم العطور ، فاما
النحاس والحديد والثياب الارجوانية والميعة والزعفران ، والادوات المزينة
بالنقوش الفاخرة والرسوم والمصنوعات المقبولة فلا تصنع في بلادهم» .

ومن المواد الهامة التى كانوا يتاجرون بها القار ، وكانوا يستخرجونه
من البحر الميت ، وللقار فوائد متعددة منها استخدامه في تقوية المواد
والادوات ، أو أن يتخذ كعنصر في التغيرية، كما استخدمه المصريون في تلوين
المعادن وكذلك في التحنيط .

وكانت التجارة الخارجية هى عماد ثروة الانباط وكانت تعتمد على
السلع القادمة من جنوب بلاد العرب ، اذ كانت تلك السلع تباع باثمان
عالية وفي مقدمتها البخور الذى كان يمثل مادة ضرورية في حياة الناس
وعبادتهم ، كما كان هو والمر يستعملان في تركيب العقاقير ، وكان المر
وحدة يستخدم في صناعة مواد التجميل والعطور وفي شئون الدفن .

ولا يناعز هاتين السلعتين من السلع المحلية سوى البلسم والقار ولقد
تحدثنا عن أهمية القار ، أما البلسم فكان يستخدم في الامور الطبية ، ولقد
أشار اليه ديودور فقال : «في أحد الوديان ينمو النبات المسمى بالبلسم وهو
يعطى دخل كبير ، اذ لا يوجد في أى مكان آخر من العالم المعمور ،
واستعماله كعقار مهم جدا لدى الاطباء» . وبجانبهما يرجح كذلك أن
صناعة الخزف كانت تدخل في نطاق التجارة الخارجية .

وقد مارس الانباط النشاط الصناعى ومنه سك العملة من البرونز

والفضة ، كما صنعوا بعض التماثيل الصغيرة والحلى والأسلحة وكذلك
الأواني المعدنية المستخدمة في الأدوات المنزلية ، كما ظهرت صناعات أخرى
مثل النسيج وصناعة الأحذية والأدوات الموسيقية .

وتنامت الزراعة بدور كبير في نشاط الانبساط الاقتصادي ، وتدل السدود
التي أقاموها والقنوات والمجاري التي شقوها وخزانات المياه التي شيدها
على اهتمامهم بالنشاط الزراعي . ويرجح أنهم مارسوا زراعة شتى أنواع
الحبوب وأشجار الفواكه وبخاصة العنب ، وتشير رسومهم إلى أهمية العنب
والرمث كعنصر زخرفي . وهكذا بلغ الانبساط مستوى اقتصادي رفيع
بالتضخم بين أنواع النشاط الاقتصادي المتعددة من تجارة وصناعة
وزراعة (١) .

نظام الحكم :

أما عن تنظيم الدولة وكيفيةها عند النبط ، فمن الواضح أن الملك كان
بالطبع رئيس الدولة ، وكان الحكم متوارثا بداخل الأسرة الملكية ، وحسب
المعلومات المتاحة لنا حاليا فإن الحكم الملكي لم يخرج عن أسرة واحدة .
وهناك ما يستشف منه أن الأسرة المالكة كانت حنة التماسك ، ولم تكتف
بذلك بل أصبحت على ملكها صفة الألوهية لتبعد عنها كل مدعى طامع ،
وأحاطت الحاكم من تلك الأسرة بروابط الأخوة ، وفي ذلك بالإضافة إلى
معنى المشاركة في المشورة وبعض المسئولية رغبة في إضفاء نوع من وحدة
الحكم ، فزوجة الملك أخت له وصورتها تظهر مع صورته على النقود ،
ووزير الملك أخ له و كليهما بهذه الأخوة يشاركه المسئولية أو جانبها منها ،
ولم تكن هذه أخوة بالدم ولكنها إشارة إلى عمق المشاركة .

ويبدو مرجحا أن الوزير كان مسئولاً عن السفارات في الخارج ، وأجراء
المفاوضات وعقد الاتفاقيات وما شابه ذلك .

وكانت البلاد مقسمة إلى ولايات لكل ولاية حاكم يسمى في النقوش

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ١٤١ .

مسترجع ، وتدرجت الوظائف الادارية فى الدولة سواء كانت سياسية او دينية
او قضائية .

الحياة الاجتماعية :

كانت العائلة هى الوحدة المهمة فى المجتمع النبطى ، وكانت شديدة
التماسك وتقوم على روابط قوية بين افرادها والتزاوج فيما بينهم ، ويرى
الباحثون ان المرأة النبطية كانت تتمتع بمنزلة مرموقة فى المجتمع ، وانها
كانت تعامل باحترام وانها كانت مصونة الحقوق ، ويستدلون على ذلك
بمكانة ربة الخصب السامية بين الارباب ، وانها كانت تتفوق على قرينها
زيوس ، وكذلك بوجود صورة الملكة الى جانب صورة الملك على العملة
النبطية ومعها لقبها ، كما كان للمرأة النبطية الحق فى الوراثة والتملك
والتصرف فى املاكها(١) .

الفكر الدينى :

كان لانتقال الانباط من حياة بدوية او شبه بدوية الى حياة مستقرة
العامل الاول فى تطور فكرهم الدينى ، فقد كان الاستقرار يعنى خلق اوضاع
جديدة لابد ان تؤثر فى كثير من المفاهيم الدينية التى صاحب حياة البداوة .
اذ كان اول ما يعنيه الاستقرار ظهور الحاجة الى وجود معبد بما يتضمنه
من تطور معمارى ، كما اثرت الحياة الزراعية المستقرة على تطور فكرهم
الدينى كذلك .

ومن النواحي المؤثرة فى هذا التطور اتصال الانباط بالحضارات الاخرى
المجاورة لهم او التى كانت لهم بها صلات سياسية او تجارية .

ومن المرجح ان الانباط قد حملوا معهم من مواطنهم الاولى اربابا
معينة هى اللات والعزى ومناة وذو الشرى وهذه المعبودات تتناسب وعيشة
البداوة .

وكانت اللات وهى تمثل فى الارجح الشمس ، وهى عندهم اما للارباب ،

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ص ٥٢ .

وقد أقيمت لها معابد كثيرة في المواقع النبطية ، ولكن يلاحظ أن اسمها قليل الوجود في نقوش البتراء حيث كانت ربة بصرى وصلخد حيث كان عبادها المخلصون من بنى روجو .

ولا تحتل العزى ومناة دورا بارزا بين الارياب النبطية وخاصة بالنسبة لذى الشرى الرب الاكبر الذى حمل طبيعة بعض الالهة السامية في دور مبكر فأصبح يناظر كل من بعل وهدد ، ثم أصبح فيما بعد صنوا لزيوس ، وكان في البدء يعبد على شكل حجر مربع أو مستطيل ، وكانت مكانته كبيرة في البتراء ، ونظرا لكونه الها شمسيا فقد كانت أنصابه ورموزه موجهة نحو المشرق .

وكان تقديم القرابين من أهم الشعائر لدى الانباط مثلهم في ذلك مثل الشعوب السامية ، وكان ذلك بالضحايا الحيوانية التى يسفح دمها على مذبح أو على رأس النصب ، وليس لدى الانباط ما يشير الى وجود التضحية البشرية . وتجدر الإشارة أن القرابين المقدمة في المعابد لم تكن تحرق كلها بل كان معظمها يأكله موظفى المعبد والعباد في غرفة خاصة بالولاتم المقدمة حيث يجتمع الكهان والحجاج الى المعبد في المواسم والاعياد الدينية حيث يجلسون في هذه الغرف ويأكلون هذه الوجبة التى يطلق عليها «الوجبة التعبدية» وكانت لها أهميتها في العبادات لدى الانباط ، لأنها تعنى المشاركة بين الاله وعباده .

وقد تم الكشف عن معابد نبطية أهمها معبد خربة التنور ومعبد وادى رم ومعبد ذيبان ، وتشترك جميع المعابد في عناصر رئيسية هى المذبح ووجود تماثيل للارياب أو صور لهم ، وأنها تتجه نحو الشرق .

وكان هناك جهاز دينى يقوم بالاشراف على العبادة في المعابد وتنظيم الاعياد المرتبطة بالفصول واعداد الجنائز وطقوس الدفن ، وكان على رأس هذا الجهاز الكاهن .

الفن النبطى :

تميز الفن المعماري النبطى بقدرته على التأثير بالفنون المعمارية

للحضارات المجاورة له ، ففيه المظاهر المصرية والايروانية واليونانية ، ولكن في صورته العامة ياخذ الطابع النبطى ، ويتجلى بشكل واضح في القبور المحفورة في الصخر وفي المعابد .

وفيما يتصل بالمقابر فكان الصانع يبدأ بنحتها في أعلى الهضبة فيجعل سطحها أملس ثم ينحت الواجهة ثم يتم العمل في الاجزاء الداخلية لها ، وكانت الاعمدة في الغالب عارية من الزخرفة في تيجانها ، وان كانت في بعض الاحيان تزين برؤوس بشرية ، وكانت الرموز المصاحبة لهذه الاضرحة تكاد لا تتغير فهي الصقر والقناع الادمى ، اما داخل غرفة الدفن فتكاد تكون الزخرفة معدومة .

ويختلف الفن المعمارى في المعابد عنه في القبور من حيث أن المعابد لا تنحت احيانا في الصخر بل تبنى بالحجارة .

وفيما يتصل بالعمارة المدنية فمن اهمها المعبد الرئيسى في البتراء وقد تمثلت فيه قدرة العمارة النبطى على اتقان النحت والبناء بالحجر .

وبرز الفنان النبطى في نحت التماثيل ومنها التماثيل الادمية الصغيرة المفردة والتماثيل الادمية النصفية وتماثيل الحيوانات كالجمال والقروذ وغيرها .

وبالاضافة الى صناعة التماثيل فقد وجدت العديد من الرسوم سواء كانت رسوم جدارية أو رسوم على الخزف

الفصل الحادى عشر

تدوین

تدمير

تقع مدينة تدمر على مبعدة ١٠٠ كيلو مترا من حمص ، ١٥٠ كيلو مترا الى الشمال الشرقى من دمشق ، فى منتصف المسافة تقريبا بين دمشق والفرات ، ومن ثم فقد كانت موقعا هاما على الطريق التجارى بين العراق والشام ، بل كانت نقطة التقاء التجارة القادمة من أسواق العراق ، وما يتصل بها من اسواق فى ايران والهند والخليج والعربية الشرقية ، وبين تلك التى على البحر المتوسط ، وبخاصة فى الشام ومصر ، فضلا عن اتصالها بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال أفريقية ، والعربية الجنوبية والهند . وهكذا أصبحت (تدمر) ملتقى جميع القوافل ، وبخاصة فيما بين القرن الاول قبل الميلاد ، وعام ٢٧٣م ، ومن ثم فقد وجد فى نقوشها عبارة (زعيم القافلة) و (زعيم السوق) باعتبار ان المشار اليه من زعماء المواطنين (١) .

والاسم اليونانى للمدينة هو (بالميرا Palmyra) وهو مشتق من لفظة Palma اللاتينية ومعناها (نخل) ، ويرى بعض الباحثين ان الاسكندر الاكبر لما تغلب عليها اطلق عليها Palmyra اى مدينة النخل ، وذلك لما يكتنفها من غابات النخل العظيمة ، فعرفت عند اليونان واللاتين منذ ذلك الحين بهذا الاسم . بينما ذهب فريق آخر الى أن Palmyra هى ترجمة لكلمة (تمار) (تامار) (تمر) Tamar العبرانية ومعناها (نخلة) ، وهى فى الاصل اسم موضع فى الجنوب الشرقى من يهوذا ورد ذكره فى (سفر حزقيال) . ويرى علماء التوراة انه الموضع الذى بناه سليمان والمذكور فى (اخبار الايام الاول) ، ويرى البعض ان الراى السابق خاطئا ، لان اسم المدينة يرجع ظهوره للمرة الاولى الى ايام الملك الاشورى «تجلات بلامر» الاول (١١١٦ - ١٠٩٠ ق.م) اى قبل مولد سليمان نفسه ، وبفترة تسبق

(1) Cooke, G. A., Palmyra, in Encyclopaedia Biblica, 17 (1964), p. 274, 279.

مادون في التوراة بشأنها ، بأكثر من سبعة قرون . وربما تكون الشهرة التي اكتسبتها مدينة تدمر في ايام كتبة اسفار (اخبار الايام) هي التي حملتهم على اضافتها الى اعمال سليمان كدليل على شهرته ومدى بلوغ ملكه في ايسامه .

وذعب المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) الى أن النبي سليمان قد شيد مدينة تدمر . ويعود المؤرخ (بلينيوس) أول كاتب كلاسيكي تعرض لمدينة تدمر ، فذكر أنها مدينة شهيرة ولها موقع ممتاز ، وارضها خصبة وبها ينابيع وعيون ، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الاطراف (١) .

وأهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في دراسته تاريخ هذه المدينة مجموعات الكتابات التدمرية التي درسها المستشرقون وترجموها الى لغاتهم ، وهي الارامية واليونانية ثم اللاتينية والعبرانية ، ونشرت في كتب خاصة ، كذلك هناك مؤلفات المؤرخين اليونان والرومان ومن بينهم بلينيوس ، ثم هناك كتابات اخرى ذات قيمة ثانوية ذكرت تدمر عرضا لوجود مناسبة دعت الى ذلك مثل سجلات الجامع الكنيسية والتلمود .

وأهل تدمر كانوا عربا - شأنهم في ذلك شأن الانباط في البتراء - بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الاصلية في كتاباتهم . كما أن أسماء الاصنام عندهم عربية ، والامر كذلك بالنسبة الى أسماء الاعلام ، ومن ثم فقد رأى بعض العلماء انهم من القبائل العربية التي اخذت تستولى على المناطق الخصبة في شرق الاردن ، عقب انهيار الدولة البابلية الحديثة ، وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية في عام ٥٣٩ ق م ، ثم اخذت تستعمل الارامية - وهي لغة الكتابة والثقافة في غرب الفرات وقتذاك - لغة لها . أما الثقافة التدمرية ، فكانت مزيجا من الثقافات العربية والارامية واليونانية واللاتينية ، ذلك لان تدمر قد نمت في ظل حضارة الاراميين واتخذت

(١) انظر : محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٣٤ - ٥٣٥ ،
جصن ظاظا ، الساميين ولغاتهم ، الاسكندرية ، ١٩٧١ ، ص ١١٥ .

لغتيم ، فضلا عن المبادئ الاساسية في تفكيرهم الثقافى والدينى ، هذا في الوقت الذى اخذت فيه الكثير عن اليونان والرومان (١) .

وكان اهل تدمر خليطا من تجار ومزارعين ، اما اطرافها فكانوا اعرابا ورعاة . وكان في تدمر جاليات يونانية ورومانية ، اقامت فيها وفضلت السكنى بهن ، كما كانت هناك جاليات يهودية نزحت اليها ربما قبل سقوط القدس في ايدي الرومان ، ثم عمل هؤلاء اليهود بالتجارة وربما نشطوا في تهويد بعض السكان .

هذا وقد بدأت تدمر في الازدهار والقوة منذ النصف الاول من القرن الاول قبل الميلاد ، وذلك بسبب الاهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين امبراطوريتى الفرس والروم المتنافستين ، وقد حاول «مارك انطونيوس» عام ٤١ ق م الاستيلاء على خزائن المدينة ففشل ، وان اصابها منه ضرر كبير ، غير ان مدينة مهمة كتدمر لها ثروة ومال وليس لها جيش قوى ضخم ولا مجال لتكوين هذا الجيش فيها ، لا يمكن ان تبقى في مامن ومنجاة من مطامع الطامعين ولو كانت في بقعة منعزلة وفي بادية بعيدة . ومن ثم فقد طمع فيها اهل العراق ، وطمع فيها الفرس ، وطمع فيها اليونان والرومان والبيزنطيون . وكان اول طامع فيها وصل خبره اليها من فاتحين الاقوياء هو الملك (تجلان بلاسر الاول) تلاه جملة غزاة ورثوا الحكم والملك في الشرق الادنى . وقد صارت تدمر في جملة الاراضى التى اخضعها الاسكندر الاكبر لحكمه ، ولما انقسمت دولته بعد وفاته صارت تدمر من نصيب السلوقيين على ما يظهر . وقد حاولت تدمر ان تقف موقف الحياد بين الفرس والروم ، وتمكنت من ذلك امداء ، اذ كان من مصلحة الدولتين المتنافستين وجود محل منعزل محايد ، لكى يتمكن تجار الدولتين من الاتجار والتسوق فيه .

وقد قام احد القادة السلوقيين ببناء حصن ليضم اليه الجنود المقدونيين في مدينة (تدمر) ، وكان ذلك في عام ٢٨٠ ق م ، ولعل هذا الحصن هو واحد من سلسلة حصون اقامها السلوقيون في المواضع الهامة ذات المكانة

(١) سبتيانو موسكاتى ، الحضارات السامية القديمة ، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٠٢ .

الخطيرة من الوجهة السياسية والعسكرية والتجارية لحماية مصالحهم فيها .
هذا وقد اعترفت تدمير بخوع من السيادة عليها للرومان ، منذ أوائل العصور
المسيحية ، ودليلنا على ذلك المراسم الامبراطورية التي ترجع الى عهد
(تيبيريوس) ١٤ - ٣٧ م ، والتي تتعلق بالرسوم الجسركية ، وقد عثر في
تدمير على قوائم ترجع الى عام ١٧م وتبين بعض الرسوم على البضائع
وأثمانها باليونانية والتدمرية . هذا ويبدو ان تدمير قد اصبحت على ايام
«غسباسيان» تحت الاشراف الروماني ، وان كان هذا لا يعنى الخضوع
لروما ، أو ان الاشراف على الشئون المدنية بالمدينة كان بايدي الرومان ،
وانما كان هناك اشراف روماني عام على المدينة ، بدليل ان الروم قد
سمحوا للمدينة بحق الاحتفاظ بحامياتها في خارج تدمير .

هذا وقد قام الامبراطور (هدريانوس) (١١٧ - ١٣٨م) (١) بزيارة
تدمير ، وبذل عناية كبيرة بها ، حتى قيل فيه انه مؤسس المدينة الثاني ،
فاعتنى بها عناية خاصة بحماية الطرق البرية ، التي تصلها بنهر (الفرات)
الذي كان شرياناً مهماً من شرايين التجارة العالمية في ذلك العهد ، وسعى
الى تحسين صلاته بالفرس والمحافظة على الامن في البادية ، لتتمكن القوافل
من المرور منها بأمن وسلام .

وهناك من الآراء ما يذهب الى ان تدمير قد منحت درجة مستعمرة
رومانية عليا ، فاكسبت بذلك حق الامتلاك التام والاعفاء من الخراج ،
والحرية الكاملة في ادارة سياسة المدينة . وان هذه المنحة كانه في عهد
الامبراطور هدرينانوس ، بينما يرى آخرون انها كانت في عهد (سبتيموس
سيفيروس) (١٩٣ - ٢١١م) . وقد أفادت تدمير من سياسة هدرينانوس التي
كانت تميل الى السلم وتجنب الحرب ، فوسعت تجارتها وزادت في عدد
قوافلها ، وحصلت على ثروة طائلة ، وتعد الفترة من عام ١٣٠ وحتى
٢٧٠م هي ازهى سنوات المدينة ، فالى هذه الايام ترجع معظم النصب
والآثار العظيمة التي مازالت آثارها قائمة حتى ذلك اليوم . وقد تأثرت
تدمير بأصول اليونان والرومان في ادارة الحكم ، فكان للمدينة مجلس شيوخ

(١) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٣٥ .

له سلطة سن القوانين والتشريع ، وله رئيس وكاتب واعضاء ، ويشرف على السلطة التنفيذية شيخان وديوان يتألف من عشرة حكام ، أما السلطة القضائية فينظر فيها بعض الوكلاء وغيرهم من العمال .

أسرة أذينة :

كان لتجدد الحروب بين الفرس والروم بعد تأسيس دولة الساسانيين في فارس عام ٢٢٦م أثره في ارتفاع شأن أسرة عريقة في تدمير وزعيمها الذي يدعى أذينة ، فقد استفادت هذه الأسرة من هذه الحروب وتمكنت من الحصول على مركز عال لدى الرومان ، وزعيم هذه الأسرة هو (أذينة) وجدده الكبير كان يدعى (ناصر) (نصرو) والد «وهاب اللات» (وهبلات) وان هذا الأخير إنما وهو والد «خيران» أو «أذينة» ، وقد تولى رجال هذه الأسرة رئاسة تدمير وزعامتها ، واستطاعت بفضل تأييدها للرومان وتقريبها اليهم ان تكتسب ود القياصرة وعطفهم عليها والانعام على افرادها بالالقاب والوسمة وبالمال في بعض الاحيان ، وبالقوة والمعونة في احيان اخرى . ولم يتعرض الرومان لحكم افرادها بل تركوهم يديرون شئونهم وفق السياسة الرومانية^(١) .

ويعد (نصور) اقدم اسم وصل اليها من اسماء هذه الأسرة التي حكمت تدمير ، وان كنا لا نعرف عنه شيئا ما . أما (أذينة) فقد ورد اسمه في كتابة يرجع الباحثون زمان كتابتها الى حوالي سنة ٢٣٥م ، وقد لقب فيها بلقب (سقلطيق) ، وكان يحمل لقب عضو في مجلس الشيوخ الروماني ، ثم لقب بلقب ملك في حوالي عام ٢٥٠م وجمع الناس عليه ، فادرك الرومان ما وراء هذه الدعوة من خطر على مصالحهم ، فأوعز القيصر الى قائده «روفينوس» باغتياله ، فقتل وتخلص الرومان منه .

وتولى بعده حكم تدمير ولده «خيران» وفي عهده اخذت تدمير دورها في القضايا الدولية ، وما ان قامت الدولة الساسانية في عام ٢٢٦م ، تحت زعامة «اردشير بن بابك بن ساسان» (٢٢٦ - ٢٤١م) حتى بدأ الشرق

(١) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٤١ - ٥٤٢ .

يضطرب بالصراع بين الروم والفرس . وكان على التدمريين ان يختاروا الانضمام الى احدى القوتين الكبيرتين ، فأثروا الانضمام الى الروم .

وتولى بعد (خيران) هذا ، الملك أذينة ، وكان له ثار عند الرومان منذ ان قتل قائدهم «روفينوس» أباه (أذينة الاول) وعدم موافقة الامبراطور فاليريان على ان يأخذ بثأر ابيه من (روفينوس) ، ومن ثم فانه ما ان علم بهزيمة الروم في عام ٢٦٠ على ايدي الساسانيين ، حتى اسرع بالاتصال بالفرس ، مقدما لهم الهدايا ، وعارضا عليهم صداقة ، الا ان الامبراطور الفارسي ، الذي كان يحسن في ذلك الوقت انه ملك الشرق والغرب جميعا ، احتقر العرض التدمري ، وأمر بالقاء الهدايا في النهر ، وتوعد (أذينة) بسؤ المصير جزاء وفاقا على جراته في مخاطبة ملك الملوك ، وهو لا يعدو ان يكون شيخا لمدينة صغيرة (١) .

وعندما علم (أذينة) بموقف الملك الفارسي منه ، قرر الاخذ بثأره من هذا الملك المتخطرس ، فجمع القبائل بظاهر تدمير وجعلها تحت امره ابنه (هروديس) ، وضم اليها فرسان تدمر بقيادة (ذيدا) كبير قواده ، والقواصة ورماة السهام تحت قيادة «زباي» ، وحشد معهم بعض الكتائب الرومانية ، وسار على رأس هذا الجيش قاصدا المدائن للانتقام من الملك الفارسي ولانقاذ (فاليريان) الامبراطور الروماني الذي كان قد وقع في الاسر على اثر الهزيمة المخجلة التي لحقت بالروم على ايدي الفرس . وفي اثناء زحف أذينة على المدائن وصلته انباء تغلب القائد الروماني (كاليستوس) على الفرس وتشنت شملهم وهربهم ، فغير اتجاهه واسرع اليهم لملاقاتهم ، وقد ادركهم قبل تمكنهم من عبور نهر الفرات ، فالتحم بهم وتغلب عليهم ، وولى (سابور) مع فلول جيشه مذعورا تاركا امواله وحرمه غنيمة في ايدي التدمريين .

وكتب (أذينة) بعد ذلك الى الامبراطور الروماني يخبره بهزيمة الفرس

(١) آرثر كريستنس ، ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢١٠ .

وبإخلاصه للامبراطورية ، فأنعم عليه تقيصر الرومى بدرجة قائد عام على جميع عساكر الشرق . وتمكن (اذينة) بعد ذلك من فتح نصيبين وحران واستقبل هو وجنوده استقبالا عظيما ، ثم سار هو وجنوده الى طيسفون عام ٢٦٤م ، فخاف (سابور) وأمر بجمع كل ماعنده من قوات للدفاع عن عاصمته ، وأحكم (اذينة) الحصار حولها ، وكاد الامبراطور الفارسي ان يستسلم ، لولا ان المؤامرات الرومية قد لعبت دورا خطيرا في افساد نجاح اذينة . ذلك ان القائد الروماني «مكريانوس» - الذي كان سببا في هزيمة الروم ووقوع فالريان في الاسر - قد أعلن الثورة على «جالينو» ونصب نفسه امبراطورا على القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية . (آسيا الصغرى والشام ومصر) ، ومن ثم فقد اضطر (اذينة) الى رفع الحصار عن الفرس ، وان يعود لاختماد هذه الفتنة الجديدة ، الا انه ما أن بدأ يعد العدة لمواجهة «مكريانوس» حتى علم بقتله ، ثم اتجه الى حمص للقضاء على ولده «كياثوس» ، وبعد ان شدد الحصار على المدينة ، قتل (كاليستوس) سيده (كياثوس) ، ورمى برأسه من فوق السور تحت قدمي (اذينة) وفتح الابواب والتمس الامان منه . وبذا انتهت ثورة القائد «مكريانوس» ، غير ان (كاليستوس) سرعان ما عاد الى الثورة من جديد ، ومن ثم فقد أمر (اذينة) بعضا من رجاله باغتيال (كاليستوس) ، وعاد الهدوء الى هذه المنطقة الهامة من الامبراطورية بفضل جهود (اذينة) ، ومن ثم فقد أغدق عليه القيصر الرومى بلقب «امبراطور على جميع انحاء الشرق» ، اى على الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عدا اجزاء صغيرة منها ، وضربت نقود باسمه صور عليها (اذينة) ووراءه بعض اسرى الفرس ، واصبح تحت امرته جميع القوات الرومانية العسكرية في الشرق . واختار (اذينة) لنفسه لقباً آخر حبيبا الى نفوذ الشرقيين هو لقب (ملك الملوك) (١) .

وقام (اذينة) باصلاحات اثبتت انه لم يكن قائدا قديرا فقط ، بل كان الى جانب ذلك رجل ادارة وسياسة وتسامح ايضا ، فمنع تعصب الوثنيين

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٤٣ - ٥٤٥ .
جواد على ، المرجع السابق ، ص ٩٦ - ٩٧ .

عنى النصارى واضطهادهم لهم ، ومنح كل طائفة حريتها فى ممارسة شعائرها الدينية ، واعطى النصارى الحق فى بناء الكنائس ، وتعقب النصوص وقطاع الطرق من الجنود الهارين الذين قاموا بالاعتداء على الامنين ومهاجمة القوافل والمدن والقرى .

وفى عام ٢٦٥م ، اتجه (اذينة) الى محاربة الفرس من جديد ، فاتجه الى (طيسفون) وضرب الحصار عليها ، واضطر (سابور) الى ان يظهر استعداداه لعقد محالفة مع (اذينة) ، الا ان الاخير طلب فك أسر «غاليران» وهو شرط فى نظر الفرس جد عظيم ، ومن ثم فقد اوقفت المفاوضات بين الطرفين^(١) ولكن لسوء حظ (اذينة) تغير الموقف لمصلحة الفرس ، اذ عبر «القوط» البحر الاسود ، منتهزين فرصة غياب اذينة وابتعاده عن آسيا الصغرى وبلاد الشام ونزلوا بميناء هرقلية ، واتجهوا نحو «قبادوقيا» ، ومن ثم فان (اذينة) اضطر الى رفع الحصار عن مدينة الفرس ، والعودة لقتال الغزاة الجدد ، الا ان القوط سرعان ما علموا بعودة (اذينة) ، فعادوا الى ميناء هرقلية ، ثم ابحروا منها عائدين الى بلادهم . فقرر (اذينة) الرجوع الى العراق لفتح (طيسفون) وبينما كان فى حمص لراحة جنوده ، انتهر (معنى) ابن اخيه (خيران) هذه الفرصة ، فقتل هو وعصابته عمه (اذينة) وابن عمه (هيروودس) لاغتصاب عمه منه ملكه الذى ورثه عن ابيه ، ونادى بنفسه ملكا على المملكة التى كونها (اذينة) ولكنه ما كاد يتربع على العرش حتى انتقامت منه سيوف حمص عام (٢٦٦ - ٢٦٧م)^(٢) .

انتقل الملك بعد مقتل (اذينة) و (معنى) الى (وهبلت) او (هبلات) ابن (اذينة) من زوجته (الزباء) ويعرف فى اليونانية بـ(اتينودورس) ، وكان قاصرا ، لذلك تولت الوصاية عليه امه (الزباء) فعلمته اللاتينية والفروسية وهيئته ليكون ملكا كقيصرة الرومان او اكاسرة الفرس ، ومنذ ان تولت الملك بدأت تعمل على تكوين دولة عربية قوية تحت زعامتها ،

(١) جواد على ، نفس المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٢) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٣٨ .

وبخاصة انها أدركت بغطنتها السياسة ان اعداء تدمر ، انما هم الرومان ،
والذين لا يفكرون الا في مصلحة روما فحسب . ومن ثم فقد بدأت تتقرب
الى العناصر العربية المستوطنة في المدن ، فضلا عن الاعراب الذين كانت
ترى انهم عمادها في القتال وسندما في الحروب . وكان بداية النزاع بين
الزباء والارومان ، يوم ارسل «جالينو» بجيش لاحتلال تدمر والقضاء على
الزباء قبل ان يستفحل خطرهما ، متظاهرا بأنه يريد محاربة الفرس . الا ان
الملكة العربية سرعان ما اكتشفت السر ، ومن ثم فقد دارت بين الفريقين
معركة حامية الوطيس ، كتب النصر فيها للزباء، وحققت الهزيمة بالروم (١)،
وفي نفس الوقت ، خافت الملكة ان يستغل الفرس الفرصة فيوجهوا اليها
ضربة قد تكون غير مستعدة لها ، ومن ثم فقد انشأت حصنا على الفرات ،
دعته (زنوبيا) نسبة اليها .

ووجهت (الزباء) نظرها بعد ذلك نحو مصر ، ووضعت الخطط
للاستيلاء عليها ، بعد ان مهدت لنفسها الدعوة فيها باعلانها انها مصرية ،
وانها من نسل الملكة (كليوباترا) ، فلها اذن فيها ما يسمح لها بالتدخل في
شئونها . واخذت تتقرب الفرص وتتحين الاسباب ، فلما قتل القيصر
(غاليانوس) عام ٢٦٨ م ، وانتقل الحكم الى (اوريليوس فلوديوس) ٢٦٨ -
٢٧٠ م ، وفي نفس الوقت كان الالمان والقوط قد بدأوا يهاجمون القسم
الغربي من الامبراطورية الرومانية ، مما دفع (بروبوس) الحاكم الروماني
في مصر ، الى ان يخرج باسطول الاسكندرية لمطاردة القوط ، وهنا بدأ
الزعماء المصريون وعلى رأسهم تيماجنيس وفرموس - يحرضون الزباء
على فتح مصر ، بل ويقدمون لها العون المادي للمساعدة على هذا الفتح ،
وأمرت الملكة قائدها (زبدا) بالاتجاه الى مصر ، وكان على رأس جيش
قوامه سبعون ألف رجل ، وهناك دارت معركة رهيبية بين الفريقين انتهت
بانتصار (زبدا) قامد تدمر الذي قرر العودة الى تدمر تاركا في مصر حامية
صغيرة من خمسة آلاف رجل بزعامة (تيماجينيس) الذي عين نائبا عن الملكة

(1) Gibbon, E., The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1950, p. 263.

على مصر ، فلما سمع (برويوس) بهجوم التدمريين وتغلبهم على الرومان ، اسرع عائدا الى مصر ، فالف جيشا من المصريين الموالين للرومان وزحف على الاسكندرية ، واخذ يتعقب التدمريين ، واعمل فيهم السيف ، فلما سمعت الزباء بذلك ، أمرت قائدها بالعودة ثانية الى مصر ، فجرت معارك بين الطرفين انتهت بانتصار التدمريين على (برويوس) عند (بابلون) اى (الفسطاط) وكتب النصر لجيش الملكة فى مصر . وانتهى الامر باتفاق بين الزباء والرومان على ان يكون حكم مصر مشتركا بينهما ، قوافقت روما على بقاء جيوش تدمر فى مصر ، مع اعتراف تدمر بسيادة الرومان عليها . وقد عثر على عملات تدمرية نقشت فى الاسكندرية فى عامى ٢٧٠ ، ٢٧١م وعلى وجهها صورة القيصر (اورليان) بجانب صورة «وهب اللات» (ابن الزباء) مما يدل على الحكم المزدوج بينهما(١) .

ولم يدم هذا الاتفاق بين الرومان والملكة طويلا ، فقد ضغط سادات روما على الامبراطور بان ينقذ الامبراطورية مما حاق بها من تصدع فى أوروبا والشرق ، ولاسيما ان فتح الزباء لمصر والاستيلاء على الاسكندرية - اهم مدن الامبراطورية الرومانية قاطبة بعد روما - كان ضربة اصابته الروم فى الصميم . وعندما علمت الملكة بعزم الامبراطور الرومانى على القضاء عليها ، قررت القيام بعمل سريع قبل مباغته القيصر لها ، فالغت الاتفاق المعقود مع الرومان ومحو صورة القيصر الرومانى من النقود لتبرهن على قطع علاقتها بالقيصر وعدم اعترافها بالسيادة الاسمية الرومانية على مصر ، وأمرت كذلك بضرب صورة (وهبلات) وحده مع اللقب الامبراطورى المخصص لقيصرية روما ، وفى ذلك تحدى صريح وعلان العداء لروما .

وهناك رواية تذهب الى ان (الزباء) قد تفاوضت مع الملكة (فيكتوريا) عاهلة اقليم الغال ، لتوحيد الخطط فى مهاجمة القيصريّة الرومانية واقتسامها ، وبدأت جيوشها تتوغل فى آسيا الصغرى ، واقامت الحاميات باتجاه الشمال الغربى حتى (انقره) وظلت جيوشها تتقدم دونما ادنى

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ص ١١٤ - ١١٥ .

مقاومة ، حتى (خلقدونية) مقابل بيزنطة . وهكذا استطاعت ملكة البادية ان تكون لنفسها ولابنها امبراطورية انتزعتها من الرومان(١) .

غير ان تنفيذ هذه الخطة ، دعا الزباء الى ان تسحب كثيرا من قواتها من مصر ، وانتهرز اورليان الفرصة ، ونجح قائده في ان يلحق بالتدمريين في عام ٢٧١م ، هزيمة كانت نتيجتها خروج مصر من امبراطورية الزباء ، وكان من اخطر النتائج التي تمخضت عن فقد مصر ، ان الزباء بدأت تفقد الثقة بنفسها وبجيشها ، كما شجعت اهل (خلقدونية) بآسيا الصغرى على صد هجوم التدمريين ، املا في نجدة قريبة تاتي من القيصر الروماني ، وهذا ما حدث بالفعل ، اذ سرعان ما قدمت الجيوش الرومانية بقيادة القيصر نفسه ، فعبرت البسفور ، وطردت التدمريين من (بتينية) ثم اتجهت الى (غلاطيه) ف(قبادوقيا) حتى بلغت (انقره) . وهكذا استطاع اورليان في عام ٢٧٢م ، ان يخضع الحاميات التدمرية في آسيا الصغرى ، وان يتابع مسيرته حتى سورية(٢) .

وحاولت جيوش الزباء ان توقف تقدم جيوش الرومان ، في الوقت الذي اشاع فيه الرومان بين الناس بان هناك تنبؤات الهية بسقوط تدمر ، لاقتناعهم انه من العبث مقاومة القيصر وجنوده ، وانه من الخير ترك المقاومة والاستسلام . وقد اثرت هذه الشائعات في عقول الكثيرين ، فقضت على معنويات التدمريين الوثنيين الذين يدينون بهذه الخرافات ويؤمنون بها ، ومع ذلك فقد استعدت الملكة لملاقاة (اورليانوس) عند مدينة (انطاكية) وكانت هي على رأس الجيش ، اما القيادة فكانت لقائدها (زيدا) ، وتحقق النصر للملكة (الزباء) وجيوشها في بادىء الامر وشتتوا شمل الجيش الروماني الا ان القيصر قد أمر جنوده بالرجوع الى مسافات بعيدة ، ليوهم التدمريين انه قد فر ، فاذا ساروا في اثرهم وابتعدوا عن قواعدهم باغتتهم بالهجوم ، فلا يتمكن فرسان تدمر من هزيمتهم لثقل اسلحة الفرسان ومعداتهم وبطء خيلهم بالقياس

(١) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٤٠ .

(٢) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ١١٧ .

الى خيل الرومان . وهذا ما حدث ، فقد خدع التدمريون وظنوا رجوعهم هزيمة ، فتعقبوهم الى مسافات بعيدة ، وفجأة انقلبت الكتائب الرومانية على التدمريين ، واطبقوا عليهم واعملوا فيهم السيوف ، وانهزموا هزيمة منكرة الى مدينة (انطاكية) . وقررت الملكة سرعة الارتحال عن انطاكية لاسباب عديدة ، منها ان القوم هناك كانوا يميلون الى جانب الرومان بعواطفهم ، فهناك جاليات يونانية ذات نفوذ في المدينة تفضل حكم الرومان على حكم الشرقيين ، وهناك كره النصارى للزباء بسبب موقفها من الاسقف (بوليس السميساطى) الذى عزله مجمع انطاكية ، ولكنها لم تنفذ قرار العزل ، وهناك كراهية اليهود للتدمريين(١) .

وتلى ذلك تعقب القيصر للملكة حتى وصل الى حمص ، وهناك تقابل الفريقان للمرة الثانية وكان النصر للتدمريين فى الجولة الاولى ، ثم هزيمة لهم فى الجولة الثانية ، مما اضطرها الى ترك حمص والاحتفاء بتدمير نفسها ، ودخل (اورليان) حمص وتوجه بالشكر الى اله الشمس ، وتعهد بتوسيع معبده وتجميله . وادرك القيصر ان النصر الحقيقى لن يتم الا بالقبض على (الزباء) وفتح تدمر ، لذلك قرر الزحف اليها باقصى سرعة قبل ان تتمكن الملكة من تحصين مدينتها ومن الاتصال بالفرس وبالقبايل العربية فى البادية فيصعب عندئذ الاستيلاء عليها ، فسار مسرعا حتى بلغ المدينة والقى الحصار على تدمر ، غير ان المدينة قاومت بشدة ، وعرض اوليان على الزباء التسليم بشروط معتدلة ، غير ان الملكة رفضت العرض باياد وشمم ، مذكرا اياه بانها تفضل مصير كيلوباترا على عار الاستسلام له ، وانها سوف تلقنه درسا قاسيا على جراته فى الكتابة اليها ، طالبا منها الاستسلام ، عندما يحين الوقت ، ويأتى اليها اعوانها من الفرس والعرب والارمن . ومن الجدير بالذكر ان الملكة لم تجد عوناً من كل هؤلاء ، فقد كانوا هم انفسهم فى شغل شاغل عنها ، ومن ثم فقد قررت ترك عاصمتها للاقدار ، والتسلل منها ليلا للوصول بنفسها الى الفرس لعلهم يرسلون لها نجدة تغير الموقف . ولما علم اورليانوس نبأ هرب الملكة ارسل رجاله فى اثرها وامرهم بالقبض عليها

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٥٦ .

مهما كلفهم الامر ، ونجح هؤلاء الرجال في القبض عليها وأعادوها الى (اورليانوس) وهكذا لم يعد امام تدمير سوى الاستسلام ، ومن ثم فقد فتحت ابوابها في اوائل عام ٢٧٣م لقيصر روما ، فدخلها اورليانوس دخول الفاتحين ، واقام حاكما رومانيا عليها مع عدد من الرماة . وهكذا عادت تدمر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية ، بعد ان شقت عصا الطاعة منذ أسر فاليريان عام ٢٦٠م (١) .

واخذت الزباء الى حمص ، وهناك عقد مجلس لمحاكمة الملكة العربية العظيمة ورجال بلاطها . وتذهب بعض الروايات الى ان الزباء قد تنصلت من مسؤوليتها عما حدث ، فضلا عن اعترافها بانها لم تكن الا الاحتقار لامثال جالينوس وكلوديوس ، ولكنها تعترف لاورليانوس وحده بأنه ملك فاتح ، الا أن كثير من المؤرخين ينكرون هذه الرواية التي لا تتفق وما كانت عليه الزباء من سمو الاخلاق والشجاعة ، وأيا ما كان نصيب هذه الرواية من الخطأ أو الصواب فان اورليانوس قد أمر باعدام بعض رجال الزباء . وان كان قد ابقى عليها هي وابنها (وهبلات) بغية الحاقهما بموكب النصر الذي سوف يقيمه عند دخوله روما ، عاصمة الامبراطورية الرومانية (٢) .

وفي اثناء رحيله الى روما جائته الانباء بقيام ثورة عاتية في تدمر ، واخرى في مصر ، وهنا لم يتردد اورليانوس في ان يولى وجهه شطر سوريا ، وقضى على ثورة التدمريين ، وانهال عليهم بالتنكيل ، ولم ينج من عقابه الرهيب احدا من الشيوخ أو النساء أو الاطفال . وبذلك فقدت المدينة كل عظمتها القديمة ، واخذ اورليانوس السهام والاقواس في تدمير ليعملوا في خدمة الجيش الروماني في افريقية .

أما الملكة الزباء فقد انتهى الامر بها بأن تقبع في بيت خصص لها في «تبيور» بإيطاليا مع اولادها وان تعتزل السياسة والشرق . أما تدمر فقد ذهب كل مجدها ولم تعد سوى قرية صغيرة وقلعة من قلاع الحدود في عهد

(1) Gibbon, E., Op. Cit., p. 267.

(٢) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ١٢٤ .

دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) ، وفي حوالى القرن الخامس الميلادى كانت تدمر مقاطعة تابعة لولاية فينيقية ، وعين فيها ثيودوسيوس (٤٠٨ - ٤٥٠ م) ، فرقة من الجنود لحراستها وحمايتها من هجمات رجال البادية . وفي العام الاول من حكم (جستنيان) ٥٢٧ - ٥٦٥ م اصبحت تدمر على خط الحدود الخارجية للامبراطورية ومن ثم فقد أمر الامبراطور بتقوية حاميتها واصلاح ما تهدم من مبانيها ، فضلا عن تحصين قلاعها واسوارها وتحسين موارد مياهها ، ثم اتخاذها مقرا لحاكم ولاية فينيقية . ومع ذلك ، فان تدمر بدأت تفقد اهميتها شيئا فشيئا ، ورغم الاشارة اليها كمركز أسقى في الصحراء ، فان الصحراء قد تغلبت عليها يوم فقد سكانها السيطرة على هذه الصحراء ، وظلت كذلك حتى فتحها (خالد بن الوليد) صلحا في عام ٦٣٤ م ، على ايام الخليفة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - غير انها لم ولن تعد كما كانت ايام الزباء .

واخيرا فانه يوجد في تدمر في الزمن الحاضر ، ثروة تاريخية مطمورة تحت الانقاض ستفيدنا ولا شك فائدة كبيرة في تدوين تازيخ المدينة وتاريخ صلاتها بالخارج . ومن المواضع العديدة التى ذكرها (بطليموس) في مقاطعة تدمر (بالмира Palmyra) ، وهى تدمر العاصمة ، ثم (الرصافة) وهى مدينة قديمة ورد خبرها في النصوص المسماة في نص يعود الى عام ٤٨٠ ق م وقد اشتهرت بوجود ضريح القديس (سرجيوس) بها وهو مقدس عند الغساسنة (١)

(١) عن آثار تدمر ، انظر :
المسيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

الفصل الثاني عشر

الغسل سنة

الغساسنة

قامت على اطراف الصحراء في القرنين الخامس والسادس الميلادي دويلتان جديدتان ، ازدهرت احدهما حول دمشق وعرفت بدولة الغساسنة ، اما الاخرى فقد ازدهرت في الحيرة بالقرب من ضفاف الفرات وعرفت بدولة اللخمين . وكانت هاتان الدولتان تابعتين لامبراطورية بيزنطة وفارس - وكانتا بمثابة مركزى حراسة لهما على حدود الصحراء . وقد عرف ملوك الغساسنة ببني جفنة ايضا ، وقد نقلت كلمة (غسان) في زعم الاخباريين من اسم ماء يقال له (غسان) ببلاد (عك) بزييد وريبع ، نزل عليه آل غسان ، وأصلهم من الازد ، بعد خروجهم من اليمن قبيل حادث سيل العرم أو بعده ، فلما أقاموا عليه وشربوا منه ، اخذوا اسمهم منه ، فسموا (غسان) ، وعرف نسلهم بالغساسنة . أما سبب تسميتهم بآل جفنة فلانتسابهم الى جد اعلی يدعونه (جفنة بن عمرو فريقياء بن عامر) على رأى ، أو الى (جفنة) قبيلة من غسان من اليمن .

وتاريخ دولة الغساسنة هذه غامض لقلة المصادر ، ولامتزاج الحقائق فيه بالاساطير ، ولضياح معظم آثار بني غسان ، ومن ثم فلا تتفق المصادر العربية مع اليونانية الا في القدر اليسير ، بل ان المؤرخين العرب انفسهم انما يختلفون في عدد الملوك وسنى حكمهم واسمائهم . وربما يرجع ذلك الاختلاف الى اختلاط اخبار آل غسان بالقبائل العربية التى سبقتهم الى سوريا ، واقتصار مؤرخى العرب على الناحية الادبية من تاريخ الغساسنة ، واهمال تاريخهم السياسى ، اصف الى ذلك هذا التشابه فى الاسماء بين حارث ومنذر ونعمان ، واختلاط ذلك ايضا بالتشابه والتقارب مع اسماء ملوك المناذرة (١) .

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .

ويزعم الاخباريون ان الذى قاد الغساسنة فى خروجهم من اليمن ، هو عمرو المعروف بـ(فريقيا) وهو ابن عامر ماء السماء بن حارثة ، وقد نزح معه من اليمن قومه من الازد ، فنزل المدينة ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر ، ومنهم الاوس والخزرج ، ونزل مكة رهط حارثة بن عمرو بن عامر ، وهم خزاعة ، ونزل جفنة بن عمرو بن عامر بالشام وهم الغساسنة ، وقد استوطنوا ارض حوران حيث كان هناك قوم يعرفون (بالضجاعة) من قبائل بنى سليح بن حلوان من قضاة ، قد استقروا هناك ورضخوا لحكم الرومان ، ودانوا بالنصرانية من قبل مجيء الغساسنة .

وقد استقر الغساسنة ايضا فى نواحي الجنوب الشرقى من دمشق على مقربة من الطرف الشمالى لطريق النقل الهام الذى كان يربط بين «مارب» فى الجنوب ودمشق فى الشمال (١) . وما ان يمضى حين من الدهر على هجرة الغساسنة الى الشام حين تبدأ الخلافات بينهم وبين الضجاعة ، وقد بدأ هذا الخلاف عندما فرضت سليح (وهم من الضجاعة) جباية سنوية قدرت بدينار على كل رجل ، وكان من الطبيعى ان تؤدى جباية هذه الضريبة من غسان ، الذين (كانوا لا يعرفون الجباية) ، الى صدام بينهم وبين عرب بنى سليح ، ثم بينهم وبين الروم الذين فرضوا حمايتهم وسيادتهم على بنى سليح .

وتم اللقاء الاول بين الغساسنة - الذين قتلوا الجابى السليحي - وبين عساكر الروم الذين يظن انهم كانوا من سليح ، فى موضع عرفه العرب بوادى الكسوة ، نظرا لسلبهم كسوة عسكر الروم الذين قتلوا فى المعركة . وهكذا عرف الروم قوة بنى غسان ، فصالحوهم (على ان تعطى غسان الذمة ، والدخول والخروج من البلد والمرعى والنصرة ضد العدو ، والمواصاة والعدل) .

وهكذا ثبت الغساسنة اقدامهم فى ارض الشام الى جانب السليحيين .

(١) المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) ، التنبيه والاشراف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٥٨ .

وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بانتزاعهم السيادة على كل البلاد من الضجاعة رؤساء سليح ، بعد عدد من الوقائع بين غسان وبين الروم وسليح «الذين كانت أجسامهم مع قيصر وقلوبهم مع غسان» منها : يوم بالعة الذي انهزمت فيه الروم .، ومنها اللقاء الذي تم بمرج الظباء وهو يوم حليلة الذي وقفت فيه قبائل العرب ، من سليح وكناية وجذام الى جانب الروم حتى وافقت غسان على الصلح فظنر دفع الجزية وكانت المطالبة بها هذه المرة بالقرب من باب دمشق الذي عرف لذلك السبب بـ (باب الجابية) ، وهذا يعنى تقدم الغساسنة نحو قلب بلاد الشام ، مما ادى الى الحرب من جديد . ووقفت سليح الى جانب الروم ، بينما اتت المعونة الى الغسانيين من بنى عمومته في يثرب ، وانتهى الامر بانتصار غسان حتى اضطر قيصر الى صلحهم على ان لغسان ملك الشام ، وان للمكهم طعمة على الروم ، وان ينصروه في الحرب .

والجدير بالذكر ان العاصمة السياسية للغساسنة يبدو انها كانت في البدء مخيما متنقلا ، ثم استقرت بعد ذلك في «الجابية» في منطقة الجولان جنوب غربى دمشق ، كما كانت في بعض الوقت في «جلق» في جنوب حوران (١) .

أما عن ملوك الغساسنة فتذكر رواية (وهب بن منبه) أن أول من ملك من الغساسنة هو (عمرو بن جفنة) الذي حقق الانتصارات التى سبق ذكرها على الروم ، وربما حدث ذلك في أواخر القرن الخامس الميلادى ، أو قبل ذلك بقليل . ويعد (الحارث بن جبلة) المعروف لدى الاخباريين بـ«الحارث الاعرج» و (الحارث الاكبر / ٥٢٨ - ٥٦٩م) أول أمير نعرف من أمره شيئا واضحا يذكر من أمراء آل جفنة ، وهو في نظر (نولدكه) (ارتياس) الذي ذكره المؤرخ الميرياني (ملالا) على أنه كان عاملا للروم (٢) .

وهناك ما يشير الى نشوب حرب بين الحارث والمنذر الثالث أمير الحيرة،

(١) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .
(٢) تيودور نولدكه ، أمراء غسان من آل جفنة ، ترجمة قسطنطين زريق وبنرلى خورى ، بيروت ، ١٩٣٣ ، ص ٩ .

ربما بسبب العداوة التي انتقلت اليهم من العداوة التي كانت بين الفرس والروم ، وربما لان أمير الحيرة ادعى ان القبائل العربية النازلة فيما بين دمشق وتدمر ، أنما تخضع لسلطانه ، فنازعه الامير الغساني هذا السلطان . وأيا ما كان السبب ، فان الرجلين اشتبكا في ابريل من عام ٥٢٨ في حرب كتب النصر فيها للحارث الغساني ، ومن ثم فقد منحه (جستنيان) قيصر الروم ، لقب ملك - وهو لقب لم يمنحه الروم لواحد من عمالهم في سورية من قبل - كما بسط سلطانه على قبائل عربية متعددة ، بغية ان يجعل منه خصما قويا لامير الحيرة ، وان كان (نولدكه) يشك في منح القيصر الرومي الحارث لقب ملك ، ذلك لان هذا اللقب كان خاصا بقياصرة الروم ولا يمنح لغيرهم ، ويرجح ان يكون (جستنيان) قد منحه لقب (بطريق) ولقب (سيد القبيلة) (فيلارخوس) . ولقب البطريق من القاب الشرف الفخمة عند الروم ولصاحبه امتيازات ومنزلة في الدولة ، ولذلك فلم يكن يمنح الا لعدد قليل من الخاصة (١) . والجدير بالذكر ان نص (ابرهة) الذي ورد فيه ذكر اسم (الحارث بن جبلة) لم يورد لقب ملك مقترنا باسم الحارث ، ويدل ذلك على ان (ابرهة) قد اتبع الاصول الدبلوماسية المقررة عند البيزنطيين ، وان لقب ملك لم يكن لقباً رسمياً للحارث وكان ذلك عام ٥٤٢ م .

هذا وقد اشترك (الحارث بن جبلة) في المعركة التي نشبت بين الفرس والروم في ١٩ ابريل عام ٥٣١ م ، وانتهت بهزيمة الروم . وقد اثار تصرف الحارث في هذه الحرب شك الروم في اخلاصه لهم ، والحذر منه ، اذ ماكاد هذا الامير يعبر نهر دجلة مع قائد الروم (بليزارىوس) حتى عاد فرجع الى مواضعه بعد ان سلك طريقاً آخر غير الطريق الذي اتبعه معظم الجيش دون ان يقوم بعمل يذكر في هذه الحرب ، مما جعل الروم يشكون في صداقته لهم ، ويراقبون حركاته ، خوفاً من انقلابه عليهم (٢) .

وفي عام ٥٤٤م تجدد النزاع ثانية بين الحارث والمنذر امير الحيرة ،

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٠ - ١٢ .

(٢) جرجى زيدان ، المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

وتشمل البلقاء والصفاء وحران، وأصبحت بصرى العاصبة الدينية في المنطقة، فضلا عن شهرتها كمركز تجارى هام .

وجاء بعد الحارث ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨١م) أو (٥٧٠ - ٥٨٢م) وقد عرف بـ Alamundaros عند اليونان والسريان ، وقد استهل حكمه بالحرب مع ملك الحيرة قابوس ، والظاهر ان عرب الحيرة كانوا هم البادئين بها ، فانقصر عليهم في يوم ٢٠ مايو ٥٧٠م في معركة عين أباغ . وحدث في عهد هذا الامير ان ساءت العلاقات بين الغساسنة وبين قيصر الروم الامبراطور جستنيان الثانى (٥٦٥ - ٥٧٨م) ، وربما كان ذلك بسبب الخلافات المذهبية بين الفريقين ، وتعصب المنذر الغسانى للمذهب المونوفيزى ، بل ان هناك من يذهب الى ان المنذر قد عقد مجمعا كنسيا اعلن فيه هرطقة القائلين بالتثليث ، وعلى رأسهم الامبراطور نفسه ، وربما لان سياسة المنذر كانت هى السبب فى استيلاء الفرس على (Rhomyce) وأحس المنذر بأن القيصر يدبر له مؤامرة ، وانه امر عامله البطريق (مرقيانوس) بأن يحتال عليه لقتله ، تمرد على الروم ، وغادر أرضهم الى البادية ، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة المؤاتية فأمعنوا فى غزو بلاد الشام ، وإيقاع الرعب فى نفوس سكان القرى المجاورة لهذه الحدود مما حمل الروم على مراسلة المنذر والتودد اليه لاسترضائه ، حتى اذا ما قلطف الجو أرسلوا اليه البطريق (يوسطنيانوس) ليجتمع به فى مدينة الرصافة عند قبر القديس (سرجيوس) لإقناعه بترك موقفه والموافقة على العودة الى محله . وعند القبر المقدس عقد الصلح بينهما فى صيف عام ٥٧٨م ، فعاد المنذر الى أرضه ، ليقوم بالدفاع عن حدود الشام .

هذا وقد قام المنذر بزيارة القسطنطينية فى عام ٥٨٠م مصطحبا اثنين من ابنائه ، وقد استقبل هناك بكل احترام وتبجيل وأنعم عليه الامبراطور تيبيريوس الثانى (٥٧٨ - ٥٨٢م) ، بلقب (Rex) وبالتاج وهو لقب كان له شأن كبير فى امبراطورية الروم ، وقد أعقد القيصر عليه بالهدايا الثمينة النفيسة مما لم ينعم به أى ملك عربى من قبل، كما أنعم على ولديه بدرجات

عسكرية . هذا وقد اطلق مؤرخو الروم على المنذر لقب «المنذر ملك العرب» (١) .

وقد قام المنذر بتجديد بناء كنيسة الرصافة ، كما بنى صهاريج لايصال الماء الى الرصافة مدينة القديس (سرجيوس) ذى المكانة العظيمة عند عرب الشام ، كذلك فقد طلب المنذر وهو فى القسطنطينية من البيزنطيين مساعدته فى بناء قصر يكون اعظم قصر غسانى بنى ، حتى ايامه ، وذلك بأن يرسلوا اليه احسن المعمارين والبنائين الحاذقين ، فلبى البيزنطيون طلبه فأمدوه بما يحتاج اليه من معماريين ومن مواد بناء . ومن أبنيته الخربة المعروفة اليوم بناء يعرف باسم البرج ، وقد عثر على اسمه مدونا على حجارة من ذلك البناء .

على ان العلاقات بين المنذر والروم ، سرعان ما بدأت تسوء من جديد ، وربما كان السبب هذه المرة فشل المحاولة التى قام بها الروم لغزو الفرس ، بسبب هدم الجسر المنصوب على الفرات ، واتهام المنذر بذلك ، وزاد الطين بلة ان المنذر اراد استرضاء الروم فأغار على الحيرة واحرقها بالنار ، ثم عاد محملا بالغنائم الكثيرة ، غير ان هذا النجاح الساحق الذى حققه المنذر على اللخمين لم يمح ريبة الروم فى ولائه لهم ، وانما اعتبروه تحديا لهم ، ورغبة منه فى الخروج على طاعتهم ، ومن ثم فقد انتهزوا فرصة افتاحه لكنيسة فى حوارين ، وقبضوا عليه وارسلوه الى العاصمة البيزنطية ، مع احدى نسائه وبعض بناته وأولاده ، حيث بقى هناك الى أن تولى «موريس» (٥٨٢ - ٦٠٢م) العرش ، فأمر بنفيه الى صقلية فى عام ٥٨٢م فضلا عن قطع المعونة السنوية عن آل جفنة (٢) .

أثار عمل الروم هذا ثائرة أبناء المنذر ، فتركوا ديارهم ، وتحصنوا بالبادية ، واخذوا يهاجمون منها حدود الروم ملحقين بها أذى شديدا ، فاضطر القيصر على اثره ان يوعز الى القائد (ماكنوس) بتجهيز حملة من

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢١٠ .
(٢) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٤٩ .

ابناء المنذر الحق بها احد اخوة المنذر ، وكان قد أعد ليتولى مقام اخيه ، غير انه توفي بعد ايام . ولما كان من الصعب على الروم مهاجمة ابناء المنذر في البادية ، عمد القائد الى المكيدة ، فارسل الى النعمان كبير ابناء المنذر انه يريد مقابلته للاتفاق معه على وضع شروط للصالح . وقد ظن الامير ان القائد صادق فيما دعا اليه فذهب لمقابلته ، فقبض عليه الروم ، وارسلوه الى العاصمة حيث خجروا عليه فيها ، وهكذا تصدع ملك الغساسنة . وانقسم امراؤهم شيئا واحزابا تركت بعضها ديارها فهاجرت الى العراق وتشقت الباقون ، ولم يبق لهم شأنا يذكر ، ولم يشر الكتبة السريان او البيزنطيون الى ملك الغساسنة بعد هذا الحادث ، وقد عقب هذا التصدع حدوث اضطراب في الامن وفوضى بين القبائل التي اخذت تتنافس بينها للحصول على الرئاسة والسيادة ، مما حمل البيزنطيين على التفكير في اختيار رئيس قوى من سادات القبائل المتنافسين ليقوم بضبط هذه القبائل واعادة الامن الى نصابه وحماية الحدود من هجمات عرب الحيرة ، ولكن دون جدوى ، حتى استطاع الفرس على ايام «كسرى أبرويز» (٥٩٠ - ٦٢٨م) غزو سوريا ، فاستولوا على انطاكية ودمشق وبيت المقدس وخلقذونية ، ثم فتحوا مصر في عام ٦١٩م ، وان كان فيما يبدو ان هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) حين نجح في استعادة سوريا عام ٦٢٩م ، ربما استعمل الغساسنة مرة اخرى ، بدليل انهم قد حاربوا المسلمين مرارا في جانب الروم ، وان خالد بن الوليد قد اوقع بهم في «مرج الصفر» جنوب دمشق عام ٦٣٤م .

وايا ما كان الامر ، فان الروايات العربية تنظر الى «جبله بن الايهم» على انه آخر الغساسنة وانه قد حارب المسلمين في جانب الروم في موقعة اليرموك عام ٦٣٦م (١) .

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤٢٧ .

الفصل الثالث عشر

مملكة كنودة

مملكة كندة

كندة هي قبيلة قحطانية تنسب الى ثور بن عفير بن عدى بن الحارث ابن مرة ، وينتهى نسبه الى كهلان من سبا ، وقد عرفت عند الاخباريين بـ (كندة الملوك) ، لان الملوك كان لهم على بادية الحجاز من بنى عدنان ، ولانهم ملكوا اولادهم على القبائل . وكانوا يتعززون بنسبهم الى كندة . وكندة هي (كدت) وهي القبيلة التي ورد ذكرها في نص أبرهة ، وفي نصوص عديدة قبل هذا العهد ، اذ ورد ذكرها في احدى النصوص التي تنسب الى واحد من ملوك سبا وذى ريدان ، ويرجع الى النصف الثاني من القرن الاول قبل الميلاد ، وقد جاء في هذا النص انه في عهد الملك «شعراوتر» انضمت كندة والتي يحكمها «ربيعة» من آل ثور ، والذي كان ملكا على قحطان ايضا ، الى صفوف اعداء ملك سبا وذى ريدان . وكانت كندة مستقلة وعلى راسها ملك ، في ايام «الشرح يخصب» ملك سبا ، وكان ملكها اذ ذاك من المناهضين للمعادين للملك «الشرح يخصب» واشترك في الحلف الكبير الذي تآلف ضد مملكة (سبا وذى ريدان) ، وقد منيت (كندة) بهزيمة على يد جيش سبا ووقع ملكها في الاسر وكان يدعى (مالك) ، وفقدت كندة بعد هذا العهد استقلالها في وقت لا نستطيع تحديده لعدم ورود شيء عنه في النصوص ، وصارت خاضعة لحكم دولة سبا وذى ريدان (١) .

وأول من ذكر اسم كندة من المؤلفين الكلاسيكيين هو (نونوسوس) وقد دعاها باسم (Kindynoi) اي كندة ، وذكرها انها وقبيلة (مادينوى) كانتا من اشهر القبائل العربية عددا ومكانة ، يحكمها رجل واحد اسمه (قيس) ، وتعتبر كتابات الاخباريين من اهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في دراسة مملكة كندة . ويأتى في مقدمة هؤلاء الاخباريين ابن الكلبي وله مؤلف

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

خصصه لتاريخ كندة ، سماه : (كتاب ملوك كندة) ، وله مؤلفات أخرى لها علاقة بهذه القبيلة ، وأبو عبيدة والاصمعي وغيرهم .

ويذكر الاخباريون ان مواطن كندة الاصلية كانت بجبال اليمن مما يلي حضرموت ، وان جماعات من كندة قد غادرت مواطنها في النصف الاول من القرن الرابع الميلادي ، واتجهت شمالا حتى نزلت في مكان دعى فيما بعد (غمر كندة) أو «غمر ذى كندة» - وهى ارض لبنى جنادة بن معد في نجد ، وتقع وراء «وجرة» على مسيرة يومين من مكة . على ان الاخباريين انما يختلفون في اسباب هجرة الكنديين الى الشمال ، فذهب فريق الى أن السبب انما كان حربا استعمر اوراقها بين حضرموت وكندة ، ثم طال امدها حتى كادت ان تقضى على الكنديين ، ومن ثم فقد اضطروا الى النزوح الى الشمال ، فرارا بانفسهم من الفناء (١) .

ويرى آخرون أن السبب انما كان لان «حسان بن تبع» كان آخا لحجر اكل المرار من أمه ، وان حسان كان قد دوخ بلاد العرب وسار في الحجاز (ربما حوالى عام ٤٨٠م) ، وعندما اراد العودة الى اليمن ولى اخاه حجرا على معد بن عدنان كلها ، فنجح في ولايته ، واجسن السيرة في رعيته حتى لم يرضوا به وبآله بديلا ، على ان (ابن خلدون) انما يذهب الى ان التبابعة انما كانوا يصاهرون «بنى معاديه بن عنزة» الذين كانوا يملكون في «دمون» ، وانهم كانوا يولونهم على بنى معد بن عدنان في الحجاز ، وان اول من ولى منهم انما كان حجر اكل المرار وان الذى ولاه ، انما هو تبع ابن كرب الذى كسا الكعبة . وهناك رواية رابعة تذهب الى ان سفهاء بكر قد غلبوا عقلاءها ، وان القوى منهم قد أكل الضعيف ، فنظر العقلاء في امرهم ، ثم استقر رأيهم آخر الامر ، ان يملكوا عليهم ملكا يأخذ للضعيف من القوى ، فنهاهم العرب ، وعلموا ان هذا لا يستقيم بان يكون الملك منهم ، لانه يطيعه قومه ويخالفه آخرون ، ومن ثم فقد ساروا الى بعض تبابعة اليمن ،

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٦٠١ - ٦٠٢ .

استقنا جنطقيا من بعل ، وانما هو اسم مصطنع ابتدعه كيهان تدعى ليجننوا
الجمهور الخطا من الخلط بين بعل «وبعل شمين» (١) .

اما الاله «رضى» فهو آلهة الثموديين والصفويين ، وقد جاء في النقوش
الشمودية بصيغ مختلفة منها «رضو» و «رضى» و «رضا» ، وقد ذكرته
النصوص الصفوية كثيرا في نقوش يتوسل فيها اصحابها اليه بان يمن عليهم
بالسلامة والنعم ، وان يبعد عنهم شر الاعداء وكيدهم . ويرى بعض الباحثين
ان رضى قد عبد عند عرب الجاهلية كآلهة انثى في صيغته «رضى» و «رضاء» ،
وعبد كاله ذكر عند الثموديين في صيغته المذكورة (رضو) (٢) .

اما عبادة الكواكب فقد سادت جنوب شبه الجزيرة العربية ، وكان اهم
هذه الكواكب هو الثالث الذى يمثله القمر والشمس والزهراء ، ويمثل
القمر من هذا الثلاث دور الاب ، اما الشمس فتمثل دور الام ، بينما كانت
الزهرة تمثل دور الابن . وتمثل عبادة هذا الثلاث من الكواكب تدخلا
بين مرحلتين من مراحل تطور المجتمع ، فعبادة القمر والزهراء هي
عبادات مجتمع رعى في المقام الاول ، فالانتقال في البداية يكون فيه ضوء
القمر وسيلة لتوضيح المعالم والشيء ذاته بالنسبة لكوكب الزهراء الذى يمكن
التعرف على الوقت والاتجاه من خلاله ، ولكن ربما كانت القيمة الاساسية
هي ان القمر بالذات يرمز الى فترة الليل حيث تهبط درجة الحرارة وتتكثف
الابخرة الموجودة في الجو لتتحول الى ندى يبعث الحياة في العشب الذى
تتكون منه المراعى ، بينما اشعة الشمس بالنسبة للمجتمعات الزراعية هي
التي تعطى النماء للزراعة وهي التي تنضج المحصول ، وقد كانت العربية
الجنوبية منطقة زراعية في المقام الاول ، ولكنها عرفت شيئا من الرعى
كذلك في بعض مناطقها ، واكثر من ذلك فان الرعى يمثل مرحلة مبكرة

(1) Hussaud, R, La Penetration des Arabes on Syrie avant L,
Islam, Paris, 1955, p. 92-94.

(2) Caske, W., Lihyan und Lihyansch, Kohn, 1954, 47, 143.

جواد على ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء السادس ،
ص ١٧٠ .

تظهر عادة في المجتمعات قبل مرحلة الزراعة التي تمثل بالضرورة مرحلة أكثر استقرارا ومن ثم أكثر تطورا .

وربما كان العرب الجنوبيون متأثرين في هذا الثالوث ببلاد الرافدين حيث نرى نفس الثالوث يحتل مكانة ممتازة هناك .

والاله القمر كانت له منزلة خاصة في ديانة القوم فهو كبير الآلهة ، وله اسماء والقباب عديدة في الاساطير والطقوس والتقويم واسماء الاعلام ، وبلغت مكانته الى حد دفع بعض العلماء الى القول بأن الديانة العربية الجنوبية انما هي ديانة قمرية وذلك لان الاله القمر كان قويا مهيمنا على سائر مناحى الحياة المدنية والسياسية .

ويعرف الاله القمر بالاله (ود) عند المعينيين ، و(المقه) عند السبئيين ، و (عم) في قتبان و (سين) في حضرموت ، وهو اله (معين) الكبير . والجدير بالذكر ان القمر ما كان يسمى في النصوص باسمه ، وانما كان يشار اليه بكناه وصفاته في غالب الاحايين ، وربما كان العرب الجنوبيون يفعلون ذلك تادبا أمام من يرونه رب الارباب ، اذ ليس من المقبول ان يخاطب ربه كما يخاطب غيره من البشر ، كذلك فان كل الاساطير التي لدينا بمحتوياتها المختلفة انما ترجع الى القمر ، وقد اختير الثور كحيوان مقدس لاله القمر ، نظرا لان قرنيه يذكران بالهلال (١) .

اما الالهة الشمس فتأتى في المرتبة الثانية بعد الاله القمر ، وقد عبادت في مواضع مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، وان كنا لا ندري على وجه اليقين متى بدأت عبادة الشمس ، الا ان هناك نصا قرآنيا يستدل منه على انها كانت موجودة منذ القرن العاشر قبل الميلاد ، ذلك ان القرآن الكريم يحدثنا ان ملكة سبا على أيام سليمان ، عليه السلام ، كانت وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، ولما كان سليمان يحكم في الفترة (٩٦٠ - ٩٢٢ ق م) فان عبادة الشمس قد وجدت منذ القرن العاشر ق م على الاقل .

(١) ديتلف نلسن ، المرجع السابق ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، محمد بيومي مهران ، الديانة العربية القديمة ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ، ص ١٩ - ٢٢ .

(ماريا) زوجة للحارث الغساني الكبير . هذا وقد قامت (ربيعة) بثورة على (عمرو المقصور) منتهزة فرصة الضعف في آل كندة على أيامه ، وكان قد ظهر من بنى تغلب في نفس الوقت رجل قوى هو (وائل بن ربيعة) تمكن من انتزاع جميع قبائل ربيعة التي كانت تحت سيطرة آل كندة ، ثم التقى مع عمرو في معركة على مقربة من جبل القنان ، انتهت بقتل عمرو وتحرير قبائل ربيعة من سيطرة آل كندة الى حين (١) .

وجاء بعد عمرو ولده الحارث ، وقد اختلف المؤرخون حول تحديد فترة حكمه فذهب البعض الى أنها كانت من عام ٤٩٥ - ٥٢٨ م ، وذهب آخرون أنها كانت من عام ٤٩٥ - ٥٢٤ م ، وعلى أي حال فلقد كان الحارث أقوى ملوك كندة واعظمهم شخصية ، وعلى عهد الحارث وصلت كندة الى اوج ازدهارها ، فقد نجح في استعادة سلطانه على قبائل ربيعة في نجد ، وبنى اسد وبنى كنانة وبنى بكر .

وقد بدأ الحارث بغزو فلسطين عام ٤٩٧ م ، الا ان الحاكم الروماني قد الحق بجيشه هزيمة منكرة ، ولكن حدث بعد ذلك ان بدأت قبائل البلغار والصقالية تتغلغل في تخوم الامبراطورية البيزنطية الشمالية ، ثم سرعان ما تعرد الحرب بين الروم والفرس من جديد عام ٥٠٢ م ، وهكذا رأى الامبراطور الروماني ان يقتل من اعدائه ، فعقد مع الحارث معاهدة تنص على ان يترك آل كندة مهاجمة الشام ، وان يتعاونوا مع الروم على قتال الفرس والمناذرة .

اما فيما يتعلق بالفرس ، فقد انتشرت الاضطرابات على ايام قباز (٤٨٨ - ٥٣١ م) وقد قام هذا الملك بدعوة (المنذر بن ماء السماء) الى المزدلية وهي مبادئ تدعو الى نوع من الاشتراكية في الاموال والنساء ، فابى ، واسرها قباز في نفسه ، وعندما عرض دعوته هذه على الحارث الكندي اسرع باجابهته اليها ، ومن ثم فقد عزل المنذر عن عرش الحيرة ، واقام مكانه الحارث الكندي ، وعندما استشر الحارث الكندي ضعف الملك

(١) عمر فروخ ، المرجع السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ .

الفارسي ، بدأ يخطط لنفوذ اوسع في العراق على حساب الفرس ، وهكذا أمر رجاله بان يشنوا الغارة على السواد ، ويعلم قباز بالامر ، فيكون جوابه على ذلك اعطاء الحارث الكندي بعض المناطق التي تقع في مجاورات الحيرة ، الا ان الحارث كان اكثر طموحا ، فكتب الى «تبع» ملك اليمن ان يجمع الجنود ويأتي اليه ، وابتجاب تبع للحارث واقبل بجنوده وسار بهم حتى نزل بالحيرة ، ثم وجه ابن اخيه «شمر ذي الجناح» الى قباز فحاربه وانتصر عليه ، اما التقاء الحارث بقباز فكان عند قنطرة الفيوم ، وهي موضع لا يبعد كثيرا عن «هيث» وهي بلدة على الفرات(١) .

هذا وقد اختلف المؤرخون في مقر الحكم الذي اختاره الحارث الكندي في العراق ، فبينما يذهب فريق الى انه في الحيرة ، يرى آخرون انه في «الانبار» وتقع على مبعدة اربعين ميلا الى الشمال الغربي من بغداد(٢) .

وأيا ما كان الامر، فان ملك الحارث لم يستمر طويلا في العراق، فعندما اعتلى عرش الفرس (كسرى انوشروان) ٥٣١ - ٥٨٩ م ، قام بطرد الحارث الكندي ، واعاد المنذر الثالث الى عرش الحيرة ، وقام هذا الاخير بتتبع الحارث الكندي واهله ، حتى أسر اثني عشر اميرا من بني حجر بن عمرو، ثم قتلهم وكان من بينهم الحارث . ولا شك ان ذلك المصير التعس الذي لقيه الرجل ، ومن أسر من اهل بيته ، انما كان ضربة في الصميم وجهت الى دولة كندة ، وسرعان ما دب الشقاق فيها ، فانحلت عراها بعد ان قتل ابناء الحارث واحدا بعد الآخر(٣) .

ولم يكتف المنذر اللخمي بذلك بل عمل على تشتيت شمل ابنائه والتفريق بينهم حتى نشبت بين اثنين منهم وهما (سلمة) و (شرحبيل) الحرب التي عرفت بين العرب (بيوم الكلاب الاول) واعلن فيها كل من الاخوين عن جائزة مقدارها مائة من الابل لمن ياتي به برأس اخيه ، وكان يوما عصيبا

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث، ص ٣٣٤ وما بعدها.

(٢) ياقوت الحموت ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٢٥٧ -

٢٥٨ .

(٣) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٦١٥ - ٦١٦ .

اشتدت فيه الحرب حتى آخر النهار ، وانتهى بقتل شرحبيل (١) . وتفرق
الابناء جميعهم .

وقد اثرت كل هذه الاحداث على دولة كندة ، فعملت على اضعاف ملوكها
وتضعف نفوذهم ، فكانت البداية تتمثل في خروج بنى اسد على (حجر
ابن الحارث) فامتنعوا عن دفع الاتاوة التي كان قد فرضها عليهم من قبل ،
ومن ثم فقد خرج عليهم حجر من تهامة ، وما ان وصل الى ديار بنى اسد
في جنوب جبل طيء حتى قتل الكثير من اشراقهم ، واخذ بعضا منهم اسرى
الى تهامة ، مما ترك اثرا سيئا في نفوذ القوم ، فعقدوا العزم على الانتقام ،
ومالبثوا ان نفذوا وعيدهم ، وقتلوا الرجل (٢) .

وتولى مقاليد الامر بعده ابنه (امرؤ القيس) الشاعر المشهور وكان
اصغر ابنائه ، وكان ابيه حجر قد طرده واصر على ان لا يقيم معه ، آنفة
من قوله الشعر ، على غير عادة ابناء الملوك ، فضلا عن التغزل بالنساء
غزلا ، وهكذا اخذ امرؤ القيس يسير في احياء العرب ، ومعه اخلاط من
شذاذ العرب ، يشرب الخمر ، ويتغزل بالنساء ، وظل كذلك حتى اتاه خبر
مقتل ابيه ، فاقسم ألا ياكل لحما ولا يشرب خمرا ، ولا يدهن بدهن ، ولا
يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك ثاره .

ولقد بدأ أولا بضم بكر وتغلب اليه ثم بث العيون على بنى اسد ، فعلم
انهم لجأوا الى بنى كنانة ، ومن ثم فقد بدأ هجومه على بنى كنانة - وهو
يظنهم بنى اسد - الا ان القوم سرعان ما اخبروه ان بنى اسد قد ساروا
بالامس - فأسرع اليهم حتى اذا ما ادركهم انزل بهم هزيمة قاسية ، غير ان
قبيلة تغلب وبكر رفضت الاستمرار في القتال بعد ذلك ، مما اضطره ان
يطوف بقبائل العرب يستنصرها على قتلة ابيه ، واستجاب له بعضهم ،
ورفض آخرون خوفا من بنى اسد ، وخوفا من اغصاب المناخرة والفرس ،
وقرر امرؤ القيس ان يذهب الى القسطنطينية ليستنجد بملك الروم ، الذي

(١) ابن الاثير ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٥٤٩ - ٥٥٢ .
(٢) اليعقوبي ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٢١٧ .

احسن استقباله ، وان لم يقدم له المساعدة المطلوبة ، فالنجدة التى طلبها امرؤ القيس كبيرة جدا ، والجيش الرومى لم يكن مستعدا للقتال فى الصحراء ، ثم ان الغاية التى جاء من اجلها امرؤ القيس - وهى الاخذ بثار رجل واحد - كانت بعيدة عن سياسة الروم ومالوفهم ، فضلا عن ان الامبراطورية الرومانية كانت مهددة بهجمات البرابرة ، ومن ثم فالامبراطورية كانت فى حاجة الى الدفاع عن امبراطوريته نفسها (١) .

ومع ذلك فقد ارسل الامبراطور جستنيان جيشا كثيفا مع امرؤ القيس ، فبلغ ذلك بنى اسد ، فارسلوا رجلا منهم يدعى (الطماح) اتصل بجماعة من رجال القيصر وطلب منهم ان يبلغوا القيصر «ان العرب قوم غدر ، ولانامن ان يظفر امرؤ القيس بما يريد ، ثم يغزوك بمن بعثت معه» . ولكن حدث بعد ذلك ان توفى امرؤ القيس وهو فى ديار الروم على اثر مهاجمة داء قديم له كان مصابا به . وعلى ذلك انقطع آخر امل فى استعادة «بنى اكل المرار» لملكهم فى كندة .

وهكذا انتهت اول محاولة فى داخل بلاد العرب لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية واحدة لها زعيم واحد ، اذ سرعان ما عادت عشائر كندة الى الجنوب ، حيث ساد منهم (قيس بن معد يكرب) ثم ابنه (الاشعث) . ثم تكونت بعد نهاية دولة بنى اكل المرار ، امارة كنسدية فى حضر موت ، فضلا عن امارات اخرى حكمها امراء صغار ، لا تتجاوز سلطة الواحدة منهم مدينة او واديا ، واشهرها تلك التى كانت فى دومة الجندل والبحرين ونجران وغمر ذى كندة .

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٦٢٠ - ٦٢٢ .

الفصل الرابع عشر

الفكر الدينى العربى القديم

الفكر الدينى العربى القديم

سادت فى شبه جزيرة العرب العديد من المعتقدات الدينية سواء فى الجنوب أو الشمال أو وسط شبه الجزيرة ، وسنتناول فيما يلى المعتقدات الدينية التى وجدت فى شبه الجزيرة العربية بشىء من التفصيل بدءا بالمعبودات التى عبدت فى الشمال، ثم المعبودات الجنوبية والتى كانت تتجه نحو عبادة الكواكب ، وبعد ذلك سنشير الى عبادة الاصنام ، ثم انتشار اليهودية والمسيحية فى بلاد العرب ، واخيرا نتحدث عن الحنيفية . ونبدأ دراستنا بالالهة الشمالية :

من هذه المعبودات التى عبدت فى الشمال الاله دوشرا وهو اله النبط الكبير الذى نشر القوم عبادته فى أماكن بعيدة تجاوزت حدود نفوذهم . ودوشرا هو لقب عربى اطلقه الانباط عليه ومعناه «سيد شرا» والمقصود هنا الشراة ، وهى المنطقة الجنوبية التى تقع جنوبى البتراء ، والتى لا تزال تسمى كذلك حتى اليوم، وقد جعله الكتاب اليونان بمنزلة الههم «ديونيسوس» اله الخصب وبخاصة الكروم ، وقد اتجه البعض الى الاعتقاد بأن دوشرا انما كان اله خصب وزرع فى الاصل، وذلك لان منطقة الشراة التى نسب اليها كانت غنية بالزرع والتمر(١) .

أما اللات فكانت كبيرة آلهة الصفويين وأكثرها وروداً فى دعواتهم، بل ربما كانت أهم الآلهة عندهم ، وقد تعبد لها الانباط وعدوها أما للالهة ، وقد ورد ذكر اللات فى العديد من النقوش النبطية ومنها تلك التى من «صلحد» بحوران ، وترجع الى اعوام ٤٠ ، ٥٠ ، ٦٥م وتتحدث عن هذه

(١) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ٣٨ ، ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربى ، العصر الجاهلى ، ترجمة ابراهيم الكيلانى ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٦٣ .

Cook, G., Palmyra, in EB, 17, 1964, pp. 218-219.

الآلهة وعن بناء معبد لها . وقد عرف التدمريون اللات كذلك ، وهناك نقش تدمرى يرجع الى عام ١٢٩م ، يذكر «اللات» بين الاله شمس والاله رجيم ، ويصف النقش هذه الآلهة الثلاثة بانها «الآلهة الطيبة» ، وقد صورت «اللات» فى الآثار التدمرية بسمات الآلهة اليونانية «ايثنى» الالهة الحرب والحكمة ، وهذا دليل على تقدير عظيم لحكمة اللات . واللات من الاصنام القديمة المشهورة عند العرب ، ويبدو انها انتقلت الى الحجاز من الانباط والقبائل العربية الشمالية ، وكانت لها مكانة عظيمة لديهم ، فكانت ثقيف بالطائف تخص اللات بما كانت تخص به قريش العزى ، فكان الواحد منهم اذا ما قدم من سفر توجه الى بيت اللات فتقرب اليه وشكره على السلامة .

وتذهب المصادر العربية الى ان «عمر بن لحي» هو الذى ادخل اللات على العرب ، وطبقا لرواية الاخباريين ، فقد كان اللات رجلا من ثقيف يلت له السوق للحج على صخرة اللات ، فلما مات الرجل اشاع عمر بن لحي انه لم يمت وانما دخل فى الصخرة ثم امر بعبادتها وان يبنوا عليها بنيانا يسمى «اللات» ، وكان تحت صخرة اللات حفرة يقال لها «غبغب» حفظت فيها الهدايا والنذور والاموال التى كانت تقدم للصنم . وكان للات حمى وحرم فى جوار الطائف يقصده حجيج مكة وسواها ويقدمون لها الذبائح .

وتذهب المصادر العربية الى ان قريشا قبل الاسلام ، انما كانت تطوف بالكعبة ، وتقول : «واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، فانهن الغرائيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى» (١) .

ويعد الاله «بيل» من المعبودات التى عبدها الشماليون ، وكان الها لتدمر ، ومن المرجح ان اهل تدمر اخذوا الاسم بيل عن بابل حيث يطلق هذا الاسم على الاله بعل . وان كان هناك من يرى ان بيسل ليس مشتق

(١) رينية دوسو ، العرب فى سورية قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلى ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١١١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، الجزء الثانى ، ص ١٧١ ، ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ١٦ .

وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين ، وطلبوا منهم ان يملكوا عليهم ملكا ، فكان ذلك الملك هو حجر أكل المرار .

وعلى اى حال ، فربما كانت هذه الروايات جميعا ، انما تمثل مرحلتين من تاريخ كندة ، الاولى تمثل الهجرة من اليمن الى نجد ، والثانية تمثل مرحلة استقرار الكنديين في موطنهم الجديدة ، وكيف كونوا لهم امارة في نجد ، ومن ثم فيمكن القول ان هذه المرحلة الثانية انما تمثل التاريخ الحقيقي لكندة . ولعل الهدف من اقامة دولة كندة ، ان التبابعة لجأوا الى ذلك كوسيلة للسيطرة على الطرق التجارية الشمالية التي كانت ترتادها قوافل اليمن التجارية ، حتى يأمنوا اعتداء قبائل البدو الشمالية عليها ، وبخاصة ان الدول الكبرى القائمة على تخوم الصحراء ، انما كانت وقتذاك تحاول ان تؤلف القبائل لتحصى حدودها من غزواتها ، وتمدها بالجند ، وتسير معها في الحروب متحالفة على اعدائها ، فاذا كان ذلك صحيحا، فان تولية حجر أكل المرار تكون سياسة يمنية حكيمة ، فقد كانت عصبة حجر يمنية ، وكان هو من أسرة تولت الملك في بلادها الاولى ، ثم ان هذه الاسرة كانت قد استقرت في الشمال منذ فترة عرفت فيها اتجاه العصبية وفهمت العقلية الشمالية ، وهكذا يكون ملوك حمير قد حققوا من اقامة دولة كندة ، ما حققه الروم من اقامة دولة الغساسنة ، والفرس من اقامة دولة اللخمين، وتصبح كندة لتبابعة اليمن ، ما كان اللخميون للفرس والغساسنة للروم(١) .

ويرى بعض المؤرخين ان حجر بن عمرو (٤٨٠ - ٥٢٨م) يعد اول ملوك كندة ، ربما كان ذلك بناء على ما رآوه تقليدا شرعيا بالولاية من قبل ملك العرب الاكبر ، حسان بن تبع الحميري ، هذا الى جانب ان حجرا يمكن ان يعتبر اول شخصية تاريخية في قائمة ملوك كندة يمكن الاطمئنان اليها . هذا وقد تمكن حجر بن عمرو ان ينتزع جانبا من الارض التي كانت تحت سيطرة المناذرة ، ثم نزل في مكان يدعى «بطن عاقل» - جنوب وادي

(١) سبطينو موسكاتى ، المرجع السابق ص ٣٥٦ ، عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٨٣ .

الريمة على الطريق بين مكة والبصرة . وهكذا تسرب النفوذ الاجنبى الى مكان جديد فى شبه الجزيرة العربية ، وهو نفوذ رومى مذهبى لنفوذ الفرس فى الحيرة ومغلف بسياسة يمنية ظاهرة . ون كان هناك من يخالف هذا الاتجاه اعتمادا على ان الروايات العربية ذهبت الى ان الذى اقام حجرا ملكا على كندة ، انما هم الحميريون وليس الروم او الاحباش ، كما ان اليمن لم تكن وقتذاك تسير فى فلك النفوذ الرومى او الحبشى ، فضلا عن ان ملوك كندة انما عملوا بعد ذلك عند الفرس ، وليس عند الروم او الاحباش ، وان تحالفوا مع الروم حينما من الدهر . وكان للحجر اكل المرار وقائع مع الغسانيين ، فيقال ان الحارث الغسانى اغار عليه واستولى على أهواله ، ولكنه نجح فى استنفاذها منه . وتوفى حجر اكل المرار فى (بطن عاقل) فى وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين ، وان اتجه البعض الى تحديده بالعقد الاخير من القرن الخامس الميلادى(١) .

وخلف (حجر اكل المرار) ولده المعروف بالمقصور (عمرو بن حجر) ، ربما لانه اقتصر على ملك ابيه ، وربما لان (ربيعة) قد اضطرته الى ذلك ، وانه لم يحمل لقب (ملك) وانما اكتفى بلقب (سيد كندة) ، وان اليمامة انما كانت من نصيب اخيه معاوية المعروف بالجون ، ويبدو ان «عمرا بن حجر» كان على علاقة طيبة بملوك اليمن ، ومن ثم فقد تزوج بنتا لحسان ابن تبع اسعد الاكبر ، كما كانت كذلك باللخمين ، ولهذا فقد تزوج «الاسود ابن المنذر» ملك الحيرة من (أم الملك) ابنة عمرو المقصور ، فولدت له (النعمان بن الاسود)(٢) .

هذا وقد اختلفت الآراء حول علاقة (عمرو المقصور) بالغساسنة ، فذهب البعض الى انها كانت علاقة عدائية ، وان عمرا كان فى احايين كثيرة يشن الغارة عليهم ، بينما ذهب فريق آخر الى ان العلاقات كانت طيبة ، وان عمرا قد تزوج من (هند الهنود) بنت (ظالم بن وهب) ، وكانت اختها

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٣٢٥ .

(٢) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٦٠٧ - ٦٠٨ .

وقد عبدت الشمس في قتبان وحضرموت وسبا وقد اطلق عليها عند السبئيين تسمية «ذات حم» و «نكرح» عند المعينيين ، وفي النقوش القتبانية تسمى «ذات صهرن» و «ذات رحبن» . ورغم ان التوراة قد أشارت الى عقوبة عبادة الشمس وهى الموت ، الا ان عبادتها قد انتشرت في مدن يهوذا .

والجدير بالذكر ان عبادة الشمس قد انتشرت بصفة اساسية في القسم الشمالى من شبه الجزيرة العربية حيث تقع مملكتى تدمر والانباط ، وربما يرجع ذلك الى قريهما من حضارتين زراعتين مستقرتين واتصالهم بها وما استتبع ذلك من تاثيرات عن طريق المواصلات التجارية ، وهما حضارة مصر في الغرب حيث كان «رع» اله الشمس هو الاله الاول ، وحضارة وادى الرافدين في الشرق حيث تطور المجتمع الى مجتمع زراعى كثيف في المراحل اللاحقة للفترة السومرية حيث اصبحت «شمش» اله الشمس احد الالهة الرئيسية في مجتمع الالهة في وادى الرافدين (١) .

أما الزهرة فهى الاله عثتر ، ويقابل «عشتار» عند البابليين والاشوريين وعشتارت لدى الكنعانيين والفينيقيين والاحباش و «عتر» عند السريان مما يدل على انه كان من الالهة التى كانت عبادتها شائعة في منطقة واسعة ، كما كان كذلك من الالهة الكبرى قبل الميلاد . وقد حاول بعض الباحثين اثبات ان الزهرة هى «العزى» غير انهم لم يقدموا أدلة تثبت وجهة نظرهم هذه (٢) .

وعلى اى حال فان عبادة الكواكب في بلاد العرب، لم تكن مقصورة على هذا الثلاث المشهور ، وانما عبد القوم كذلك - وبخاصة قبائل لخم وحزاعة وحمير وقريش - «الشعر العبور» وقد سميت كذلك لانها تعبر السماء عرضا . وهناك كذلك ما يشير الى ان بعض العرب قد عبدوا الثريا والنجم بدليل وجود اسماء مثل عبد الثريا ، وعبد نجم ، كما عبد البعض الاخر المريخ وسهيلا وعطارد وزحل . والى جانب هذه الالهة ، هناك طائفة اخرى

(١) انظر : محمد بيومى مهران ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٢ - ٢٤ .

(٢) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٣٠٢ .

كبيرة من الآلهة الخاصة تحمى بعض الأماكن أو القبائل بل والاسر كذلك ويشار إليها غالبا بالاسم «بعل» ومعناه صاحب أو سيد .

وفيما يتعلق بعبادة الاصنام فى شبه الجزيرة العربية فيعتبر كتاب الاصنام لمؤلفه أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب من أهم المصادر التى وصلت إلينا (١) ، وتتناول هذا الموضوع ، والاوثان هى الاصنام ، والحجارة هى الانصاب (جمع نصب) عندما تنصب بعضها فوق بعض ، وكانت طقوس عبادة كل منهما تختلف عن الأخرى . والذى يفهم من كتاب الاصنام ان عبادة الانصاب حجازية الاصل ، وأهم طقوسها هو الدوران أو الطواف حول النصب ، بينما كانت لعبادة الاصنام أو الاوثان طقوسها الخاصة من الدعاء لها وتقديم القرابين . وبالنسبة لعبادة الانصاب يقول ابن الكلبي «انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصباغة بمكة» . فحينما حلوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا به وصباغة بالحرم وحبا له ، فكان عبادة الانصاب نابعة من الطواف حول الكعبة .

أما الاصنام فيقول صاحب كتاب الاصنام : «واشتهرت العرب بعبادة الاصنام فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت ، نصب حجرا امام الحرم وإمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت» (٢) .

وتذكر الروايات العربية ان عبادة الاوثان كان أول من نشرها بين العرب هو عمرو بن زبيعة المشهور بلحى بن حارثة الخزاعى وانه جلبها من الشام . ويقدم العلماء القدامى منهم والمحدثون عدة آراء عن كيفية بداية عبادة الاصنام فى بلاد العرب ، وتكاد تتفق الآراء على ان العرب لم تبدأ - بادىء ذى بدء - بعبادة الاصنام - وانما اتخذتها أولا رمزا للاله أو

(١) انظر : أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي ، كتاب الاصنام القاهرة ، ١٩٦٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٣٣ .

الالهة - أو حتى الاشخاص الصالحين منهم - ويعرور الزمن نسي القوم أمر هذه الرموز ، فعبدوها من دون الله لاسباب مختلفة ، فهناك من عبد - كاساف ونائلة - بسبب المسخ ، حين ظن القوم انهما رجل وامرأة من جرهم ، وقد وقع بهم مكروه فسخا ، وهناك من عبد «اللات» بسبب التقمص ، حيث يروى أن اللات كان رجلا قد مات الا ان عمر بن لحي اخبر القوم انه لم يمت ، وانما دخل الصخرة ومن ثم فقد عبد .

وفي الحقيقة ان كلمة الاصنام ليست عربية اصيلة وانما هي معربة من كلمة «شنم» ويرجح ان تكون قد عربت اما من الكلمة الآرامية (صلمو) ، أو العبرية (صلم) ، والكلمة التي وردت في النصوص العربية الجنوبية للاصنام هي (صلمو) بمعنى صنم وتمثال ، وفي الكتابات العربية الشمالية، جاءت تحت اسم (صلم) كاسم لاله علم ازدهرت عبادته في تيماء عام ٦٠٠ ق.م . واهم الاصنام التي عبدها العرب (العزى) وهي من اعظم اصنام قريش وبنى كنانة ، ويرى ابن الكلبي انه احدث في عبادته من اللات ومناة ، وذلك بقاء على انه وجد ان من تسموا بهما من العرب مثل : عبد اللات وزيد مثاة ، اقدم ممن تسموا بعبد العزى ، وأول من عبد العزى هو ظالم ابن سعد الذي بنى لها بيتا في موضع حراض من وادى نخلة الشامية على يمين الطريق الصاعد من مكة الى العراق (١) .

وقد أصبحت العزى عند العرب الهة الخضر ، حينما قامت على ثلاث سمرات - ومعنى السمرة ضرب من شجر الطلع - في وادى نخلة ، وصعدت الى السماء في صورة امرأة حسناء ، وعرفت بالزهرة ، وقد كان للعزى عند عرب الجاهلية علاقة بالزواج .

وكان للعزى مكانة عند عرب الجاهلية ، فكانت تعظمها أشد الاعظام ، حتى أنها كانت قد جمعت لها شعبا في وادى حراض يقال «سقام» يضاهون به الكعبة ، كما اقامت لها منحرا تنحرف فيه الذبائح ويقصد اليه الحاج بعد

(١) محمد بيومي مهران ، الحضارة العربية القديمة ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ٣٧٠ .

«منى» ، ويبدو أن عبادة العزى كانت واسعة الانتشار في بلاد العرب ، وهناك ما يشير إلى أن عبادتها قد تسربت كذلك إلى عرب العراق والشام ، وإلى الأنباط والصقويين ، وكان سدنة العزى من بنى شيبان بن جابر بن مرة من بنى سليم(١) .

أما «مناة» فهي الثالثة الأخرى التي ورد ذكرها - بجانب اللات والعزى في القرآن الكريم «افرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الكبرى» . ومناة لفظة مشتقة من المنا والمنية هو الموت أو القدر ، ومن المنية المذون ، بمعنى «القدر المقدور» معبود النبطيين ، وربما سميت كذلك أيضا لان دماء النساء كانت تمنى عندها ، أي «تراق» .

ويروي الاخباريون ان العرب جميعا انما كانت تعظم مناة وتذبح حول صنمها ، وكسنت الاوس والخزرج ومن ينزل بالمدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون حوله ويهدون اليه ، وان كان الاوس والخزرج اشد الناس اعظاما له ، لعل ورود اسم هذا الصنم في القرآن الكريم ، فضلا عن دخوله في تركيب كثير من اسماء الاعلام مثل عبد مناة ، وزيد مناة انما هو دليل على انتشار عبادة «مناة» بين كثير من قبائل العرب . هذا وقد ظلت «مناة» معظمة عند العرب حتى سنة ٨هـ / ٦٣٠م حينما هدمها على ابن ابي طالب بأمر الرسول(٢) .

أما (ود) فقد جاء ذكره في القرآن الكريم بين خمسة اصنام عبدها قوم نوح ، عليه السلام ، حيث يقول سبحانه وتعالى : «وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا» . وقد عرف (ود) لدى المعينيون من اهل اليمن قديما رمزا للاله القمر ، وذلك في منطقة دومة الجندل ، في وادي القرى ، وحسب وصف ابن الكلبي كان ود تمثالا على هيئة رجل ضخم . والظاهر ان سدنته من قضاة قد كسوه من الثياب حلتين

(١) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ١٧ - ١٨ ، سبتينو موسكاتي ، المرجع السابق ، ص ٣٧١ .

(٢) ابن الكلبي ، المرجع السابق ، ص ١٣ - ١٥ .

واحدة فوق الاخرى ، وقلدوه سيفاً وجعلوا قوساً على منكبيه وحرية بين يديه تحمل لواء وجعبة فيها النبل ، مما جعله وكأنه يمثل اله الحرب (١) .

أما (هبل) فكان من اعظم اصنام قريش ، ومن ثم فقد كان اعظم الاصنام في الكعبة ، التي اتخذت منها العرب مقراً لاصنامها واثانها ، وقد وضع القوم الى جانب صنم هبل الازلام وهى القداح أو السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها ، ويذهب بعض المستشرقين الى ان «هبل» انما هو رمز القمر ، بينما ذهب البعض الاخر الى ان صورة الحية أو تمثالها انما يشير الى هبل . وكذهب ياقوت الحموي الى أن هبل انما كانت صنماً لبنى كنانة ، وكانت قريش تعبدّه ايضاً (٢) .

أما (اللات) التي يمكن ان تكون اشهر آلهة العرب وقتئذ ، فكانت احدث من مناة ، وهى الهة الطوائف التي تمثل الشمس ، كما يرى المحدثون . ورغم انه من المعروف انها كانت آلهة مؤنثة ، وانها ربما كانت الالهة لاتون عند اليونان الذين اخذوها عن عرب اليمن ، فان بعض الروايات العربية القديمة تجعلها في شكل صخرة مربعة ، والظاهر أنهم قالوا ذلك عندما حاولوا تفسير اسم اللات فقالوا انه من لت السويق أو العجين الذي كان يقوم به بعض اليهود عندها أو عليها .

وقد ذكر ابن الكلبي انه على ايامه كان موضع اللات في المكان الذي بنيت فيه المنارة اليسرى بمسجد الطائف ، وكان سدنتها من بنى عقاب بن مالك الثقفيين ، قد بنوا لها بناء من بيت أو كعبة ، وقد ظلت اللات معظمة من ثقيف وقريش وسائر قبائل العرب الى سنة ٨٠٠ هـ عندما هدمها المغيرة بن شعبة بأمر الرسول بعد ان دخلت ثقيف في الاسلام واهل الطائف .

أما (يعوق) فكان صنم لكنانة ومن قبل كان لقوم نوح ، وكان (يعوق)

-
- (١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، الجزء الثاني ، ص ١٩١ - ١٩٢ .
(٢) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الاول ، ص ٢٥٤ .

على هيئة الحصان وقد عبدته قبائل همدان في قرية خيوان وهي على مسيرة ليلتين من صنعاء بالنسبة للقادمين اليها من مكة (١) .

أما الصنم (نسر) فكان من معبودات قبائل حمير في موضع يقال له بلخغ من أرض سبا من اليمن وذلك قبل دخول حمير في اليهودية . وتذهب المصادر العربية الى ان كلمة نسر اسم كوكبين يفرقون بينهما فيقولون : النسر الواقع والنسر الطائر ، والراجح ان يعوقا ونسرا كانا كوكبين ، قبل ان يكونا صنمين ، وكان يصور على صورة نسر من الطير ، وقد وجدت له اصنام منحدية على الصخر ، وبخاصة في أعالي الحجاز (٢) .

أما (يغوث) فكان يعبد في قبيلة مدحج وهي قبيلة يعنبة الاصل، ويتجه بعض الباحثين الى ان يغوث يمثل الاسد ، وانه كان (طوطم) مدحج تحمله معها ابان وقوع المعارك بينها وبين اعدائها وانه كان يتولى مهمة الدفاع ، وقد ادخل القوم اسم صنمهم هذا في تركيب بعض الاسماء ، ومن ثم فقد وجدنا اسم (يغوث) يتردد بين كثير من القبائل العربية (٣) .

أما (ذو الخلصة) فقد عبد في تبالة جنوبى مكة في طريق اليمن ، على مسيرة سبع ليال ، وكان يصور عادة على هيئة «مروة» (صخرة) بيضاء منقوشة ، وكان سدنته من بنى امامة من قبيلة باهلة ، وقد ارسل الرسول عليه الصلاة والسلام جرير بن عبد الله لهدمه بعد فتح مكة ، فنشبت بينه وبين قبيلتي خثعم وباهلة القتال ، اذ ان هذه القبائل دافعت عن الصنم بشدة (٤) .

وتعد الكعبة اعظم بيوت الاصنام في بلاد العرب ، وقد شبهها بعض الباحثون المحدثون بالبانتيون اشهر معابد الالهة في روما القديمة . وكانت الاصنام توضع في جوفها وحولها . وتتمثل طقوس عبادة هذه الاصنام في

- (١) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ٥٧ .
- (٢) ابن هشام ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٨٨ .
- (٣) ابن الكلبي ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .
- (٤) اليعقوبى ، المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

زيارتها أو الحج اليها وتقديم الهدايا لها ، كما كانت تقرب عندها القرابين من الذبائح وخاصة عند استخارتها في الامور الشخصية او الامور العامة . وكانت بيوت الاصنام هذه لها حرمتها عند العرب ، فكانت ملاذا لمن يلجأ اليها حتى بالنسبة للمطلوبين من قبل العدالة .

أما عن انتشار اليهودية في بلاد العرب (١) ، فلقد عرفت هذه الديانة منذ أقدم عصورها ، نظرا لان بلاد الشام كانت مهدا لليهودية ولذا لم يكن من الغريب ان تصل الى بلاد العرب وخاصة الاقاليم المتحضرة منها والتي كانت لها علاقات اقتصادية وسياسية بالعالم الخارجى . وفيما يتصل بانتشار اليهودية في اليمن - فقد كان - طبقا لرواية الاخباريين منذ ايام تبان اسعد أبو كرب ملك اليمن الذى كان قد خرج لحرب الاوس والخزرج بالمدينة يثرب ، وانه اراد خراب المدينة فمنعه حبران من اليهود من ذلك ، واقنعاه بما للمدينة من حرمة «وانها مدينة النبى» مما يمكن ان يعنى انهما نجحا في ادخاله في ديانتهما . وتذكر الرواية ايضا انه عندما عاد الملك الى بلاده اصطحب الحبرين معه ، وأعلن ترك عبادة النار التى كانت تعبدها حمير ، وان اليهودية هى ديانة البلاد . وأدى ذلك الى غضب القوم عليه لخروجه على دينهم وتم الاحتكام الى النار فلم تؤثر في الحبرين شيئا ، وبذلك تأكدت اليهودية كديانة رسمية . ويرى بعض المؤرخين ان هذه الرواية أقرب الى القصص الشعبى ومن الصعب التصديق بصحتها .

وهناك نص عرف بنص (جلزور ٥٥٤) من القرن الخامس الميلادى جاءت فيه جملة «رب السماء والأرض» وقد استدل البعض من هذه الجملة إنها تشير الى التوحيد الخالص . وتشير رواية أخرى الى ان اليهودية قد انتشرت في اليمن منذ ايام ذى نواس التى كانت أمه يهودية وقد ساعد على انتشار اليهودية وقتذاك ان ملوك حمير لم يخشوا على انفسهم من اعتناق اليهودية ان تتسلط عليهم دولة ذات سلطان كبير ونفوذ واسع . ان لم يكن لليهودية في ذلك العصر دولة سياسية .

(١) انظر في ذلك : محمد بيومى مهران ، دراسة حول الديانة العربية القديمة ، ص ٤٩ - ٥٨ .

ويرى الاستاذ العقاد - ان اليهود وصلوا الى اليمن مهاجرين متفرقين ، وربما بدأت هذه الهجرة منذ ايام السبي البابلى ، فى القرن السادس ق.م لقرب بابل عن طريق البحرين الى اليمن - بينما يرى فريق من المؤرخين ان اليهودية قد انتشرت فى اليمن منذ اخريات القرن الاول ، واثناء القرن الثانى الميلادى ، اعتمادا على ان الفرقة اليهودية التى صاحبت «اليوس جاليلوس» فى حملته على اليمن عام ٢٤ ق.م ربما فضلت البقاء فى اليمن ، ولم تعد الى فلسطين .

وهناك فريق آخر من المؤرخين يرى ضرورة الرجوع للقرآن الكريم لمعرفة تاريخ بداية انتشار اليهودية فى اليمن ، والذي يتضح انه انما كان فى القرن العاشر ق.م ، ذلك لان القرآن الكريم يحدثنا ان قصة ملكة سبا مع سليمان عليه السلام ، قد انتهت بقولها «رب انى ظلمت نفسى واسلمت مع سليمان لله رب العالمين» .

اما عن دخول اليهودية الى الحجاز ويثرب ، فترجعها بعض الروايات الى ايام موسى او داود وغزوهم للعماليق ، ويرى البعض ان اليهود اقاموا فى الحجاز منذ ايام «نبونيد» او «بخت نصر» ، بمعنى ان اهل الحجاز عرفوا اليهودية عن طريق العراق ، وكان اليهود قد انتشروا من العراق فى بلاد العرب الشرقية وتاجروا مع اهلها . ومن اهم المستعمرات اليهودية التى فى الحجاز تلك التى فى تيماء وفدك وخيبر ووادى القرى ويثرب ، وفى الاخرة تجعل الروايات وجودهم بها اقدم من سكنى الاوس والخزرج ، ومن المرجح ان تكون يثرب هى المركز اليهودى الذى انتشروا منه فى شمال الحجاز . وكان يهود بنو النضير يقيمون فى وادى بطحان من اودية يثرب التى تكثر فيها المياه ، وكانت لهم فيه حصونهم المعروفة بالاطام ، اما بنى قريظة فكان لهم حصون وآبار .

وتعد خيبر من اهم مراكز اليهود بعد يثرب ، ويذكر الهمذانى انه على ايامه كان بخيبر «قوم من يهود وموال وخليط من العرب» ، وقيل ان اسم خيبر عبرانى ويعنى الحصن ، والظاهر ان ذلك كان بسبب ما بها

من الحصون • وتعد تيماء ايضا من مراكز اليهود في شمال الحجاز قد
عرفت بتيماء اليهود •

أما في مكة ، فإن عدد اليهود بها كان قليلا ويستدل على ذلك مراسم
وجود معبد لليهود في مكة ، الى جانب عدم وجود حي خاص بهم كما
ان كفار مكة كانوا يذهبون الى يثرب ليسالوا احبار يهود عن النبي - ، -
اذ لو كان هناك يهود في مكة مازهد القرشيون الى احبار المدينة •

أما النصرانية^(١) ، والتي اطلقت في العربية على اتباع السيد المسيح ،
عليه السلام ، فإن دخولها الى بلاد العرب أمر يصعب تحديده ، انه
يمكن القول بصفة عامة ، ان وجود النصرانية بين العرب في بعض مناطق
اقامتهم المختلفة ، ربما كانت قديمة قدم النصرانية نفسها . وهناك آيات من
القرآن الكريم تشير الى وجود اتباع للمسيح في مكة على أيام المصطفى
صلوات الله وسلامه عليه - فسورة مريم التي تتحدث عن ولادة المسيح وانكار
الرهيته ، وسورة الروم ، والتي تتحدث عن انكسار الروم المسيحيين أمام
قوات الفرس ، تدل على ان الكتابين بمكة انما كانوا من النصارى • وقد
ذهب البعض الى ان صورة السيد المسيح وامه مريم ، قد وجدت في الكعبة
المشرقة عند فتح مكة في العام الثامن للهجرة ، وان هذا يغد أثرا من آثار
النصرانية في مكة قبل الاسلام ، واذا صحت هذه الرواية فانها تدل الى
جانب وجود النصرانية وانتشارها في مكة على ان هناك بعضا من العمال
النصارى شاركوا في بناء الكعبة •

ومن بين من عرفوا بمكة بأنهم نصارى نسطاس مولى صفوان بن أمية
القرشي وحنأ أو يوحنا عبد صهيب بن سنان الرومى •

أما في المدينة المنورة ، فقد كان هناك موضع يقال له «سوق النبط»
يسكن فيه نصارى ، وكان في بادئ الامر مكانا يقصده تجار الشام من
الانباط الذين كانوا يحملون الحبوب والزيت والنبيد ، ولما كان هؤلاء من
النصارى فمن المقبول أن يعرفوا بعض الناس بديانتهم • وهناك من يذهب

(١) انظر : محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٩ - ٧٠ •

الى ان ابا عامر الراهب الانصارى - فضلا عن جماعة من الاوس - كانوا قد فروا من المدينة ولجأوا الى مكة ، ثم جاؤا مع المشركين لقتال المسلمين في غزوة أحد . هذا وقد انتشرت النصرانية بين عرب الشام اكثر من انتشارها بين عرب العراق ، وربما كان السبب ان الروم ، اصحاب السلطان على الشام ، كانوا نصارى ، كما انهم كانوا يتخذون من النصرانية وسيلة من وسائل بسط نفوذهم على الغساسنة وغير الغساسنة ، ومن ثم فقد كانوا يشجعون حركة التبشير بين الاقاليم غير النصرانية . أما النصرانية في العراق فانما قامت في بلاد يسيطر عليها قوم وثنيون ، ولم تكن النصرانية واحدة من وسائل تقوية نفوذهم في العراق . ومع ذلك فالنصرانية كانت منتشرة بين جزء كبير من اهل الحيرة ، وخاصة بين الجماعة التي عرفت بالعباد ، كما كان هناك عدد من الكنائس والاديرة التي اشتهرت بين العرب ، وكان اول من تنصر من ملوك الحيرة النعمان ابو قابوس في اواخر القرن السادس ميلاديا ، وقيل ان يتنصر مولك الحيرة كان بعض افراد عائلتهم قد دخلوا في المسيحية ، ومن امثلة هؤلاء هند زوجة المنذر الثالث التي بنت ديرا وكنيسة بقى منها النقش التاميسي الذي يقول ، على وجه التقريب :

«هذه الكنيسة شيدتها هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة وابنة الملوك ، خادمة المسيح ، وأم خادمه ، وابنة خدامه ، على عهد ملك الملوك كسرى انوشروان ، وكان (افرم) أسقفا للمدينة» .

أما في بلاد الشام فان الغسانيون كانوا قد تنصروا ، كما انهم تمسكوا بمذهبهم اليعقوبي (الارثوذكسي) عن قناعة وليس لاغراض سياسية .

وأما عن بداية النصرانية في اليمن ، فهناك رواية تذهب الى ان دخول النصرانية الى اليمن إنما تم على يد التبّع (عبد كلال بن مثوب) وقد اخذها عن رجل من غسان . وهناك رواية اخرى تذهب الى ان راهبا دعوه (فيميون) قد خرج ومعه تابع يقال له صالح من بلاد الشام في طريقه الى شبه الجزيرة العربية ، الا ان الاقدار وضعت في طريقهما سيارة من العرب ، خطفوهما وباعوهما في نجران ، وهناك استطاع هذا الراهب ان يبصر القوم بعبادة ربهم الواحد الاحد ، فأمن القوم بدين «فيميسون» ومن هنا

كانت النصرانية في نجران . أما المصادر النصرانية اليونانية فتذهب الى ان الامبراطور البيزنطي «قسطنطين الثاني» (٣٥٠ - ٣٦١م) قد ارسل عام ٣٥٦م «ثيوغيلي» الى اليمن لنشر المسيحية وقد نجح الرجل في مهمته وانشأ كنيسة في ظفار واخرى في عدن وثالثة في هرمز . أما المصادر العربية فترجع نشر المسيحية في اليمن الى تاجر يمني دعتة او جيان وكان قد تلقى مبادئ المسيحية في الحيرة وعند عودته الى نجران بشر بها بين قومه .

وهناك رأى آخر يذهب الى ان انتشار المسيحية في اليمن لم يكن عن طريق واحد ، وانما اتخذ سبلا مختلفة وطرقا عدة ، وجاءت الى اليمن من الشمال عن طريق الشام فالحجاز مرة ، وعن طريق الغرب من الحبشة مرة اخرى ، وربما من العربية الشرقية مرة ثالثة . وقد تبع دخول المسيحية في اليمن انشاء الكنائس ومن أهمها الكنيسة المشهورة «القليس» في صنعاء ، وكان الهدف من اقامتها صرف الحجيج من مكة الى صنعاء وما يتبع ذلك من فوائد مادية وأدبية وسياسية ، وكانت نجران ايضا من أهم المراكز المسيحية في بلاد العرب الجنوبية ، وقد شيدت بها كنيسة عرفت بـ (كعبة نجران) .

هذا وقد أدى ذلك الوضع الدينى المضطرب في بلاد العرب ، والذي كان قوامه خليط من عناصر يهودية ومسيحية ووثنية الى ان يبحث قوم عن ربهم بعيدا عن هذه الديانات جميعها ، وهكذا ظهر في بلاد العرب ما عرف بالحنفاء - ومفردها حنيف - وهم الذين يميلون الى الحق أو الى الدين المستقيم ، أو الذين يستقبلون البيت الحرام ، أو الذين أسلموا في امر الله فلم يلتوا في شيء وتتفق غالبية الاراء في ان الحنفاء كانوا على ملة ابراهيم ، ولم يكونوا يهود أو نصارى ، ومن ثم فهي ليست دينا جديدا ، وانما مجرد حركة دينية وصف اصحابها بالحنفاء اتباع ابراهيم الخليل عليه السلام ، نادوا بنبذ الاصنام والتخلص من عادات الجاهلية السيئة ، ثم الدعوة الى الايمان بالله واحد لا شريك له .

ويرجع الفضل للقرآن الكريم في حفظ اخبار هؤلاء الحنفاء ، فلقد جاء

ذكرهم فيه في موضعين ، الواحد في سورة الحج ، والاخر في سورة البينة،
كما ورد في القرآن الكريم لفظ «حنيفا» في عشر مواضع .

وايا ما كان الامر ، فان التيارات التوحيدية ظهرت في بلاد العرب في
القرن السادس الميلادي بوضوح ، وعلى الرغم ان اليهودية والنصرانية قد
أوجدتا الشك في صحة الديانة الوثنية ، فانهما لم تفلحا في ادخال تغيير
جوهري في النظم الدينية ، وبقيت بلاد العرب تموج بهذا التعدد في
الديانات الى ان ظهر سيدنا ومولانا محمد رسول الله - ﷺ - ففضى على كل
اثر للوثنية ، وقدر له نجاحا بعيد المدى في القضاء عليها .

الفصل الخامس عشر

المرأة في المجتمع العربي القديم

المرأة في المجتمع العربي القديم

كانت القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية للنظام الاجتماعي في بلاد العرب ، وان كانت الابحاث الجديدة تتجه الى ان الاسرة هي الوحدة الاساسية ، والسلطة العليا فيها للاب .

وفوق الاسرة كانت القبيلة ، وكانت المصالح المشتركة والحاجة الى الامان يخلقان اهم الملامح المميزة للمجتمع البدوي وهو وجود التماسك بين بين افراد القبيلة الواحدة .

ويبدأ تكوين الاسرة بالزواج ، والحرص على اختيار الزوجة من ذوات الحسب والنسب ، وان تمتاز بصفات حسنة عديدة ومنها المجد ومكارم الاخلاق .

وكان العربي يفضل المرأة الولود ، ومن هنا كان ايثارهم للشبابه البكر ، وقد أجابت «هند بنت الجسن الاباوية» رجلا سالها عن افضل النساء فقالت «خير النساء التي في بطنها غلام ، وتحمل على وركها غلام ، ويمشي وراءها غلام» (١) .

هذا وقد كان العربي وكذا اليهودي انما يفضل أن تكون زوجته من نفس قبيلته ، وكان الدافع من وراء ذلك الرغبة في نقاء الجنس وتمسكا بالتقاليد . وأن كان هذا لا يمنع ان يتزوج بعضهم من الاغراب ، اعتقادا بان ولد الرجل من قرابته انما كان يجرى ضاويا نحيفا (٢) الى جانب ان المصاهرة بين القبيلتين تصلهما برباط من المودة والتحالف .

(١) الامالي ٢/٢٥٧ ، ذيل الاماني ٣/١٠٨ ، مجلة العرب ، يونيه ١٩٦٧ ، ص ٨٠١ .

(٢) مجمع الامثال ٢/٢٧٠ ، لسان العرب ١٩/٢٢٥ ، المعاني الكبير لابن قتيبة ١/٥٠٢ .

والمرأة كانت في اغلب الاحوال تفضل الزواج من عشيرتها ، ايثار
لقربها من أهلها ورغبة في ان تقيم بوطنها .

وكانت الفتاة العربية وكذا قومها انما يرون ان الزواج يجب ان يكون
عربيا ، ذلك لان العرب قوم ذو حمية وأنفة واعتداد بالنفس والجنس
ويرون انفسهم ارقى الامم واصفاها .

وكانت المرأة البدوية في الجاهلية تتمتع بحظ وافر من الحرية ، وكان
للمرأة العربية ايضا مركزا عظيما قبل الاسلام ، ومن ثم فقد استمتعت بحق
الحرية في اختيار زوجها ، فلم تكن تتزوج بغير مشورة ، بل انها كانت في
بعض الاحايين تزوج نفسها بنفسها ، كما كانت تستطيع هجر زوجها والعودة
الى أهلها ، اذ لم يحسن الزوج معاملتها(١) .

وهكذا رأينا «ماوية بنت عفزر» تتزوج ممن ارادت ، اذ وازنت بين
خاطبائها الثلاثة ، ثم اختارت واحدا منهم رات فيه الزوج المناسب لها .

وكانت ام الفتاة ذات رأى في تزويج ابنتها ، يستشيرها الاب ، وتشير
عليه ، وتهتدي البنت برأيها ، وان كان هذا لا يمنعنا من القول بان ولى
امر الفتاة ، انما كان صاحب حق لاينازع في اجبارها على الزواج بمن
يريده أو يوافق عليه ، وليس لها مخالفته ، هذا فضلا على ان ابن العم
انما كان مقدما على غيره في زواج ابنة عمه(٢) .

وكان على الرجل ان يعين صداق ويسمى مقداره ويقدمه للمرأة التي
ستصبح زوجة له ثم يعقد عليها ، كما كان يقدم لها مهرا ، وان كان ولى
امرها هو الذى يأخذه لينفق منه على ما يشتري لتأخذه المرأة معها الى
بيت الزوجية ، وقد يأخذ ولى أمرها المهر لنفسه ، لاعتقاده ان ذلك حق
يعود اليه(٣) .

(١) محمد بيومى مهران ، الحضارة العربية القديمة ، الاسكندرية ،
١٩٨٨ ، ص ٣٠ .

(٢) جواد على ، المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٥٢٧/٥ ، ٥٣٠ .

(٣) جواد على ٥٣١/٥ .

ولم يكن للمهر عند العرب حد معلوم وإنما كان يتوقف على قدرة الرجل المالية وعلى مكانة أسرة العروس ، وقد بلغ أحيانا مائة من الأبل ، أو خمسين ومائة ، وربما زاد عن ذلك أو قل .

وكان عند العرب قبل الإسلام أنواع عديدة للزواج نذكر منها الزواج المالك خاليا بما يتضمن من خطبة ومهر وإيجاب وقبول ، ونكاح الفيزن (نكاح المفت) ونكاح المتعة وزواج البدل وزواج الشفار وزواج الاستيضاع وزواج الظعينة وزواج الاماء .

وفيما يتعلق بالمجتمعات ، فقد حرم العرب القدامى على أنفسهم أنواعا من الأقارب ، طبقا لقاعدة عامة ، هي مراعاة علاقة الأصل بالفرع ، فلا يجوز نكاح الأب لابنته ولا الجد لحفيده ، ولا يجوز للام أن تتزوج ولدها ، ولا للجددة أن تتزوج حفيدها ، ولا للآخ أن يتزوج أخته ، مراعاة لعلاقة الأصل بالفرع ، وهكذا حرم القوم نكاح الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات (١) . هذا وقد حرم القوم زواج الرجل من ابنة أخيه أو أخته . والجدير بالذكر أن التحريم عند العرب لم يكن مقصورا على الأبناء الحقيقيين ، وإنما شمل كذلك خالات التبني ، كما أنهم ورغم أباحتهم الجمع بين الأختين ، فإنهم إنما كانوا ييغضون هذا النوع من الزواج ، كما بغضوا زواج امرأة الأب (٢) .

وعرف العرب قبل الإسلام مثلهم مثل بقية الشعوب تعدد الزوجات ، فقد كان الواحد منهم لا يكتفى بالزوجة الواحدة ، وإنما يتزوج بأكثر عدد ممكن من النساء ، بقصد انجاب عدد كبير من المقاتلين لجماعته التي ينتسب إليها ، أو بقصد إعالة هؤلاء النسوة أو الرغبة في الارتباط بالمصاهرة مع القبائل الأخرى (٣) . ورغم ذلك فقد كان للاعتبارات الاقتصادية أثرها في الحد من مبدأ التعدد ، إذ أنه ليس من اليسير إعالة أسرة كبيرة في الصحراء .

-
- (١) أبو الفداء ١/٩٩ ، الملل والنحل ٣/٣٣١ ، جواد على ٥/٥٢٨ .
(٢) الملل والنحل ٣/٢٣١ ، المحبر ص ٢٢٧ .
(٣) عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٦١٠ .

هذا وقد عرف العرب قبل الاسلام الطلاق - كما عرفوا الزواج - وهو من المصطلحات القديمة عندهم ، ويعنى تنازل الرجل عن كل حقوقه التي كانت على زوجه ومفارقته لها(١) . وكان للطلاق اسباب كثيرة ، منها ان الرجل قد لا يانس الى امراته ولا يجد فيها الصفات التي يبغيها ، ومنها ايضا زوال شباب وجمال المرأة ، او تطاولها على عشيرة زوجها .

وكان الطلاق ، حلة وعقده ، بيد الرجل ، ولكن في بعض الاحايين كان يمكن للمرأة ان تطلب الطلاق وتجاب الى طلبها ، بل من حقها ان تشرط ان تكون العصمة في يدها . ومن ابرز النسوة اللاتي كان لهن حق الطلاق ، سلمى بنت عمرو بن زيد ، فقد كانت لا تتزوج الا وامرها بيدها .

وهناك أنواع مختلفة من الطلاق منها ما يعرف باسم الطلاق الشائع ، وهو طلاق المرأة ثلاثا على التفرقة ، فكان الرجل يطلق امراته تطليقة ثم هو احق بها ، فان طلقها اثنتين فهو احق بها ايضا ، فان طلقها ثلاثا فلا سبيل له اليها(٢) . وكان بإمكان الرجل الرجوع الى زوجته بعد الطلاق الثالث ان تزوجت بعد ذلك من رجل غريب وكان هناك نوع آخر من الطلاق عرف باسم «الظهار» : كان يقول الرجل لامراته «انت على كظهر امي او كبطنها او كفخذها او كفرجها» فيقع بذلك الظهار ، اي تحريم المرأة على زوجها تحريما مؤبدا . بل فان العرب كانوا يعدون الظهار من اشد أنواع الطلاق تحريما(٣) . ومن أنواع الطلاق ايضا ما عرف باسم «الايلاء» وهو القسم على ترك المرأة مدة - شهور - أو سنة - ايذاء لها فلا يقربها(٤) . ويعد «الخلع» من أنواع الطلاق في الجاهلية وكان يعنى ان تفتدى المرأة من زوجها بمالها وتختلع منه اذا اساء عشرتها(٥) . وعرف العرب «العدة» وهي من الامور التي تتصل بالطلاق ، وهي تلك الفترة التي يسمح فيها

(١) تاج العروس ٤١١/١ ، اللسان ٦٤٤/١ .

(٢) الحوفي ، المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٣) جواد على ٥٥١/٦ .

(٤) اللسان ٤٣/١٨ ، تفسير ابن كثير ٢٦٨/١ .

(٥) الحوفي ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .

للمرأة بان تتزوج بعد طلاقها وكذا بعد وفاة زوجها استبراء للرحم ومحافظة على النسب (١) . وان كان البعض من المؤرخين ينكر معرفة العرب في الجاهلية للعدة بالنسبة للمطلقة ولم يكن للمطلقة في الجاهلية نفقة ولا سكن بعد طلاقها من زوجها .

ويذهب المؤرخون المسلمون الى ان العرب القدامى انما كانوا ينظرون الى المرأة وكأنها قناع ، وكانوا يحرمونها أيما نصيب من ارث زوجها المتوفى ، او أي نصيب من انسابها ، بل أنها هي نفسها كانت تورث كجزء لا يتجزأ من تركة المتوفى (٢) . لان العرف الشائع عندهم أن النساء ، وكذلك الصغار من الغلمان - لا يرثون ، ومن ثم فالارث انما هو مقصور على «من طاعن بالرمح وزاد على الحوزة ، وحاز الغنيمة» (٣) .

على ان الامر ربما لم يكن كما صورته هؤلاء المؤرخون ، فهناك بعض الأدلة التي تشير الى توريث البنات في الجاهلية ومنها ما يرويه ابن حبيب من ان عامر بن حشم بن غنم ، قد ورث ماله لولده في الجاهلية للذكر مثل حظ الانثيين (٤) . كذلك فان «ضباعة بنت عامر» قد ورثت من زوجها مالا كثيرا ورجعت به الى قومها (٥) .

وفيما يتعلق بامر الملكية الفردية بالنسبة للمرأة العربية ، فهو امر ثابت مؤكد ، وهناك نص نبطي أرخ بالعام الخامس والاربعين من عهد الملك «الحارث الرابع» (٩ ق م - ٤٠ م) ويتحدث عن قبر شاذة رجل يدعى «غانم» وزوجه «أرسكسه» ، وكان لغانم هذا ثلث القبر ، بينما لزوجه الثلثان ، ويؤكد هذا النص على تمتع الزوجة باهلية التملك الفردى ، دون فرض ولاية الزوج بالضرورة عليه ، بل فان نصيب الزوجة قد زاد على نصيب زوجها (٦) .

-
- (١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .
 - (٢) محمد علي ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .
 - (٣) جواد علي ، ٥٦٢/٥ - ٥٦٣ .
 - (٤) المحبر ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .
 - (٥) أشعار النساء للمريزاني ص ٢٤ .
 - (٦) عبد العزيز صالح ، المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة ، الكويت ، ١٩٨٥ ، ص ١٥ - ١٧ .

وعلى الرغم من مكانة المرأة العربية في مجتمعها وما كانت تتمتع به من حقوق ، إلا أن العرب كانوا يفضلون الذكور على الإناث ، ومن ثم فإذا ولدت المرأة ولدا هنا أفراد القبيلة وذبحوا الزبائح ، أما إذا أنجبت بنتا ، فكانوا ينفرون منها خوفا من العار ، أو أن يسببن في الحروب أو خشية الاملاق . وقد وصل بغض بعض الجاهليين للإناث إلى حد الوأد بعد ولادتهن مباشرة . ويقدم الباحثون عدة أسباب دفعت العرب إلى وأد بناتهم ومنها الخوف من الفقر والعجز عن الانفاق على الذكور وعلى الإناث معا ، كما أن الخوف من وقوع البنت في الغواية ، فتلحق السبة بأهلها وعشيرتها وقبيلتها وكان أيضا من أسباب وأد البنات ، إلى جانب شعور العربى في الجاهلية بالغيرة والخوف من العار الذى تجلبه البنت إذا كبرت وتعرضت للسبى .

وعرفت المرأة العربية في الجاهلية الحجاب ، مثلها مثل سائر نساء عصرها في جميع البلدان ، فوجدت النساء السافرات ، وآخريات متحجبات ، وكان الحجاب كما هو واضح من العديد من الأدلة عبارة عن ثوب طويل ينزل حتى العرقوب ، وهرقع يغطى به الوجه (١) .

ثانيا - مكانة المرأة العربية :

بلغت مكانة المرأة عند العرب درجة تسمح لها أن تشارك في الأحلاف التى تعقد بينهم ، ومن ذلك حلف الأحابيش الذى عقده «عبد مناف بن قصي» مع خزاعة ، وبنى الحارث من عبد مناة من كنانة وقد اشتركت فيه «عاتكة بنت مرة بن هلال بن قالح بن ذكوان» زوجة عبد مناف ، بل هى التى جرى للحلف على يديها (٢) . كذلك كانت المرأة تعد من «المجيرات» فكانت تجرن كالرجال تماما ، فيقبل جوارهن ويخمين الرجال ، ويصان حماهن .

وكان للمرأة سواء كانت أما أو اختا أو زوجة مكانتها عند العرب ، فقد رأينا بعض الملوك ينسبون إلى أمهاتهم وكذلك بغض الأفراد ، بل لم يقتصر

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) تاج العروس ١٣٠/٤ - تاريخ الطبرى ٥٠١/٢ .

الامر على ذلك ، بل أننا نجد قبائل بأسرها تنسب الى أمهاتهم ، كذلك كان للام تأثير كبير في ابنائها ، حتى أن هناك بعضا من مشاهير العرب انما قد غيروا ديانتهم بتأثير من أمهاتهم . كذلك كانت الزوجة العربية تحتل مكانة هامة عند زوجها ، اذ كان الرجل ينظر الى زوجة على أنها شريك في الحياة جدير بالرعاية والحب والاعزاز ، وكان يحسن عشرتها ، ويستمتع في كثير من الاحيان الى مشورتها .

المراجع المختصرة

أولا : المراجع العربية

- القرآن الكريم .
- التوراة .
- ابن الاثير (عز الدين أبو الحسن على الشيباني) : الكامل في التاريخ .
(الجزء الاول والثاني) - بيروت ١٩٦٥ .
- ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد) : كتاب الاصنام - الدار القومية - القاهرة ١٩٦٥ .
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : مقدمة ابن خلدون - القاهرة ١٩٥٧ .
- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الاندلسي) : العقد الفريد - القاهرة ١٩٥٣ .
- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) : البداية والنهاية في التاريخ (الاجزاء ١ - ٤) - بيروت ١٩٦٦ .
- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم) : لسان العرب - بيروت ١٩٥٥ .
- أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) : المختصر في أخبار البشر - الجزء الاول - القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ايليا حاوى : امرؤ القيس - بيروت ١٩٧٠ .
- الدكتور أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ١٩٦٥ .

- - أحمد أمين : فجر الاسلام - بيروت ١٩٦٩ •
- - الدكتور أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها - القاهرة ١٩٥٧ •
- - الدكتور أحمد فخرى : معبد المساجد ببلاد مراد (المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية المنعقد في غاس في نوفمبر ١٩٥٩) - القاهرة ١٩٦١ •
- - الدكتور أحمد فخرى : دراسات في تاريخ الشرق القديم - القاهرة ١٩٦٣ •
- - الدكتور اسراييل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب - القاهرة ١٩٢٧ •
- - الدكتور اسراييل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية - القاهرة ١٩٢٩ •
- - الاصفهاني (أبو الفرج على بن الهيثم) : الاغانى - القاهرة ١٩٢٩ •
- - الازرقى (أبو الوليد محمد بن عبد الله) : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (جزءان) - بيروت ١٩٦٩ •
- - السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله) : الروض الانف - القاهرة ١٩٧١ •
- - الدكتور السيد عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب - الجزء الاول - تاريخ العرب قبل الاسلام - مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية •
- - الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك (الاجزاء ١ - ٤) - دار المعارف - القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٦٩ •
- - المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : التنبيه والاشراف - القاهرة ١٩٦٨ •
- - المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : أخبار الزمان - بيروت ١٩٦٦ •
- - الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الاكليل - الجزء الاول - تحقيق محمد بن على الاكوع - القاهرة ١٩٦٣ •

- الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الاكليل - الجزء الثاني - تحقيق محمد بن علي الاكوع - القاهرة ١٩٦٦ .
- الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الاكليل - الجزء الثامن - فشرة نبيه فارسي - بغداد ١٩٣١ .
- الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الاكليل - الجزء العاشر - فشرة محب الدين الخطيب - القاهرة ١٣٦٨ هـ .
- الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : صفة جزيرة العرب - تحقيق محمد بن علي الاكوع - الرياض ١٩٧٤ .
- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) : تاريخ اليعقوبي - الجزء الاول والثاني - بيروت ١٩٦٠ .
- جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام - بيروت ١٩٦٨ .
- جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي - القاهرة ١٩٢٢ .
- الدكتور جواد علي : الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (عشرة اجزاء) بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧١ .
- الدكتور جبودة حسنين جبودة : شبه الجزيرة العربية ، دراسة في الجغرافية الاقليمية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .
- الدكتور حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم - الاسكندرية ١٩٧١ .
- حسين عبد الله باسلامه : تاريخ الكعبة المعظمة - القاهرة ١٩٦٤ .
- الدكتور خليل يحيى نامى : نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها - القاهرة ١٩٤٣ .
- الدكتور خليل يحيى نامى : نقوش خربة معين - القاهرة ١٩٥٢ .
- رثيف خورى : امرؤ القيس - بيروت ١٩٣٤ .
- الدكتور سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام - بيروت ١٩٧٥ .

– صلاح البكرى : تاريخ حضرموت السياسى – الجزء الاول – القاهرة
١٣٥٤ هـ .

– الدكتور عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم – الجزء الاول –
مصر والعراق – القاهرة ١٩٧٣ .

– الدكتور عبد العزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة في عصورها القديمة،
القاهرة ١٩٨٨ .

– الدكتور عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية – الجزء
الاول – القاهرة ١٩٦٧ .

– الدكتور على حسنى الخربوطلى : الكعبة على مر العصور – مجموعة
أقرأ – القاهرة ١٩٦٧ .

– الدكتور عمرو قنوح : تاريخ الجاهلية – بيروت ١٩٦٤ .

– فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب – الرياض ١٩٦٨ .

– الدكتور محمد بيومى مهران : دراسات في تاريخ الشرق الادنى
القديم – الجزء الثانى – اسرائيل – القاهرة ١٩٧٣ .

– الدكتور محمد بيومى مهران : الساميون والآراء التى دارت حول
موطنهم الاصلى – مجلة كلية اللغة العربية – العدد الرابع – الرياض ١٩٧٤ .

– الدكتور محمد بيومى مهران : قصة الطوفان بين الآثار والكتب
المقدسة – مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية – العدد الخامس –
الرياض ١٩٧٥ . .

– الدكتور محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور
القديم – مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية – العدد السادس –
الرياض ١٩٧٦ .

– الدكتور محمد بيومى مهران : دراسة حول الديانة العربية القديمة
الاسكندرية ١٩٧٨ .

- الدكتور محمد بيومى مهران : دراسات فى التاريخ الفرأنى – الجزء
الاول – فى بلاد العرب – ١٩٨٠ .
- الدكتور محمد بيومى مهران : الحضارة العربية القديمة ،
الاسكندرية ١٩٨٨ .
- الدكتور محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ،
الاسكندرية ١٩٩٤ .
- الدكتور محمد عبد القادر : الساميون فى العصور القديمة – القاهرة
١٩٦٨ .
- محمد مبروك نافع : تاريخ العرب – عصر ما قبل الاسلام – القاهرة
١٩٥٢ .
- الدكتور مصطفى العبادى : تاريخ العرب قبل الاسلام ، غير منشور ،
بيروت ١٩٨٤ .
- نشوان بن سعيد الحميرى : ملوك حمير واقبال اليمن – القاهرة
١٣٧٨ هـ .
- وهب بن منبه : كتاب التيجان فى ملوك حمير – حيدر آباد الدكن
١٣٤٧ هـ .
- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) : معجم البلدان (خمس
اجزاء) – بيروت ١٩٥٥ – ١٩٥٧ .

ثانيا : المراجع المترجمة الى اللغة العربية

- ادوارد جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ،
ترجمة محمد على أبو ريدة - القاهرة ١٩٦٩ .
- آرثر كريستنسى : ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور يحيى
الخشاب - القاهرة ١٩٥٧ .
- برنارد لويس : العرب في التاريخ ، ترجمة نبيه فارس ومحمود
يوسف - بيروت ١٩٥٤ .
- تيودور نولدكه : امراء غسان من آل جفنة ، ترجمة قسطنطين زريق
وبندلى خورى - بيروت ١٩٣٣ .
- جاكين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة قدرى قلجى -
بيروت ١٩٦٣ .
- جون الدر : الاحبار تتكلم ، ترجمة الدكتور عزت زكى - القاهرة
١٩٦٠ .
- ديتلف نلسن وآخرون : التاريخ العربى القديم ، ترجمه وزاد عليه
الدكتور فؤاد حسين - القاهرة ١٩٥٨ .
- ريجيس بلاشير : تاريخ الادب العربى - العصر الجاهلى - ترجمة
الدكتور ابراهيم كيلانى : بيروت ١٩٥٦ .
- رينيه ديسو : العرب في سورية قبل الاسلام - ترجمة عبد الحميد
الدواخلى - القاهرة ١٩٥٩ .
- سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة : ترجمه وزاد عليه
الدكتور السيد يعقوب بكر - القاهرة ١٩٦٨ .

- فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - الجزء الاول - ترجمة جورج حداد ، وعبد الكريم رافق - بيروت ١٩٥٨ .
- فيليب حتى : تاريخ العرب - الجزء الاول (مطول) - ترجمة ادوارد جرجى ، جبرائيل جيور ، بيروت ١٩٦٥ .
- ول ديورانت : قصة الحضارة - الجزء الثانى - ترجمة محمد بدران ، القاهرة ١٩٦١ .
- وند لفيليبس : كنوز مدينة بلقيس ، قصة اكتشاف مدينة سبا الاثرية فى اليمن ، ترجمة عمر الديرادى - بيروت ١٩٦١ .
- بوسبيوس القيصري : تاريخ الكنيسة ، ترجمة مرقص داود - القاهرة ١٩٦٠ .
- يوسفوس : تاريخ يوسفوس - دار صادر - بيروت .
- دائرة المعارف الاسلامية - دار الشعب - القاهرة ١٩٦٩ .

ثالثاً : المراجع الأجنبية

- Abbot (Nabia), Pre-Islamic Arab Queens, *AJSL*, 58, 1941.
- Albright, (W. F.), The Chronology of Ancient South Arabia in the Light of the First Campaign of Excavation in Qataban, in *BASOR*, 119, 1950.
- Albright, (W.F.), A Note on Early Sabacan Chronology in *BASOR*, 143, 1956.
- Barton, (G. A.), The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1924.
- Barton, (G. A.), Semitic and Hamitic Origins, London, 1934.
- Bowen (R. L.) and Albright (F.), Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, 1958.
- Burton (R. F.), Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, London, 1929.
- Bury (J. B.) A History of the Eastern Roman Empire, The Fall of Irene to the Accession of Basil, I (802-867), London, 1912.
- Bury (J. B.), A History of the Later Roman Empire, From Arcadius to Irene (895-800), 2 Vols., London, 1931
- Buxton, (L. H. D.), The People of Asia, London, 1985
- Cantirean (J.), Inventaire des Inscriptions de Palmyra, Paris, 1936.
- Cook (S. Al), in The Cambridge Ancient History, III, Cambridge, 1965.
- Cook (G. A.), A Text-Book of North-Semitic Inscriptions Moabite, Hebrew, Phoenician, Aramaic, Nabataean, Palmyrene, Jewish, Oxford, 1903.
- Cooke (G. A.), Palmyra, in *EB*, 17, 1964.

- Caskel (W.), *Liḥyan und Liḥyanisch*, Köln, 1954.
- Cornwall (P. B.), *Ancient Arabia, Explorations in Hasa, 1940-1941*.
- Dhorme (E.), *Palmyra dans les Textes Assyriens*, RB, 1924.
- Dozy (R.), *Die Israeliten Zu Mekka*, 1864.
- Dussaud (R.), *Les Arabes en Syrie avant l'Islam*, Paris, 1955.
- Dussaud (R.), *la Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam*, Paris, 1955.
- Fakhry (A.), *An Archaeological Journey to Yemen*, 3 Vols. Cairo, 1952.
- Gibbon (E.), *The Decline and Fall of the Roman Empire*. London, 1950.
- Hastings (J.), *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, Edinburgh, 1908-1921.
- Halevy (J.), *Rapport Sur une Mission Archeologique dans le Yemen*, JA, VI, Paris, 1872.
- Hitti (P. K.), *History of Arabs*, London, 1960.
- Hogarth (D. G.), *A History of Arabia*, Oxford, 1922.
- Hommel (F.), *Explorations in Arabia*, Philadelphia, 1903.
- Huzayyin (S. A.), *Arabia and the Far East*, Cairo, 1942.
- Jamme (A.), *A New Chronology of the Qatabanian Kingdom*, BASOR, 120, 1950.
- Jamme (A.), *South Arabian Inscription*, Princeton, 1955.
- Jamme (A.), *A New Sabaean Inscription from South Arabia*, 1968.
- Jamme (A.), *Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib)*, Baltimore, 1961.
- Littmann (E.), *Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran*, 1914.
- Littmann (E.), *Nabataen Inscriptions from Egypt*, BSOAS, 1953.

- Luckenbill (D. D.), *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, Chicago, 1927.
- Moritz (B.), *Arabien*, Hanover, 1923.
- Moscati (S.), *The Semites in Ancient History*, Cardiff, 1959.
- Moscati (S.), *Ancient Semitic Civilizations*, London, 1957.
- Musil (A.), *Palmyrena*, N. Y., 1928.
- Philby (J. B.), *Sheba's Daughters*, London, 1939.
- Philby (J. B.), *The Land of Sheba*, GJ, 92, 1938.
- Philby (J. B.), *The Background of Islam*, Alexandria, 1947.
- Philby (J. B.), *South Arabian Chronology*, *le Museon*, LXII, 1949.
- Philby (J. B.), *Qataban and Sheba*, London, 1955.
- Pliny, *Natural History*, Trans. by H. Rackham, London, 1954-7.
- Ptolemy, *Geographia*, Edited by C. F. Nobbe. 3 Vols Leipzig. 1843-1845.
- Sprenger (A.), *The Campaign of Aelius Gallus*, JRAS, London, 1873.
- Strabo, *The Geography of Strabo*, Trans by H. L. Jones, 8 Vols., London, 1949.
- Tam (W. W.), *Ptolemy II and Arabia*, JEA, 15, 1929.
- Winnett (F. V.) and Reed (W.), *Ancient Records from North Arabia*, Toronto, 1970.
- Wright (E.), *The Bible and the Ancient Near East*, N. Y., 1965.
- *Encyclopaedia Biblica*.
- *Encyclopaedia Britannica*.
- *Encyclopaedia of Religion and Ethics*.
- *Encyclopaedia of Islam*.

الخسائر



خريطة رقم (١)

ببلاد العرب

مأخوذة من كتاب «في تاريخ العرب قبل الاسلام»
للاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد



خريطة رقم (٢)

اليمن والحبشة

ماخوذه من كتاب «الحضارات السامية القديمة»

تأليف سبتينو موسكاني وترجمة يعقوب بكر

محتویات الكتاب

٩	مقدمة
		الفصل الاول :
١٣	جغرافية شبه الجزيرة العربية ومواردها الطبيعية
		الفصل الثانى :
٢٥	مصادر التاريخ العربى القديم
		الفصل الثالث :
٧٥	طبقات العرب
		الفصل الرابع :
٨٥	دولة معين
		الفصل الخامس :
٩٣	دولة حضرموت
		الفصل السادس :
١٠١	دولة قتبان
		الفصل السابع :
١٠٩	دولة سبأ
		الفصل الثامن :
١٤٣	مكة المكرمة
		الفصل التاسع :
١٦١	المدينة المنورة
		الفصل العاشر :
١٧١	الانبياء

الفصل الحادى عشر :

تدمر ١٩٧

الفصل الثانى عشر :

الفسطاط ٢١٣

الفصل الثالث عشر :

مملكة كندة ٢٢٣

الفصل الرابع عشر :

الفكر الدينى العربى القديم ٢٣٣

الفصل الخامس عشر :

المرأة فى المجتمع العربى القديم ٢٥١

المراجع ٢٦١

الخبرائط ٢٧٥

